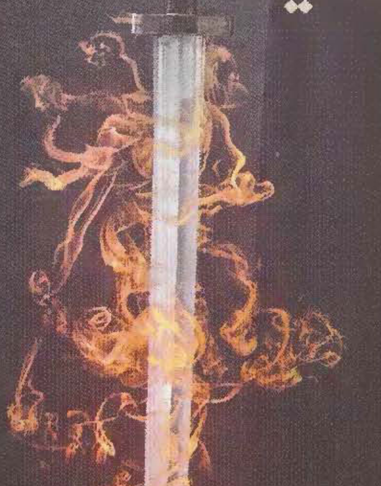


الحاكم بأمر الله

رواية

د. حسين السيد





الكتاب : الحاكم بأمر الله

المؤلف : حسين السيد

تصميم الغلاف : كريم آدم

تدقيق لغوي : رهام الغنام

رقم الإيداع : 1530 / 2018

الترقيم الدولي : 978-977-778-028-5



20 عمارات منتصر – الهرم - الجيزة

ت- 02-35860372 011-27772007

Noon_publishing@yahoo.com



الحاكم بأمر الله

رواية

حسين السيد





إهداء

ولأنك الوحيدة الفريدة..

فلا مفر من قصائد حب جديدة..

إلى فريدة..

أنت أعجوبتي الأولى.



(مقدمة)

جرى كل شيء بسرعة !

رقد الخليفة الفاطمي، الحاكم بأمر الله، على ظهره باسترخاء فوق صفحة الماء، في بركة الاستحمام الكبيرة، المبلطة بالجرانيت، والمزينة بالفسيفساء، حيث تمدها الأنفاق القادمة من النيل بالماء البارد.

أرهق الحر الخانق والرطوبة اللزجة كل سكان القصر. فاستسلموا للكسل والخمول والنوم. اغمض الخليفة عينيه كي لا تحرقهما الشمس المتوهجة كالجحيم من فوقه. وطرد من عقله أي تفكير حتى صار عقله كصفحة بيضاء لا يلوثها عكاره .

إنه وقت الاسترخاء والراحة لا وقت الحكم والرعية وضجيج العرش !

كان أمامه بعض الوقت، حتى ينتهى من هذا الحمام اليومي المنعش، الذي يلطف جسده من قيظ الصيف، والذي جاء هذا العام حاملا معه الحر والرطوبة الأشد من أي صيف آخر رآه في هذا البلد الذي يحكمه منذ أعوام كثيرة .

هنا شعر بالكف التي قبضت على قدمه فجأة، وفى اللحظة التالية جذبته للأعماق بقوة هائلة، ففتح عينيه في ذعروذهول، قبل أن تكتم المياه التي ملئت فمه وصدره صرخة كان ينوى اطلاقها !

سعل أسفل الماء بقوه ليطرد الماء من رئتيه فتصاعدت فقاعات الهواء من فمه نحو السطح، وحاول بكل قواه ان يستدير ليرى من يجذبه لقاع المسبح العميق كي يغرقه. بالكاد نجح في تحريك رأسه فشاهد بصورة ضبابية وجه قاس وعيون سوداء واسعة، وعباءة سوداء تسبح في الماء من حوله .

هل يتعرض لمحاولة اغتيال جديدة؟ !



راح يحاول المقاومة. حاول أن يجذب قدميه من الكفين القابضتين عليهما كالكلّابة فلم يفلح. حاول أن يضرب الماء بكفيه ليصعد، فغاص بجسده أكثر لأسفل. حاول أن يكتم أنفاسه كي لا يتسلل الماء لصدره ثانية فيموت، لكن الوقت مضى بسرعة كالبرق حتى بدأت مقاومته في الذبول والرجل الذي يحاول اغراقه مازال يجذبه لأسفل في إصراروقوة لا تقهر.

تمنى في اللحظة الأخيرة لو يشعر حارساه بما يدور، فيهرعا لإنقاذه. لكن خاطراً لعيناً ألح على عقله في تلك اللحظة. ماذا لو كانا مشتركين هما الآخرين في تلك المؤامرة؟ ماذا لو كانا على علم بما يدور بحمام السباحة الأن، وكانا في انتظارأن ينتهى الأمربغرقه؟

شعر بذعر لا حد له في تلك اللحظة وراودته رغبة عارمة في البكاء، إنه لا يرغب في الموت، بل ويخشاه بشدة. الخليفة الذي لا يعرف الخوف طريقا لقلبه كان يتذوق طعم الخوف للمرة الأولى، ويا له من طعم مر! كان الموت أدنى إليه من أي شيء آخر، في تلك اللحظة، ومع انهيار مقاومته، لم يقدر على كتمان أنفاسه اكثرمن هذا، ففتح فمه واستسلم صدره للماء في يأس وعجز.

كان الألم عنيفا وقاتلا، وبدا كعشرات الخناجر التي راحت تقطع رئتيه وصدره بلا رحمة. صارت الرؤية ضبابية حتى أظلمت عيناه، وتشوش عقله، ثم فارق الوعي رأسه، لكن الرجل الذي يغرقه ظل محافظا على جسده بأكمله أسفل الماء، وكأنما يرغب في التأكد من موته .

بالأعلى شعر الحارسين الواقفين في ثبات كالأصنام، وقد أوليا الحمام ظهريهما، باضطراب ما ينبعث من ورائهما. كانت هناك أصوات لا تبعث على الراحة تأتي من أسفل بركة الماء التي يسبح فيها الخليفة. تبادلا النظرات في قلق وتوتر، بلا ادنى صوت!



هل يلتفتا ليريا ما يحدث؟ لكن الخليفة قاس، ولا يرحم لو أُهلمت أوامره، لقد أمرهما ألا ينظرا لبركة الماء طالما كان بداخلها عارياً، ولذا لن يجرؤا على الاستدارة، والنظر للماء . فكرا في تلك اللحظة في عشرات الاحتمالات، ماذا لو كان الخليفة يلعب ويمرح في الماء كما يفعل أحيانا؟ ماذا لو كانا واهمين، فالتفتا ليريا الخليفة عاريا كما ولدته أمه، وهو الذي اعتاد ان يسبح في الماء هكذا، ويكره بشدة أن يراه أحد ما على حاله هذا؟

لو كان الخليفة بخير حينها، فلن يتردد في الفتك بهما. بل ولن تبقى رأسيهما فوق العنق طويلا بعدها !

لكن ماذا لو هناك خطر ما يحيق بالخليفة؟ ماذا لو كان قد أصيب بوعكة مفاجئة؟ بل ماذا لو كان النوم قد غلبه وهو راقد فوق الماء فهوى جسده لقاع المسبح وغرق؟

كان احتمالاً خطيراً هو الاخر، فلو مات الخليفة غريقاً لن يرحمهما أحد. لا الأميرة ست الملك، ولا صاحب الشرطة، ولا الوزير أو غيره .

كان الاختيار صعب!

وفي النهاية لم يتمكنا من الصمود لمخاوفهما أكثر من هذا، فالتفتا برأسيهما في بطء ليعلما ماذا يدور. كانت صفحة الماء قد استعادت هدوئها حينها، لكن الخليفة لم يكن هناك. اندفعا في هلع نحو بركة الماء ليقابلهما جسد الخليفة الهامد، وهو يندفع من أسفل الماء نحو السطح، ثم يطفو فوقه في جمود .

ابتلعا ريقهما في تلك اللحظة بصعوبة. وقد أدركا الكارثة التي حلت فوق رأسيهما .

غرق الخليفة!

مات الحاكم بأمر الله !



(أ)

توتر السوق كله حين جاء المغاربة !

كانوا أربعة بأزيائهم المميزة، وأجسادهم الضخمة، ووجوههم الباردة القاسية. شقوا طريقهم في السوق بلا مبالاة، وقد راحت أعينهم تجوب الوجوه والبضائع والحوانيت، في وقاحة واستهزاء وتحفز خفي. تعلم الجميع منذ عقود أن يتجاهلوهم. أن يتحاشوا أنظارهم. وألا يعترضوا طريقهم. هذا هو السبيل الوحيد لاتقاء الخسائر الكبيرة، التي لا قبل لأحدهم بها.

في العادة سوف ينهب هؤلاء المغاربة بعض البضائع والسلع من بعض الحوانيت والباعة الجائلين لقاء ثمن بخس، أو حتى بلا ثمن ثم يرحلون، حينها يقدّر باقي التجار في السوق قيمة ما قد سرق، ثم يتبرع كبرائهم بدفع ثمن تلك السلع لأصحابها .

الشيء المهم هو أن يرحل رجال الخليفة هؤلاء عن السوق في أسرع وقت ممكن، فكلما مكثوا في السوق، كانت الخسائر تتضاعف. مروا بالقصاب فخفض رأسه متظاهرا بالانشغال في شريحة اللحم التي يسلخها من العظم، ويهيئها لرجل ضامر الوجه، وقف أمامه وقلبه يضطرب في صدره. ثم امتدت يد أحدهم نحو تفاح صفته بائع عجوز متهالكة فوق صندوق خشبي، وراحت تبيعه. التقط واحدة حمراء نضره ونقلها الي فمه وقضمها. كانت حلوة، فامتدت يده ثانية نحو كومة التفاح لينتقي تفاحاتٍ ثلاث، وينقلها الي أصحابه وهو يقول لهم في رضا :

"-تفاح لذيذ"

لم ترفع البائعة العجوز رأسها نحوهم ولم تحتج أو تعترض، وفى سرها لم تفكر في الظلم الواقع عليها، ولم تدعو عليهم مثلا، بل كان كل دعائها أن يكتفوا



بما اخذوه، ويبتعدوا عنها. سوف يعوّضِها كبار السادة التجار، دائما يفعلون. ابتعدوا لخطوات عنها فتنهدت في خلاص وهي تحمد الله، لكن الرجل المغربي الثاني توقف، وعاد إليها وابتسم وهو يمد كفه نحو التفاح ويعبث فيه، ثم قال :

"-تفاح حلو. من أين جئت به يا امرأة، وبكم تبيعينه؟ "

همست في خضوع، دون أن ترفع راسها نحوه، أو تحتج على يده التي هدمت كومة التفاح، وبعثرت بعضه على الأرض من حولها :

"-الأوقية منه بأربعة دراهم، يا سيدي "

اتسعت ابتسامته المستخفة، وأطلق من أنفه شخيرا مستهجنا، وهتف وهو يميل نحوها ويرميها في صدرها بالتفاحة التي في يده:

"-أربعة دراهم كاملة في هذا التفاح، انت تسرقين، سوف يشنقك المحتسب ثم يسلخك حين يعلم هذا. "

آلمت الضربة المرأة الضربة لكنها كتمت توجعها، وقد أصابها ذكر المحتسب الذي لا يرحم بالرعب، فوجدت نفسها تبكي، وهو ترجو المغربي، وتقبل الثرى بين قدميه استجداء وذلا، وتقول :

"-خذه بلا ثمن يا سيدي، لكن لا تجلب رجال المحتسب "

تقدم مغربي أخر، وركل التفاح كله فتدحرجت الثمار على الأرض حولهم، وقال وهو يجذب صاحبه :

"-لسنا هنا لنضيع وقتنا مع عاهرة شمطاء عجوز كهذه. هيا بنا يا رجل."

تحركوا ثانية وآذان كل من السوق تتبعهم، دون أن تجسر عيونهم على النظر إليهم. الكل قد خفض صوته أو تظاهر بأنه غير منتبه لهم، الباعة والمتسوقون على السواء .



مروا بفتاة مليحة تتدثر بعباءة سوداء واسعة، وقد قبضت في يدها على سلة من الخوص ممتلئة بالخضار واللحم وبعض البرتقال. صفر أحدهم إعجابا، وأسرع أخر ليحلق بها وهو يهتف :

"-الي أين أيتها الفاتنة؟ هل ترغبين في من يحمل السلة الثقيلة تلك عنك، أم ترغبين في الدنانير؟ معنا الكثير! "

رفع أمام عينها كفا تمتلئ بالدنانير، فأشاحت بوجهها في رعب، وأسرعت في مشيتها . لكن الباقين لحقوا بها، وقد أذهبت حلاوتها عقولهم، ثم راحوا يدورن حولها فتجمدت في مكانها، وهى لا تدرى الي أين تذهب، وكيف تتخلص منهم. رفعت كفها الأيمن وحاولت إخفاء وجهها بخمارها المطرز، وضحك أحد المغاربة وهو يقرب وجهه منها وقال:

"-يمكننا أن ندفع الكثير من أجل هذا الجمال الذي تخفيه عنا "

اختلجت أنفاسها وهتفت بخوف :

"-أرجوكم. دعوني أمر. "

ضحك الجميع وقال أحدهم في استخفاف:

"-لا يلقى المرء في مثل حسنك كل يوم يا جارية، فكيف ندعك؟ "

أرادت أن تندفع من فرجة، بدت بينهم لكن أحدهم قبض على ذراعها، فصرخت في هلع وذعر، وهي تحاول التملص من كفه:

" -دعوني أذهب، أرجوكم !"

راقب كل من بالسوق ما يدور وقد حبس الجميع أنفاسه، آثر أغلبهم السلامة، وعدم التورط في الأمر، وتردد الباقون في الزود عن الفتاة، حتى أن

احد الزبائن وكان يشترى بعض البخور والزيوت من العطار، همس للبائع في صوت خفيض:

"-هذا خطؤها، الأسواق لم تخلق لترتادها النساء !"

لكن تاجرا طاعنا في السن، يعمل في بيع الدقيق، تحرك نحوهم، وقال مستعطفا :

"-أرجوا أن تدعوها لحالها أيها السادة، وأن تقبلوا دعوتي لتناول الطعام والشراب في حانوتي، وكل ما ترغبون به من السوق هدية مني "

لطمه أحدهم على وجهه ودفعه، فوقع العجوز على ظهره، وسقطت عمامته من فوق رأسه، وقال المغربي :

"-لا تتدخل فيما لا يعينك أيها العجوز العفن، وإلزم حانوتك الحقير "

بينما شهر الباقون سيوفهم في وجه الباقين في شراسة، وهتف كبيرهم:

"-ستفارق رأس أول ما يتدخل في شأننا عنقه ".

ثم التفت إلي الفتاة التي غاض الدم من وجهها، فصار كالصفحة البيضاء، وغمغم في خشونة :

"-لا مهرب منا أيتها العاهرة، ولا تنتظري أن ينجدك أحد هؤلاء الرعاع، تحركي معنا بإرادتك أو نحملك رغما عنك!"

بدا الأمر منتهياً. سوف يختطفون الفتاة كما يحدث من حين لأخر، وسوف يجدون جثمانها بعد أيام بالقرب من القرافة أوفي مياه النيل بعد أن ينتهى هؤلاء الأوغاد منها. وفي يأس دارت عينا الفتاة لمرة أخيرة في الوجوه من حولها، عسى أن تلقى من يهب لنجدتها، لكن العيون أينما نظرت كانت تهرب من عينيها في



انكسار وعجز، في النهاية جذبها أحدهم، وقد استداروا كي يغادروا السوق بغنيمتهم، فتحركت الفتاة بينهم في اذعان المحكوم عليه بالموت .

تحركوا لخطوات قبل أن ينشق المكان بغتة عن حداد شاب، كان وجهه مسوّد بالدخان وملابسه مهترئة تعج بالثقوب والحروق الصغيرة من رذاذ النار. وقال الشاب بصوت هادئ، لكن يقطر غضباً :

"-لن تذهبوا بالفتاة الي أي مكان، اتركوها وارحلوا "

رمقه الأربعة باستهزاء، قبل أن يرفع أقربهم منه، سيفه ويلوح به أمام بصره، وهويغمغم:

"-ومن سيمنعها عنا، أنت؟ "

لم يفارق الشاب مكانه، وظل واقفاً في غير خوف، وهو يرمقه بعيون كلها مقت، حتى أن المغربي شعربالتوتر، فصاح فيه مهددا :

"-ابتعد عن طريقنا أيها المصري القذرأونسلخك حيا. "

"-ليس قبل أن تتركوها!"

لم يتمالك المغربي نفسه أمام هذا التحدي الذي يكسر من هيبتهم في السوق، فهوى بسيفه على عنق الشاب، وهويصرخ :

"اذا فقد اخترت الموت أيها الأحمق!"

لم يشك احد في السوق كله، أن تلك الضربة ستسقط رأس الشاب عن عنقه في الحال، لكن الشاب تحرك في خفة، وتراجع برأسه للخلف ليمرالسيف من أمام عنقه، قبل أن تندفع يده بقوه نحووجه المغربي، فيلكمه بقوة هَشّمت بعض أسنانه، فصرخ المغربي في ألم هائل لم يتوقعه، لكن الشاب لم يمهله، وفى



اللحظة التالية ارتفعت قدمه لتضرب يد المغربي، القابضة على السيف ليسقط بعيدا عنه، ثم ضرب رأسه بالقدم الأخرى فغاب المغربي عن وعيه.

اشتعل المكان بغتة، وتبادل المغاربة الثلاث النظرات للحظة، قبل أن يحسموا أمرهم. دفعوا الفتاة بعيدا، فوقعت على الأرض، ثم اندفعوا بسيوفهم نحو الشاب، وأحدهم يصرخ :

"- هل تجرؤ أيها العبد على ضرب اسيادك؟ سوف نقطع أطرافك ونشويها في النار، ثم نرغمك على ابتلاعها !"

تراجع الشاب في سرعة للخلف نحو دكانه، والتقط بكفه قضيب من الحديد، تلقى به سيف الأول فصده عنه ببأس، بينما امتدت كفه الأخرى نحو بوتقة لها ذراعٍ طويلة، تحوى الحديد المصهور، فرفعها بسرعة وأطلق السائل المصهور في وجه الاثنين الأخريين. كان الألم رهيبا، وقد أصيب وجه أولهم بأكثر الحديد المصهور فانطلق في المكان فحيح مرعب، وارتفعت رائحة لحم يشوى، بينما أصيب الثاني في كفه القابضة على السيف، فألقاه في ألمٍ جَمٍ، وهو يرفع كفه نحو عينيه ويقفز ويصرخ بأعلى صوته ثم جرى هارباً. رمق المغربي الأخير، الشاب الذي ينظرله في تحد وتحفز. بدا أن الشاب مصرعلى القتال للنهاية. وفي اللحظة التالية، وكأنما هرول المغربي ليفرمن السوق كله .

نظرت الفتاة في غيرتصديق إلي الشاب الذي أنقذها في ذهول، بينما رمق الشاب الشجاع، الرجل المغربي الصريع في لا مبالاة، ومن قلب السوق ارتفع صوت من قلب الحشود التي تجمهرت حولهما في توترقائلا:

"-أهلكت نفسك، وأهلكتنا يا غلام القاضي أبوالفضل. لقد حكمت علينا بالخراب بما فعلته!"



(2)

ما الذي يحدث له؟

لم يعد الحاكم بأمر الله الذي يعرفه. كل شيء به تبدل وتغير. كان يشعر بأن هناك شخص آخر في جسده. شخص لا يعرفه ولا ينتمي له. ووجد نفسه يتساءل، هل أصابه مس شيطاني يبغى هلاكه؟

هبط من عرشه الذهبي، الذي صنعه جده الأكبر عبيد الله المهدي، ليكون مُتكأ لحكمه في بلاد المغرب حين أسس دولتهم وخلافتهم بعد أن دنت له الأرض هناك وطابت. نفس العرش الذهبي الذي لم ترى الأرض مثيلا له من قبل، والذي تهافت الناس في الشوارع لرؤيته، وهو محمل فوق العربات التي تجرها الخيول، حين انتقل جده المعز لدين الله لمصر، لتصير دولة خلافته هنا في مصر. تحرك في قاعة حكمه المترامية الأطراف بعد أن أمر العبيد بإنزال الستائر كلها، كي لا تنفذ أشعة الشمس له. صارت الشمس تؤذيه بشده، بل وتحرق جلده لو تعرّض لها.

كان هذا تبدلاً أخراً فيه، فلم تكن الشمس يوما لتؤذيه، صار لا يطيق الضوء الساطع، ولا يشعر بالراحة إلا في الضوء الخافت. بل، والأكثر غرابه أنه اكتشف منذ يومين، أن عينيه صارتا قادرتين على الرؤية في الظلام الدامس. يومها أقض مضجعه كابوس سخيف، فهبّ من نومه غارق في عرقه يلهث، وقلبه ينبض بالذعر. شعر بجفاف حلقه فنهض، واتجه نحو إبريق ذهبي بحوار الفراش. صب لنفسه بعض الماء في كأس زجاجي، ثم عاد ليجلس على طرف فراشه، وهو يسترجع تفاصيل الكابوس الغريب، الذي صار يتكرر كل يوم. مضى بعض الوقت، قبل أن يدرك أن هناك خطأ ما. كانت القناديل الزيتية كلها مطفأة في الحجرة، ومع هذا كان يرى كل شيء حوله في وضوح تام!

كان الامر مخيفا. فمنذ متى يرى هكذا في الظلام مثل القطط؟ فتش عن أي مصدر للضوء في المكان فلم يجد. غادر حجرته واتجه الي حديقة القصر ليتأكد من موهبته الجديدة، وهناك ورغم غياب القمر والسماء المظلمة، ظل قادراً على رؤية كل شيء حوله، كأنه في قلب النهار. أعشاش الطيور بين الأغصان، صفوف النمل التي تتخفي في حشائش الأرض، الصراصير الليلية التي تصفر لسبب غامض. كان الأمر الغريب الآخر الذي اكتشفه في الوقت نفسه، أن سمعه صار اكثر حدة من قبل. صار قادراً على سماع دبيب النمل أسفل قدميه، بل وراح يسمح أي همس يدور داخل القصر وهو في مكانه. أصغي السمع، فميز أصوات الحراس حول القصر رغم موقعه في الحديقة .

عاد ليشعر بالرعب وهو يسأل نفسه، من الذي حل به، وأي شيطان فعل به هذا؟

تذكر أنه لم يعد يشكو من أي ألم جسماني بعدها. لم يعد يشعر بذلك الصداع العنيف، الذي لازمه طوال عمره من التهاب فتحتي أنفه المزمن. لم يشعر بألم في ساقه التي تهشمت منذ أعوام بعيدة حين كان طفلا يتسلق الأشجار، ويعدو بحماقة فوق أغصانها، حتى سقط على ساقه، وراح يصرخ من الألم، وحين أتي طبيب أبيه ليراه، أخبره ان عظام ساقه قد تهشمت، أحاط بعدها ساقه بجبيرة من الخشب والقماش، وأمره ألا يتحرك عليها لشهر كامل، ثم سقاه منقوعا مُرّ للغاية، وهو يخبره أن هذا سيذهب ألمه. يومها ظل الألم يفتك به حتى ذهب وعيه. وبعد شهر أدرك أن كسر الساق لم يلتئم تماما، وأنه قد سَبّب له عرج خفيف، وألم دائم يزداد حدة لو تحامل علي ساقه، أو انهكها بالسير لوقت طويل .

لكن الألم قد زال الآن تماما. بل إن العرج نفسه قد ذهب. صارت مشيته طبيعية تماماً. بعث في طلب طبيب القصر (عيسى ابن نسطورس)، وأخبره بما



يحدث له. بدا الطبيب في حيرةٍ، وهو يخبره أنه لا يعرف داءً تعلّمه، أوتّحدث عنه القدماء يفعل هذا. فلا مرض معروف يزيد حدة البصر في الظلام، أو يشحذ السمع كما يقول. فحص ساقه، فأخبره بحيرةٍ أكبر، أن الاعوجاج الخفيف الذي كان بها، قد اختفى. وأن ساقه صارت مستقيمة تماما كالأخرى. في النهاية قرر الطبيب أنه سيرسل الرسل ليسأل غيره من الأطباء المهرة في البلدان الأخرى، عله يكتشف سر ما يحدث .

لكن وزيره أبو عبدون النصراني، الذي كان حاضراً وقتها، ابتسم في سرور، وهتف من فوره بعد أن كبّر وهلّل :

"-يا مولاي لا داع للسؤال أو الحيرة والقلق. إنها كرامات اختص الله بها نسل الزهراء فاطمة الشريفة، إنها البشارة أنك المهدي المختار "

أعجبه ما قاله الوزير، لكن عقله لم يسترح لمثل هذا التفسير. لقد حدث هذا التغير بعد تلك الحادثة الرهيبة التي تعرض لها قبل أسبوع، حين غرق في بركة السباحة، الكرامات ليست بحاجة للحوادث المهلكة حتى تظهر. تذكر الرجل الذي أغرقه. كان هو الرجل الوحيد الذي أصابه بالخوف والذعر في حياته كلها. حتى أبوه العزيز بالله لم يرهب قلبه يوما بمثل ذلك الخوف، مهما كان غضبه. تذّكر حديثه الغامض وقوله أن سيعود قبل أن يختفي فجأة. لكن أسبوعا مضى ولم يظهر الرجل. لا يدري لماذا يرغب في رؤيته ثانيا رغم خشيته منه؟

هل قلقه وحيرته وتعكّر مزاجه في هذا الأسبوع، ناتج من لهفته على رؤية هذا الرجل المخيف العجيب ثانية؟ هل أصابه الرجل بلعنة ما، أو مرض مهلك لم تظهر كامل أعراضه بعد؟ هل يحمل الرجل الإجابات لما يحدث؟. وكان السؤال الأهم هل يظهر الرجل ثانية له، أم يطويه النسيان؟

تحسس كتفه الأيسر فتذكر الكابوس اليومي الذي يهاجمه كلما غفا أو نام. شعلة اللهب الهائلة، والعبيد السود ذوي العيون النارية المتوهجة الساجدين أمام النار، والصوت الذي يناديه من قلب النار أن يأتي. كان الرعب يملأ قلبه وقتها، وهو يتساءل، هل ما يراه مجرد حلم أو حدث حقيقي؟

كان يشعر بحرارة النار، يشم الرائحة الكبريتية الخانقة التي تملأ الجو. يسمع للهمسات المخيفة الصادرة من الظلام المدلهم من حوله. كانت دقات الطبول البدائية تدوي حينها في رأسه بلا انقطاع، والصوت الغليظ من قلب يدعوه لإلقاء نفسه في اللهب.

وفي كل مرة كان يرغب في الهرب من المكان، وقلبه يوشك على مفارقة صدره من الهلع، لكن قدميه لا تستجيبان له، وقوة رهيبة تدفعها للتحرك نحو النار. حينها كان يتحرك ببطء نحو النار، وتتردد في المكان تراتيل وثنية قديمة، كأنما تبارك ما يحدث. وفي كل مرة، وقبل أن تطأ قدمه النار، وقد بدأت حرارتها تلسع جلده وتحرقه، كان يصرخ ليهّب من نومه، وينتهي كابوسه. لكن كابوس هذا المساء كان مختلفاً.

هذه المرة وجد نفسه محاطا بمسوخ تشبه البشر في هيئتها، لكن وجوهها تحمل عيونا من نار، وفم مليء بالأنياب البارزة كأنياب السباع والضواري، ولكل منها ذراعان تنتهيان بمخالب ثلاث. قيدته المسوخ أمام النار، وهي تردد أناشيدها الوثنية القديمة، ومن قلب اللهب، امتد ذراع من نار تحمل خاتما عجيبا ملتهباً. ثم وَسمت الذراع أعلى كتفه الأيسر بالنقش الموجود على الخاتم، قبل أن تضع الخاتم في إصبعه الأوسط ليده اليسرى.

كان الألم هائلا في ذراعه وإصبعه. وأفاق حينها على الألم، ليدرك أنه ما زال يشعر بالألم أعلى كتفه وحول اصبعه. ورغم الظلام أدرك الأمر المخيف. كان



الخاتم الغريب يتوهج في إصبعه، وحين تحسس كتفه كان النقش الدامي هناك .

ازداد هلعه حين حاول خلع الخاتم الملعون من إصبعه، فلم يقدر. بدا الخاتم ملتصقا بالإصبع، وكأنما صارجزءً من جلده. كان ما يجرى لا يصدق بأي حال، فمنذ متى تفعل الاحلام هذا؟

نظر الي الخاتم ذو القوش الغريبة في تلك اللحظة، وهمس :

"-ترى من أين أتيت، وما هو سرك؟ "

ثم ارتقى درجات العرش الثلاث ونادى على حاجبه قبل ان يجلس فجاء الأخير بلا ابطاء ليقول له آمرا :

"-ابعث في طلب السحرة، والمنجمين، والحكماء، لا تدع واحداً تعرفه إلا وجئتني به "

خرج الحاجب المذهول لتنفيذ الامر بينما تهالك الحاكم بأمر الله على العرش وغمغم بإعياء :

"-أريد أن اعرف !"

(3)

لم ينس الفاطميون فضل المغاربة، وبخاصة قبيلتي كتامة وزناته، في قيام دولتهم وصمودها في أيامها الأولى. لقد حموهم، وحاربوا معهم أعدائهم من الملوك والبربر، وأخفوهم حين غلبهم أعدائهم، وكادوا أن يظفروا بهم.

وحين قدم المعزلدين الدين الفاطمي الي مصر، كانوا الأكثرعددا بين جنده وجيشه، قرّبهم منه مثلما فعل أسلافه، لكن في غير إسراف. ولأنه يعلم خشونة



طبعهم وسرعة غضبهم، ونفور العامة منهم، فقد أمر ألا يبيتوا في الفسطاط بين المصريين. بل وخصص لهم أحد الأزقة في القاهرة ليكون مسكنا ومستقرا لهم. كانوا يشعرون أنهم هم سلاح الدولة القادر على البطش، فاستخفوا بالباقين. وكم قامت من خلافات بينهم وبين باقي الجند من الاتراك والبربر والعرب أو حتى المصرين، فكانوا حينها يحتشدون ويتحركون كرجل واحد، ويبطشون بمن خالفهم، فلا يقدر أحد على الوقوف أمامهم . يقولون أن المعز لدين الله، ومن بعده العزيز بالله، قد ضاقا ذرعاً بهم وبأفعالهم، وعبث اشرارهم، لكن دون أن يتخذا قرارا حاسما بإبعادهم مثلا عن مصر، فالكل ما زال يذكر لهما اخلاصهم للخلافة، وكيف حاربوا ببسالة مع باقي جيوش الخليفة الفاطمي ،القرامطة في الشام والمدينة ومكة وبر مصر، وكيف كان النصر حليف جيش الخليفة بفضل شجاعتهم مع باقي الجنود. انهم كالدواء المُر، يؤرق الدولة ويسبب لها الكثير من المتاعب، لكن لامجال أبدا للاستغناء عنه .بلغ المغاربة أرض السوق وقد ابتعد عنه أصحابه، كانت الحوانيت مغلقة وقد دعمت أبوابها ببعض ألواح الخشب في محاولة بائسة لتأمنيها، ولملم الباعة بضاعتهم التي فرشوها في الطرقات وذهبوا، حتى الخفر من حراس السوق فارقوه، الكل كان يدرك العاصفة القادمة، والكل كان يعلم أن المواجهة لها ثمن عظيم، ولأنه لا أحد كان مستعداً لدفع هذا الثمن، فقد آثر التجار والباعة السلامة لأرواحهم، فانسحبوا وهربوا من المكان .

بلغوا الموضع الذي جرى فيه العراك فوجدوا جثة المغربي الصريع ملقاة على الأرض، وقد أكل الحديد المصهور وجهه وصدره حتى ظهر العظم. رفعه أحد الأربعة الذين بدأوا الشجار، أمام أعين باقي زملائه المسلحين بالسيوف والفؤوس والخناجر والسكاكين، وصرخ ليشحذ همتهم ويؤجج من غضبهم :



"-انظروا كيف قتله المصريون؟ لقد أحرقوه بالنار ثم تركوه في الشارع لتأكله الكلاب "

ارتفع من الحشد صياح مختلط غاضب غير مفهوم

"سوف ننتقم له "

"علينا نسلخ جلودهم احياء "

"لنضعهم فوق الخوازيق ثم نلعق رؤوسهم فوق حوانيتهم "

"سوف نهتك فروج نسائهم وغلمانهم "

وغيرها من الصيحات الغاضبة. قبل أن يندفعوا كالعاصفة الهوجاء نحو باقي السوق. بينما وقف كبيرهم في مقدمة السوق يراقبهم دون أن يعترض على ما يفعلوه. حطموا الأبواب وكسروا الأقفال واقتحموا الدكاكين الصغيرة والحوانيت. نهبوا البضاعة التي قدروا على حملها. وما استصعب عليهم اشعلوا فيه النار. بينما قام المغاربة الثلاثة من أصحاب القتيل بهدم محل الحدادة الذي يعمل به الشاب، ثم أشعلوا فيه النار، قبل أن يتقدم أحدهم نحو كبير المغاربة، وقال في نشوة وانتصار:

"-لقد دمرنا المكان كله. انهم يستحقون ما حل بهم "

"-هذا لا يكفي ! أريد ذلك الشاب الذى قتل أخاكم، أطلقوا البصاصين ليعلموا من يكون، ثم ائتوني به لأقتص منه أمام أعين أمه وأبيه "

"-وماذا لو قبضت عليه الشرطة السفلية قبلنا؟ "

"-داهموا السجن حينها، واحملوه من هناك عنوة، لن نصمت حتى يقول الناس أن مغربيا قتله أحد الرعاع، ولم نثأرله "



ظهر من بعيد من قلب أحد الازقة رجل يبدو من ملابسه أنه مصري. كان ضئيل الجسد أسمر البشرة مبعثر الشعر، وإن ظهر في عينيه خبث ودهاء. ارتفعت السيوف نحوه في تحفز، لكنه رفع ذراعيه فوق رأسه وصرخ :

"-جئت للمساعدة. لا تقتلوني، يمكنني أن ارشدكم لمكان من تبحثون عنه! "

أشار كبير المغاربة لهم فهدأ رجاله، لكنهم لم يخفضوا سلاحهم، وظلوا يرمقون الرجل الذي يتقدم نحوهم في هدوء، وحذر بتحفز. انتظر الرجل حتى أصبح أمامهم وتنقل بعينيه في وجوههم، قبل أن يتوقف عند كبيرهم، ويقول:

-" أعلم من تبحثون عنه وأين تجدونه؟ "

اندفع بسرعة أحد المغاربة نحوه، وضغط مقدمة سيفه في صدره، وقال بغلظة :

"-أخبرنا بسرعة من يكون أيها المصري، أو تلقى حتفك الآن"

حرك الرجل عينيه نحو كبير المغاربة في شيء من الاستنجاد والاستجداء، فصاح كبيرهم في حزم :

"-ابتعدوا عنه ودعوه يتحدث "

ابتعد عنه المغربي على الفور، فتنهد الرجل في ارتياح، وقال كبير المغاربة:

" -والأن أخبرنا من يكون هذا الحقير القاتل الذي أحرق أخونا "

ابتسم المصري في دهاء، وغمغم :

"- تَذكرتُ ما يقال، كرم أسيادنا المغاربة وفضلهم، فأردت المساعدة. "



أدرك كبير المغاربة على الفور غرض هذا الصعلوك المصري، إنه المال! لقد أتى ليشي بمصري مثله، من أجل الدنانيروالذهب. إنه صنف من البشريبيع أمه وأبيه وأخوته، بل وأطفاله أنفسهم، لوكان لهذا ثمن يُقبض. إنه صنف الخونة المعتاد، الذي يملأ كل مكان في هذا العالم. صنف رآه في افريقية وبين البربر، ومن بعض الليبيين وأهل الشام، بل ومن أهل الروم عُبّاد الصليب أنفسهم. لكنه لم يرى في حياته كل هذا العدد الهائل من الخونة الا في مصر! بالطبع يمكنه أن يعتقله، ويعذبه حتى يحصل على كل ما يعلمه من اخبار، لكن هذا سيدفع باقي الخونة للخوف منهم وعدم التفكيرفي معاونتهم ثانية، لذا أخرج من حزامه صرة من القماش تحوي عشر دنانير معزية، وألقاها نحوه، فالتقطها المصري بين كفيه، وهو يلهث سرورا وجشعا، لكن كبير المغاربة صاح فيه في ضجر :

"-والأن تحدث بسرعة وأخرنا، من فعل هذا يا رجل؟ "

أسرع الرجل يجيب، قائلا :

"-يدعى حسام الدين، ولقد رأيته يتجه الي الجامع العتيق نحو سيده الذي رباه في بيته، انه القاضي أبو الفضل محمد بن منصور البقلي. "

كان الجميع يعرفون من يكون هذا القاضي، انه قاضى قضاة الحنفية.

"-دعونا نحلق بالقاتل في الجامع الكبير، قبل أن يهرب" .

قالها كبير المغاربة في حسم، والنيران تمتد في كل بقعة أو حانوت في أرض السوق، ومن مكان غير بعيد عن السوق قبع صبي خلف أحد الأشجار مختبأ يراقب ما يحدث. انتظرأن يذهب المغاربة، ثم هرول نحو الجامع الكبيرمن طريق مختصرليخبرالقاضي (أبو الفضل محمد بن منصور البقلي) بما حدث .



(4)

كان على حسام الدين أن ينتظر لأكثر من ربع الساعة حتى ينتهى المصلون من صلاة العصر في الجامع العتيق. دخل المسجد واتجه الي مؤخرته، ثم جلس يلهث في اضطراب. إنها المرة الأولى التي يدخل الجامع، وقد أقيمت الصلاة دون أن يشارك فيها . لكن الصلاة بحاجة للطمأنينة والسكينة، وهما آخر ما يشعر به في تلك اللحظة. علم أن الكارثة قد حلت، وأنه لا رجعة أبدا في ما قام به. لقد قتل أحد المغاربة، وأحرق كف الأخر، وأهان الباقين. ولأنه ينتمى للمكان فهو خير من يدرك ما سوف يحدث نتيجة هذا، وهو خير من يعلم أنه سيموت بلا شك لو سقط بين أيديهم. فرغ المصلون من صلاتهم واستدار القاضي محمد بن منصور البقلي، وتلاقت أعينهما. ضاقت عينا الشيخ، وقد رأى خوفه فتوتر، ثم فرغ من تسبيحاته، قبل أن ينهض ويتحرك في هدوء نحوه. جلس الي جواره ونظر الي عينيه وقال بهدوء :

"-ماذا فعلت؟ "

"انه خير من يعلم نفسي في هذا العالم" حدث حسام نفسه، ثم ابتلع ريقه، وغمغم :

"-هناك مغربي قتيل وآخر احرقت ذراعه"

اتسعت عينا الرجل العجوز في ارتياع، وجف حلقه، فقال بصوت مختنق:

" -ولماذا فعلت هذا؟ هل تعرضوا لك، أو اعتدوا عليك؟"

رفع حسام رأسه نحو السقف وراقب الزخارف البسيطة التي تزين الألواح الخشبية، ثم أجاب :



"-تعرضوا لفتاة أرادوا اختطافها من قلب السوق. لم يعترضهم أحد وظلت الفتاة تصرخ طلبا للنجدة، فلم أستطع منع نفسي عن نجدتها. "

"-اذا اعترضت طريقهم، ثم قتلت أحدهم"

"-حدث كل شيء بسرعة، كانوا أربعة وجروا الفتاة خلفهم، وأيديهم ترفع السيوف، لم يكن هناك طريق آخر، حياتي أنا و حياة تلك الفتاة أو حياتهم في تلك اللحظة "

أطرق الشيخ برأسه وواصل الاستغفارللحظات في سره، ثم غمغم :

"- قضي الأمريا بني، ولا جدوى من اللوم أو التحسر، علينا أن نفكرفي ما علينا فعله الأن "

تأمل حسام الآية القرآنية المدونة على أحد الجدران"

"مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ۚ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ۖ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا"

ثم هتف في اعياء :

"-هل أخطأت يا مولاي؟"

"-فعلت ما كان فرضا عليك، أغثت ملهوفا، ورفعت عنه الهلاك والظلم!"

"-إذا لماذا لم يفعلها الآخرون في السوق، لماذا لم يدافعوا عن تلك الجارية، وغضوا أبصارهم عما يحدث، ربما ما وصل الأمر إلى ما حدث وقتها ."



صرخ حسام الدين في غضب .

"-الناس تخشى من يحدّثها، وهو يرفع السلاح فوق رؤوسها "

"-وهل يعمي الخوف أبصارهم، ويصيب أرواحهم بالبلادة والجبن، هل يقتل الرجولة والنخوة في انفسهم؟ "

ربت الشيخ على كتفه بإشفاق، وهو يتمتم :

"-هون عليك يا بني، الناس هنا قد قبلوا الضيم ورضو بالطغاة، والاستبداد، ومتى حدث هذا فقدوا كل شيء جميل في نفوسهم، عزتهم وكرامتهم وحريتهم وإيمانهم، متى خاف الناس السيف أكثر من الله، صرخوا نفسي ونفسى وصار جُل اهتمامهم الطعام والبقاء"

"-وهل تفعل الحيوانات غير هذا؟ "

"-انها غريزة البقاء يا ولدي، ولا مجال لإصلاحها، الا لو أدركوا أن حريتهم أثمن من مجرد الحياة كالبهائم"

لم يستطع حسام الدين هضم كلمات شيخه، الرجل الذي رباه وصار أبا له، وهو الذي لا يعرف من يكون، ومن يكون أباه أو أمه، كان يكره الجبن والعجز والقهر، الذي استوطن نفوس الخلق في مصر، منذ عهود بالغة القدم، نفس الخنوع والخضوع الذي يبديه هذا الشعب لأي غازي أو فاتح أو أفاق أو حتى عبد حقير يرفع سلاحه في وجوهم. ألم يرتضوا منذ أعوام قلائل أن يحكهم (كافور الأخشيدي) وهو عبد خصي، كانت عجيبة لم تشهدها الأمم من قبل، عجيبة لم تعرفها الا أرض العجائب والغرائب مصر .

أفاق من شروده على صوت الشيخ عبدالله البقلي، وهو يقول:



"-عليك أن تهرب، المغاربة قساة، ولا قبل لأحد بهم في هذا البلد، وهم ذراع الخليفة في الحكم "

"-والي أي مكان يا سيدي أذهب، وأفارق كل من أحب؟ "

"-الي أي مكان لا تصل فيه أيديهم لك. أرض الله واسعة يا ولدي، وهذا قدرك "

"-وأقضي حياتي كلها مذعورا مطاردا، كلا يا مولاي القاضي، لن أفعل هذا، لن أحيا كجرذ جبان، لا يفكر إلا في الاختباء "

"-اذا تسعى خلف موتك، لأقضي ما بقى من عمري كله أتحسر عليك، يا حسام الدين، لقد ربيتك في بيتي كابني، ويعلم الله أنه لو كان لي ولد من الذكور ما أحببته أكثر منك. ارحل يا ولدي فهذه الأرض قد ضاقت عليك. "

بدا التردد والعناد في عيني حسام، وفى نفسه تمنى الشيخ لو يستخدم الشاب عقله هذه المرة، سَيُقتل لا محالة لو بقى، مضت لحظات من الصمت، وغادر الجامع أغلب المصلين إلا قلة. تناثرت في جوانبه، استلقى بعضهم على ظهره فوق أرضه، وغاب في النوم، والبعض الآخر جلس في عزلة، وراح يقرأ القرآن في صوت خفيض. نظر حسام الي عيني الشيخ المرتعشتين، وقال بإصرار :

"-اذا لترحل أنت وسلمى معي!"

ابتسم الشيخ في أسف، وأجاب :

"-وهل يطيق هذا الجسد الهالك السفر ومشقته؟ لا تحملني ما لا طاقة لي به، يا ولدي "

"-اذا لن أرحل، وسأموت هنا في دياري، بين من أحب، طالما أنه لا مفر من الموت "



قالها في حسم، فأيقن الشيخ أنه لا أمل في محاولة اثناءه عن قراره، فغمغم في سره :

"-لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا "

ثم خطر في باله في تلك اللحظة أمل ما، فأشرق وجهه وهتف :

"-اسمع يا بني، ربما كان هناك بعض الأمل في الله، أفكر في أن أحدث ست الملك في أمرك"

كانت ست الملك أخت الخليفة الحاكم بأمر الله، وكانت المرأة القوية في القصر الكبير في القاهرة، ورغم انتماء القاضي (أبو الفضل محمد بن منصور البقلي) للمذهب الحنفي السني، وانتماء الأميرة للمذهب الشيعي الذي يتدين به كل الفاطميين، الا أنها كانت تقربه منها، وترحب دوما به. لكن هل تفلح حقا في حمايته من بطش المغاربة؟ كان أمرا مستبعدا وأمل بعيد. لكن الشيخ واصل الحديث في حماس :

"-لكن عليك ان تخبأ حتى أُحدثها، لا أريد أن تقع بين أيدي هؤلاء الطغاة فيقتلوك قبلها. عليك أن تختبأ لبعض الوقت "

"-يمكنني أن أختبأ في دار أحد الأصدقاء "

"-كلا. بصاصيهم وجواسيسهم في كل مكان، وقد يتوقعون هذا، ويبحثون عنك هناك. اسمع، اذهب الي القرافة واختبأ داخلها "

"-القرافة ؟!"

ردد حسام في ذهول. هل يهرب من خطر الي خطر أعظم؟

" -ألا تعلم ما يقال عنها؟ "



"-هذا أدعي أن تختبأ فيها. فلن يتوقع أحد أن تلجأ اليها. إنني كغيرى من الناس أعرف جيدا ما يهمس به الجميع، عما يُقال عنها، وعن الأشباح التي تظهر فيها، لكني لا أؤمن بشيء من تلك الخرافات والمزاعم، أنت تعلم اني قد ذهبت الي القرافة غير مرة فوق حماري ولم أرى شيئا مما يقال."

في تلك اللحظة ظهر الفتي الذي كان يراقب المغاربة في السوق، كان يعدو بأقصى قوة، وهو يلهث، ثم توقف للحظة امام الباب ودار بعينه في المكان، ثم اندفع حيث يجلس حسام الدين والقاضي، وقال في سرعة بصوت متقطع :

"-المغاربة قادمون يا سيدي القاضي، انه يبحثون عن حسام الدين كي يقتلوه "

هب حسام الدين على الفور من مكانه وقال الشيخ بِلوعةٍ :

"-هيا يا بني، تحرك بسرعة وأهرب لتنجو بحياتك "!

اتجه حسام نحو الباب لكن الصبي صرخ :

"-ليس من هنا. إنهم خلفي، وسوف يرونك لو خرجت الأن. اخرج من الباب الخلفي "

وبلا تردد غير حسام اتجاهه واندفع نحو الباب الخشبي الخلفي في الناحية الأخرى من الجامع فدفعه ثم خرج منه بعد أن اغلقه خلفه. هرول لأمتار قبل أن يعترض النيل سبيله وبلا تردد القى بنفسه في المياه.



(5)

انسحب الخصيان والجواري من طريقه وهو يتجه نحو وعد. تلك الجارية الشامية التي خلبت لبه مذ رآها، والتي قدمها له قائد جيوشه الحسين بن جوهر الصقلي، بعد حملة عسكرية ناجحة نجح فيها في قتل أحد المتمردين في حلب. قدمها له الحسين بسرور كهدية، وحين رآها وسألها عن اسمها، قالت له أنها تدعى (وعد)، وكانت بالفعل خيروعد بنعيم لم يختبره مع أحد غيرها من نسائه ومحظياته وجواريه.

كانت قد تخطت الأربعين من عمرها أي انها كانت تكبره بعشرة أعوام على الأقل، لكنها ظلت محتفظة بملاحتها وسحرها وفتنتها، بصورة لا تمتلكها أي جارية أخرى في مقتبل العمر. كانت المرأة الوحيدة التي اشتهى أن تنجب له الولد، ولو فعلت لربما أعتقها وتزوجها. كانت هناك في حجرتها، راقدة على الفراش بانتظاره في غلالة رقيقة، لم تجتهد في إخفاء أي أثر لفتنتها. عبق الجو بعطرها الذي يهواه، واستقبلته ابتسامتها بوعود جديدة لا يملها.

هبت من مكانها واندفعت نحوه كما تفعل كل مرة، حيث ركعت أمامه والتقطت كفه بين أناملها، فقبلتها لتسري فيها الصواعق. هنا رفعها إليه، واحتضنها، فقالت بدلال :

"-أفتقدك منذ ثلاث ليال، وعقلي لا يتوقف عن التفكير فيك، لترحم جاريتك الأثيرة يا مولاي، ولا تغيب عنها طويلاً. "

تنهد في اعياء، وجلس على طرف الفراش، وغمغم وهي تخلع عباءته من فوق كتفيه :

"-لا أشعر أني بخير !"

ضربت صدرها جزعاً، وقالت ودموع القلق تنبثق فجأة من مقلتيها :



"-رباه، هل أنت مريض يا سيدي ومولاي وحبيبي، هل تشعر بألم ما؟ وهل بعثت في طلب الطبيب؟"

قال بضعف لم يره بشر على وجه الأرض، إلا هي :

"-لا علة في جسدي، لكن الروح مثقلة بالأفكار والهموم."

ضمت رأسه الي صدرها البض الساحر بقوة، وقبلت شعره في حنان، وقالت :

"-فديتك بعمري وروحي يا مولاي، ما الذي يشغل بال مولاي، ألا تخبر جاريتك وحبيبتك عساها تخفف عنك "

أغمض عينيه ورأسه تختبأ في ثنايا صدرها، ولم يجب. لا يدري لماذا يخفى أمره عنها للمرة الأولى، لماذا لا يخبرها بما جرى له في بركة الماء، ولماذا لا يستشيرها في أمر أحلامه الغامضة، والاعراض الجديدة التي تحدث له؟

شعرت وعد أنه لا رغبة لديه في الحديث فلم تُلح، كان من أسرار جاذبيتها ذكائها الحاد، تعرف متي تتحدث، ومتى تصمت. متى يرغب الخليقة في الكتمان، ومتى ينطلق لسانه بالحديث والكلام. راحت تداعب شعره وتدلك كتفيه، ورأسه مدفون في صدرها. مضى بعض الوقت قبل أن تشعر بأنفاسه الملتهبة وهي تحرق صدرها، فأدركت أن اللحظة المنتظرة قد أتت .

كان هذا مبعث قلقها منذ البداية. خشت أن ينتهي الأمر بإحباط جديد، كما صار الأمر منذ شهرين، حين عجز للمرة الأولى عن مضاجعتها. ورغم كل محاولاتها لتخفيف الأمر عنه، ومحاولتها لإقناعه أن هذا الأمر ليس عجزا دائما، قدر ما هو عجز طارئ ناتج بلا شك من إرهاق الحكم ومشاقه، إلا أنه لم يستمع لها، وراح يبحث في نصائح الحكماء والسحرة والدجالين. كان العجيب أنه لم



تنجح الأعشاب والعقاقيروالدهانات التي وصفت له، وفي كل مرة كان هناك رأس تفارق جسد من أشارله بعلاج فاشل.

اعتلاها، وبقوة لم تعتدها منه، مزق غلالتها الرقيقة، وراح ينهل من سحرها!

لم تصدق أن هذا يحدث، شعرت وكأنما هي بأحضان ألف رجل في وقت واحد. لم يكن بمثل تلك القوة والمقدرة من قبل، هل هو عقارسحري تجرعه، أم هي تعويذة شيطان استوطنت جسده، فصاركالشيطان في أحضانها. صرخت من النشوة كما تصرخ من قبل، وراحت تضمه اشتياقاً، كما لم تفعل من قبل، صرخت في أذنه وهي تشعرأن روحها تفارق أنفاسها من المتعة:

" -الرحمة يا مولاي، لا تقسو علي !"

لكنه كان قد استشعر قوته، فلم يستجب لها. شعربنشوة لم يختبرها من قبل، أغمض عينيه، فشعر برغبة غريبه تجتاحه، شعر كأنما يرغب في امتصاص روح وعد نفسها، لا مجرد فتنتها وسحرها الخارجي !

التهب صدره بالرغبة، وارتفعت حرارة الخاتم الغريب في إصبعه، وسرت منه طاقة غريبة، اندفعت في دمائه نحو عقله فأسكرته. جلس فوق وعد، وقد أغمضت عينها وهمدت حركتها تماما، أسفل منه بعد أن اختبرت من المتعة ما لا تحتمله. كانت أنفاسها متسارعة مضطربة. وجد يده تمتد نجو خنجره الملتصق بحزام عباءته. رفعه عاليا ورغبة لا تُقاوم، تَكتسح روحه في أن يكمل ما يقوم به.

هنا هوي بالخنجر، ووعد تفتح عينها في نفس اللحظة، لترى الخنجروهو يشق طريقه نحو عنقها، فارتسمت في عينها أعجب نظرة رآها في حياته. خوف ممزوج بالدهشة والشفقة والرضا. انتفض جسدها واندفع الدم كالنافورة من



العنق المبتور، ووجد نفسه ينحني نحو الشرايين والأوردة النازفة، ويرتشف بشغف كل ما يخرج من دماء، ليسري في بدنه شعور غير معقول من القوة .

ظل جسدها ينتفض، ليفيق بغتة من نشوته الوحشية. فهب مبتعدا عن الجسد المنتفض وهو لا يصدق ما قام به. أي جنون هذا الذي ذهب بعقله؟ وماذا فعل بوعد؟

هل قتلها بيده؟!!!

راحت الحياة تنسل ببطء من جسد وعد، وكانت عيناها آخر ما فقد نور الحياة، وهي مسلطة عليه في غير تصديق. نظر إلى الخاتم الذي توهجت مقدمته في ضوء لهبي مخيف، ونظر الي كفيه المخضبين بالدماء، ثم مسح الدماء التي أغرقت فمه وهو يتساءل :

"-هل صرت مسخاً؟"

ومن خلفه جاءته الإجابة :

"-بل أنت في طريقك لتصير إله !"

استدار كالملسوع، وحدق في الرجل الضخم ذو العينين السوداوين الواسعتين لنحو الدقيقة. ثم هتف:

"-أنت؟! "

تحرك الرجل نحو الجثة العارية، وتحسس شعرها المخضب بالدماء، وهو يجيب :

"-لم أفارقك لحظة واحدة "

"-كيف دخلت الي هنا، ولماذا لم يمنعك الحراس؟ "



مسح الرجل كفه التي لوثتها الدماء من جثة وعد في طرف الفراش، وقال دون أن يلتفت اليه :

"-لست بحاجة لإذن أحد كي أدخل. متى أردت الذهاب الي أي مكان أكون فيه. لا يعوقني جدران، ولا يمنعني حراس"

ثم تحرك نحو الحاكم الذي راح يرتجف خوفاً، رغما عنه، واقترب من وجهه فشعر الحاكم أن عيني الرجل الواسعتين، تنفذان إلى عقله مباشرة، فتسلبان ارادته، وما تبقى من رباطة جأشه، والرجل يكمل:

" -ألم أكن هناك في قلب الماء أنتظرك لساعات، أم تراك نسيت؟ "

انتفض الحاكم وهو يذكر تلك الحادثة المرعبة، قبل أن يكتشف أنه مازال عاريا، وانه وحيد في الحجرة المغلقة مع هذا الرجل المخيف. فتحرك نحو ملابسه الملقاة بإهمال فوق الفراش، والتقط سرواله ليرتديه كي يداري عورته، فقال الرجل مبتسما:

-"مازلت تخجل من جسدك أيها الخليفة؟! ، انه مجرد وعاء بالكاد يحتوى روحا أعظم! "

انتهى الحاكم من ارتداء سرواله، فشعر أنه لم يداري به عورته فحسب، بل وداري به توتره وفزعه، فقال بصوت أقوى :

"-ماذا تريد منى يا رجل ؟ "

"-أنت الذي تريد. أنا هنا من أجلك !"

"-تتحدث بالألغاز طوال الوقت، وتراوغ في الإجابات "

"-قريبا ستفهم !"



نظر اليه الحاكم في شك ثم انتبه الي أمرمهم، إنه حتى الآن لا يعلم من يكون هذا الرجل

" -من أنت ؟ "

قالها الحاكم بغتة، وكأنه يقذفه بالسؤال، فاتسعت ابتسامة الرجل وانحنى قليلا له قبل أن يقول وابتسامته التي لا تفارقه تتسع وتتسع :

"-كما أخبرتك من قبل، خادمك مفرج بن دغل الحراج يا مولاي. أو كما يدعوني البعض، الشيخ الأسود !"

(6)

كان من المستحيل أن يبدأ رحلة اختبائه، وفراره دون أن يراها، فمن يدري هل تتاح له الفرصة ثانية ويلقاها، أم يقتل وحيدا مطاردا. توجه لمنزل القاضي الموجود في زقاق بالقرب من النيل في الفسطاط. راح حسام الدين يتلفت حوله في حذر، خشية أن يشعر به أحد. غطى وجه بوشاح صوفي واحتمل بصعوبة العرق اللزج الذي التصق برقبته وصدره. مر به حارسان وتفرسا وجهه الملثم بتشكك، فأشاح بوجهه بعيدا، وهو يحاذر أن يثير ريبتهما. انتظر للحظات حتى ابتعدا، وقد تعمد ألا يلتفت اليهما، وألا ينظر إلى أعينهما، ثم اندفع الي قلب الزقاق. بلغ الباب الخشبي الكبير للباب، فقرعه بكفه في عجله. مضت لحظات من الترقب، وهو يحدث نفسه في توتر :

"-هيا افتحوا الباب> أسرعوا بالله عليكم، لا وقت هناك للعطلة."

ثم فتحت جارية الباب. دفعها للداخل، ودخل وهو يدفع الباب خلفه بسرعة، ثم قال في عجلة :

"-هيا اذهبي إلى سيدتك بسرعة، وأخبريها أنني بانتظارها."

هرعت الجارية لاستدعاء سيدتها، بينما راح يدور حول نفسه في توتر، ومن حين لأخركان يتجه إلى إحدى النوافذ المطلة على الطريق، فيزيح جزء بسيط من ستائرها، وينظر للشارع، وهو ينتظر أن يكون المغاربة، أو أعوانهم من الشرطة السفلية، والبصاصين بانتظاره هناك. ظهر من الداخل خادم مسن يدعى " غَبن "، رمقه في دهشة، وقال :

"-لماذا عدت مبكرا يا سيدي؟ "

اتجه إليه حسام، وأحاط كتفه بذراعه، وأجاب :

"-هناك من يطاردني وأريد منك معروفاً، أخرج وتسكع حول البيت، ولو شعرت أن هناك بصاصين، أو حراس أو مغاربة يقتربون، فتعال بسرعة وحذرني "

"-رباه، هل حدث شيء يا سيدي؟"

"-لا وقت للتفسير يا غبن ، هيا اذهب، وافعل ما أمرتك به."

أطاعه الخادم، وغادر البيت على الفور، ثم ظهرت سلمى بابتسامتها المشرقة دوما كشمس لا تعرف الغياب، وقالت بترحيب :

"-عدت مبكرا كما أرى "

تحرك نحوها وبالكاد منع نفسه من احتضانها وقال وهو ينظر الي عينيها :

"-عدت لأرحل !"



بدا الخوف على عينيها، ورددت :

"-ترحل؟! ما معنى هذا؟ "

"-قتلت أحد المغاربة، وهم في أعقابي الآن، على أن اختبأ لبعض الوقت! "

شهقت في جزع، وترقرقت في عينيها الدموع، وحاولت أن تتحدث فلم تطاوعها الكلمات، وفي النهاية وجدت نفسها ترتمي في أحضانه وتبكي، وهي تدفن وجهها في صدره. ضمها برفق وغالب دموعه، ثم ظهر غبن أمام الباب وهو يلهث، رمقهما بتعجب، ثم طرد هذا الشعور في اللحظة التالية، وهو يقول :

"-الكثير من الفرسان والحراس قادمون إلى الزقاق، يا سيدي حسام الدين"

أطلقها حسام من صدره، وقال :

"-على أن أرحل!"

شهقت وهى تنظر إليه، وكأنها المرة الأخيرة، وتمتمت :

"-حافظ على حياتك، ولا تمت من أجلى! "

اندفع نحو قلب البيت، وهو يقول :

"-أعدك ألا أفعل، وأن أعود، فلا تقلقي!"

وفي اللحظة التالية، هوت أيد غليظة على الباب، وراحت تقرعه بعنف، وكأنها ترغب في اقتلاعه. فقالت الخادمة لسلمى :

"-اختبئي يا سيدتي، ولا تدعهم يصلوا اليك، إنهم أبناء حرام لا يرحمون! "

لم تكن سلمى بحاجة لتذكيرها بتلك النصيحة، لذا اندفعت على الفور نحو حجرة القبو السري، التي صممها أبوها بنفسه أسفل البيت، تحسبا ليوم مثل



هذا. تواصلت الطرقات على الباب في قوة، ومعها الكثير من الأصوات التي تصرخ منذرة بالويل، لو لم يُفتح الباب المدعم بالألواح الخشبية. كانت سلمى تعلم أنها مسألة وقت وينهار الباب. فدعت الله في سرها أن ينقذها، وينقذ حسام الدين. بلغت حائطا في حجرة أبيها حيث اصطفت الكثير من الكتب فوق رفوف خشبية، وأدارت شمعدانا مثبت في الحائط. لم يحدث شيء في البداية، ثم صدر صرير صغير قادم من الحائط، قبل أن ينفرج عن فتحة صغيرة عبرتها على الفور هي وخادمتها، التي تتبعها، ثم دفعت الجدار المزيف ليعود إلى مكانه ثانية، قبل أن تهبطا الدرجات الحجرية في الظلام .

بلغ حسام الدين سقف البيت الخشبي، وهو يلعن ما يحدث ويؤنب نفسه على القدوم إلى هنا، ربما تتبعه أحد البصاصين وأخبرهم بمكانه. كان ينوى القفز من فوق سطحٍ لسطحٍ، حتى يبتعد عن المكان، ثم يتجه للقرافة، لكنه تذكر سلمى، والخطر المحيق بها لو تركها هنا فريسة لهؤلاء الوحوش. كان من المستحيل أن يقاتلهم بمفرده، كما كان من المستحيل أن يغادر المكان وهم هنا. راح ينظر حوله، وهو يفكر بسرعة، ويهمس لنفسه :

"-يا الهي، ماذا افعل؟ "

ثم خطرت فكره في رأسه، فشرع في تنفيذها على الفور. وأمام الباب هتف أحد المغاربة :

"-احرقوا الدار بمن فيها ! "

كان هذا حين هوى حجر فوق رأسه فهشمه، رفعوا رؤوسهم لأعلى، لتنهال الحجارة نحوهم، وحسام فوق سطح البيت يقذفهم بها، تحركت الخيل في هياج، وصاح المغاربة :

"-المصري القاتل فوق الدار، اصعدوا إليه، و.."



كان هذا ما يريده حسام، لفت أنظارهم اليه كي لا يقتحموا البيت، ولهذا لم يواصل قذف الحجارة، وانطلق يعدو فوق السطح، قبل أن يقفز نحو سقف المنزل التالي، فصرخ صوت:

"-اتبعوه وأقبضوا عليه، هذا المصري سوف يسلخ حيا "

انطلقوا خلفه، بينما راح حسام يعدو برشاقة من سقف لسقف، راح ينتقل بين الأزقة من فوق الدور، وهو ما أتاح له الهروب من مطاردتهم، ظل يعدو حتى اختفى كل من يطارده، لكنه لم يتوقف حتى لالتقاط أنفاسه، فلن يمض غير وقت قليل ويعودون للظهور. بلغ سطح منزلٍ يُطل على السوق القديم، فقفز من فوقه نحو الأرض، ثم واصل انطلاقه، دون أن يأبه بالعيون المندهشة، التي راحت ترمقه بحيرة وشك، اعترضه حارس ضخم وهو يمد يده ليوقفه قائلا :

"-إلى أين أيها الر..."

لكنه لم يمهله الوقت لإكمال السؤال، فعاجله بضربة من كفه في وجهه، ليهوى الحارس على الأرض، وقد أظلمت الدنيا في عينيه. ظهرت أمامه عربة خشبية يجرها حصان هزيل، فهتف في صاحبها :

"-دينار كامل، لو ذهبت بي إلى القرافة في الحال "

رمقه البغال في ريبة، والدينار الذهبي يداعب خياله، ثم قال :

"-لا أحد يذهب الي القرافة غير الحفارين، إنه مكان خطر، و..."

لم يكن الوقت يصلح للمساومة، ونظر حسام خلفه نحو مقدمة السوق، متوقعا أن يبرز المغاربة في أي لحظة، وصاح :

"-إذن ديناران لتتحرك الأن، أو أبحث عن بغّال غيرك."



كانت صفقة أكبر من أن يفقدها البغال لأي سبب، حتى لو كانت الشياطين تسكن المقابر، فقال وهو يعتلي مقدمة العربة، ويضرب ظهر حصانه بسوط جلدي ليتحرك :

"-ليكن، لكن أعطني الدينارين أولا !"

أخرج حسام دينارين ذهبين من جيبه، ووضعهما في الكف الخشنة الممدودة نحوه، فرمقهما الحوذي في غير تصديق، ثم صرخ في فرسه :

"-أسرع أيها الفرس البطيء، السيد في عجلة من أمره! "

ومن مقدمة السوق برز المغاربة، ورجال الشرطة، أدركوا منذ الوهلة الأولى أنهم قد فقدوا حسام الدين، فجن جنونهم، وراحوا يضربون الناس، ويتلفون البضائع في غضب شديد.

(7)

تربع الحاكم بأمر الله على عرشه، وعلى يمينه جلس وزيره (ابن عبدون النصراني)، وعن يساره جلس (مفرج بن دغل الحراج) أو الشيخ الأسود كما يُحب أن يُنادى. بدا الوزير مضطربا في حضرة هذا الرجل الغريب، الذي أخبره الخليفة أنه قادم من أرض الفرس، ليعلمه فنون التنجيم، كان الوزير يدرك شغف الخليفة منذ صغره بالتنجيم والسحر وعلوم الخيمياء، لكن هذه كانت المرة الأولى الذي يجلس فيها أحد المشتغلين بتلك العلوم قريبا منه هكذا.

لا ينكر الوزير أن الرجل مخيف بابتسامته المتهكمة، وعيونه السوداء الواسعة، التي لم يرى عينا في حياته كلها تحمل كل هذه الظلمة، وكأنها ليل



معتم. لهذا راح يختلس النظر اليه من حين لأخر، وهو غير قادر على ابعاده عن عقله .

حضر محمد بن نزال صاحب الشرطة، وقبل الأرض بين يدي الخليفة، قبل أن يتحدث بما جاء من أجله:

"-أحد الرعاع من المصريين يا مولاي، قتل رجلاً من المغاربة وأصاب أخر بجروح خطيرة، والمغاربة غاضبون "

"-وماذا تنتظر؟ اقبض عليه وسلمه للمغاربة كي يقتلوه، ثم طوفوا بجثمانه مصلوبا في الأسواق ليكون عبرة لغيره!"

"- لقد طارده المغاربة، لكنه قاومهم قبل أن يهرب منهم."

"-ابحثوا عنه في كل مكان، وإن لم يظهر، اقبضوا علي أهل بيته واصلبوهم، على الرعية أن يتعلموا كيف يعاملون سادتهم! "

ظهر التردد لحظة على وجه صاحب الشرطة، قبل أن يقول :

"-إنه ربيب القاضي (أبو الفضل محمد بن منصور البقلي) قاضي قضاة الحنفية "

لم يكن هناك من احد في بر مصر كلها من لا يعرف قدر القاضي، ومكانته بين العامة، وكان الخليفة كغيرة يعرف من يكون هذا الرجل، لكنه قال بلا مبالاة :

"-إذاً اقبضوا على القاضي نفسه، لو يظهر المصري واقتلوه "

أراد الوزير أن يعترض رغم علمه بجنون الحاكم بأمر الله وشهوته للدماء، فالضحية هذا المرة من أهل البلد، وهو قاض يجله العامة، أكثر مما يفعلون مع



قاضي القضاة، (الحسين بن محمد بن النعمان). وربما ثاروا لو قتل القاضي وحدثت القلاقل، لذا تنحنح وقال :

"-لكنه قاضى الحنفية الأول في مصر يا مولاي، وربما غضب المصريون لمقتله "

اطلق الحاكم ضحكة مستهزئة، ونظر الي الشيخ الأسود الذي اتسعت ابتسامته الساخرة، وقال :

"-هل تكون وزيراً ولا تعرف من تَحكم يا ابن عبدون، المصريون يخافون من يسوسهم بالسيف والسوط، ولا يعرفون الا الطاعة والخضوع، ألم يحكمهم عبد خصى، ولم يستحوا من هذا أو يغضبوا؟"

ثم التفت الي صاحب الشرطة، وقال له آمراً :

"-اذهب يا صاحب الشرطة، واطلب من رجالك أن تقبض على القاضي وكل من يتحرك من أجله، ثم اقطعوا رؤوسهم جميعاً، لو لم يظهر قاتل المغاربة! "

انصرف صاحب الشرطة، ودخل الحاجب ليخبر الخليفة باكتمال قدوم المنجمين والسحرة الذين طلبهم، رمق الخليفة الشيخ الأسود فهزرأسه موافقا، فأمر الحاكم بأمر الله بدخولهم. كانوا حشدا كبيرا يبلغ نحو العشرين رجلاً، تقدمهم (ابن ميمون اليهودي) كبير المنجمين، و(معتق البازيار) كبير السحرة، قبلوا جميعا الأرض بين يديه، فتحرك الشيخ الأسود من مكانه وسار نحوهم وعيناه تدور بينهم في سخرية، وقال ببطء :

"-يا بن ميمون، أنت كبير المنجمين في أرض مولانا، هل أخبرتك النجوم بحظ الخليفة؟ "



نظر إليه ابن ميمون بتوتر، وقد شعر بخوف مبهم، من ذلك الرجل المجهول الذي يتحرك بحرية في حضرة الخليفة. لكنه لاحظ عين الخليفة التي ترمقه، بانتظار إجابته، فتقدم نحوه، وقال بحماس زائف :

"-لا تكف النجوم لحظة عن التبشير بطالع مولانا الخليفة السعيد، سيسود مولانا الحاكم بأمر الله، أرض المسلمين، ويصير خليفتهم الأوحد في كل بقاع الأرض، ثم يفتح الله على يديه أرض الروم والعجم! "

اتسعت ابتسامة الشيخ الأسود، وازدادت عيناه قتامة، وغمغم :

"-وأين رأيت هذا يا بن ميمون اليهودي، في السماء والنجوم، أم أنه مخطوط بين طيات الصحائف والكتب، أم وجدته مرسوماً على سطح الرمال؟ "

ارتبك ابن ميمون، وشعر بالمكيدة المتوارية خلف السؤال، فقال بصوت لم ينجح في إخفاء ارتجافه :

"-طالع مولانا تبشر به السماء!"

"-كذبت يا بن ميمون! ما خُلق مولانا الحاكم بأمر الله ليكون خليفة المسلمين. وحق النجوم إن شأنه لأعظم! "

دوت همهمات مذهولة في المكان، وذلك الغريب يهين كبير المنجمين الذي يعلم الجميع مدى اطمئنان الخليفة له ، بينما التفت ابن ميمون نحو الخليفة، وقد غاضت الدماء في وجهه مستنجدا، وغمغم باستجداء :

"-مولاي!"

لكن الخليفة أشاح بكفه في ضجر، وقال باقتضاب :

"-تراجع يا بن ميمون وأصمت!"



تراجع ابن ميمون فتبعه كافة أعوانه من المنجمين، وقد هوت قلوبهم بين أقدامهم، وقد أربعتهم عينا الرجل الغريب المخيف، وابتسامته الساخرة التي تلاحقهم، قبل أن يلتفت إلى (معتق البازيار) ويتحرك أمامه في حركة استعراضية، ويقول :

"-وماذا عنك يا معتق؟ يقولون أنك افضل السحرة في أرض مصر كلها، فهل في جعبتك اليوم ما يبهر الخليفة ويمتعه؟ "

حاول معتق التماسك أمام الرجل الرهيب، وهو يجيب بحذر :

"-إذا أذن مولاي أريته من العجائب ما لا يصدق! "

أومأ الخليفة برأسه موافقا، وتراجع الشيخ الأسود، فتقدم اثنان من معاونيه نحوه، كان احدهم يقبض على أوزه بيضاء تصرخ، بينما ناول التابع الثاني سيده خنجرا يمتلئ بالزخارف العجيبة والنقوش الغامضة، ردد معتق بعدها بعض التعاويذ الغامضة، فتصاعد من حوله دخان أحمر أحاط بالخادم الذي يقبض على الأوزة، ثم هبط بالخنجر على عنقها، فهوت الرأس على الأرض، ثم أطلق بعدها الخادم جسد الأوزة، فهبطت على الأرض بقدميها، وراحت تتجول في المكان بلا رأس. شهق البعض انبهارا، واتسعت عينا الخليفة ببعض الدهشة، فارتسمت ابتسامة ثقة على وجه معتق البازيار، لكن الشيخ الأسود صفق بكلتا يديه في اللحظة التالية، وهو يهتف :

"-هذا مثير!، أوزه تسير على قدميها بعد الذبح، لقد أجدت لعبت يا رجل، لكن أخبرني يا معتق، الأوزة قد ذبحتها، فأين ذهبت الدماء؟ "

حاول معتق ألا ينظر إليه، وقد تفصد بعض العرق من جبينه قلقا، وقال بارتباك :



"-أي دماء تقصد؟ "

"-دماء الأوزة، هل سمعت عن ذبح بلا دماء تسيل؟ "

"-الأمر هنا يختلف! "

"-هذا حق، الأمر هنا يختلف بالفعل "

قالها الشيخ الأسود، قبل أن يلوح بكفه في الهواء نحو الأوزة والدخان الذي ينهمر حولها، فاختفى الدخان في لحظة واختفى الرأس المقطوع ، بينما ظهرت الأوزة سليمة ورأسها فوق عنقها كما كان، فشهق الكل بغير تصديق، وتراجع معتق في ذهول مما يراه، وقد أدرك أن الغريب الذي أمامه يقوم بسحر غير مسبوق، بينما واصل الشيخ الأسود حديثه :

"-ما قمت به ليس بسحرٍ كما تزعم يا بن بازيار، لقد كنت تخدع عيوننا بحيلة ساذجة، الأوزة لم تفقد رأسها للحظة واحدة!"

أرتجف معتق في ذعر، وقد أردك أنه لا قبل له بالواقف أمامه، لقد كشف زيف سحره، في لحظة بمجرد أن حرك كفه، دون أن يستعين بطلاسم أو تعاويذ أو عصا أو ماء أو أوراق. حاول الدفاع عن نفسه، لكن فمه لم يطاوعه، بينما أشار الشيخ الأسود إلى خادم معتق، الذي كان يمسك بالأوزة، وقال له آمراً:

"-تقدم يا غلام! "

وجد الخادم نفسه يطيعه بلا نقاش، فأرقده الشيخ الأسود على وجهه فوق الأرض، ثم أشار لمعتق فناوله خنجره. اتسعت ابتسامة الشيخ الأسود، وهو يرفع الخنجر عاليا، ثم يهوى به على عنق الخادم، ليفصله عن جسده بضربة واحدة، انتفض الجسد المذبوح بقوه، وصدر خوار مريع من العنق المبتور، وأغرق الدم



المكان. تراجع الكل في توتر مما يرونه، وانتظر الشيخ الأسود في مكانه للحظات، وظل محتفظاً بابتسامته المتهكمة، حتى همد الجسد تماماً فقال :

"-والأن ها هو خادمك يا معتق وقد مات، هلا أعدته للحياة مثلما فعلت بالأوزة "!

تجمد معتق في مكانه ذعرا، وقد أدرك أنه لا سحر هناك، إن خادمه قد ذُبح بالفعل، ولا سبيل هناك لإعادته للحياة ثانية، رأي عين الخليفة المصوبة نحوه في غضب، فلم يتمالك نفسه من الرعب، وأطلقت مثانته في ثوبه ما احتشد فيها من ماء، فضحك الشيخ الأسود وقد رأي ملابسه المبتلة، وأردف :

"-إذاً لا تقدر على فعلها وقد ابتّل سروالك، لكن مولانا يقدر يا معتق! "

اتجهت العيون إلى الخليفة، الذي نهض من مكانه، واتجه نجو الجسد الذبيح، فانحنى الشيخ الأسود، والتقط الرأس المقطوع ووضعه فوق صدر صاحبه، ثم خلع عباءته السوداء وألقاها فوق الجسد والرأس فغطاهما، ثم نهض. هنا انحنى الحاكم بأمر الله فوق جسد الخادم، ووضع كفه فوقه العباءة التي تضرجت بالدماء، وأغمض عينيه للحظة وهو يقول:

"_ عد للحياة أيها الخادم بأمري!"

هنا دبت الحركة في الجسد الساكن أسفل العباءة، فرفع الحاكم بأمر الله يده وابتعد، بينما التقط الشيخ الأسود عباءته، ليظهر جسد الخادم أسفلها سليما من غير سوء، وقد عادت رأسه إلى مكانها، بينما اتسعت عينا الخادم في ذهول، وهو ينهض من مكانه، وينظر إلى الجميع في اضطراب، وكأنه لا يعرفهم. وارتفعت الأصوات المضطربة من الحشد كله، وقال صوت :

"-يا للعجب، لقد أعاده مولانا للحياة! ان هذا لسحر عظيم "!



هنا قال الشيخ الأسود في حزم وقسوة :

"بل أعاده للحياة لأن هذا عمل الآلهة، إن الحاكم بأمر الله هو إلهكم الذي بعث إليكم مرة أخرى، والأن وبعد أن شاهدتم كيف أحيا خادم الساحر، ألا تؤمنون به وتسجدون؟!"

وفي خوف شديد هوى السحرة ساجدين.

(8)

بدأت الأحداث الغريبة والمخيفة تطارد سيرة القرافة الكبيرة بالفسطاط، منذ أيام كافور الاخشيدي. يقولون أن جنازة صغيرة تحمل طفلا صغيرا لدفنه اختفت بلا أثر اثناء الدفن، وحين ذهب أهالي المشيعين للبحث عنهم وجدوا جثمان الطفل الصغير أمام قبرة المفتوح، ولا أثر لأي أحد آخر من المشيعين هناك. حينها عَمَ الذُعر أنحاء الفسطاط، وخاف المشيعون من دفن موتاهم في القرافة، ثم اختفى حفارو القبور، حتى اضطر أهالي الموتى لدفن موتاهم في حُفر حول البيوت وداخلها، لكن الضواري من الكلاب والضباع كانت بالانتظار، وكثيرا ما وجدوا الجثث في الصباح وقد نبشت الحُفر التي دفنت بها ونهشتها الحيوانات، فعاد الناس لدفن موتاهم في القرافة مرة أخرى، واضطر أهالي الموتى لاستئجار الكثير من الرجال الأشداء المسلحين لحماية الجنازات، والمشيعين!

وفي عهد المعز لدين الله تحركت جنازة لدفن احدى النساء، فلم يعد أحد من المشيعين، فذهب الأهالي في قلب الليل، في جمع غفير يحمل المشاعل والقناديل، إلى القرافة للبحث عنهم، وهناك عثروا على جثث المشيعين، وقد



قتلوا جميعا، حيث قُطعت أوصالهم ورؤوسهم، وبقرت بطونهم واختفت الأكباد والقلوب من الجثث، بينما كانت جثة المرأة ملقاة على باب القبر المفتوح دون أن يصيبها سوء.

عثر الأهالي على حفارو القبور أحياء، لكن ألسنتهم وأنوفهم جميعا كانت مقطوعة، استجوبوهم فلم يحصلوا منهم على شيء، وقتها انتشر الخبر، وعاد إلى النفوس الذعر من القرافة ثانية، حتى امتنع الناس عن الذهاب إلى القرافة أو دفن موتاهم بها.

وقتها تكرر سماع الأصوات الغريبة المرعبة في الليل، قادمة من هناك، وأقسم سكان المناطق المجاورة للمقابر أنهم يشاهدون في قلب الليل أشباحا وكائنات عجيبة مخيفة تمرح بين أضرحة الموتى.

البعض رفض تصديق كل تلك الحكايات، واعتقد هؤلاء أن القرافة يسكنها بعض الشُطّار واللصوص والمجرمين الهاربين من الشرطة، وأنهم يفزعون الناس كي لا يقتربوا من مكانهم، وقال البعض الأخر أن القرافة صارت تعج بعفاريت القتلى وأقرانهم من الجن، بينما همس البعض عن قبيلة من الغيلان تخرج من قلب القبور لتأكل الأحياء.

ظل هذا الخوف من القرافة قائماً، حتى ذهب الأتراك لدفن أحد جنودهم هناك، ولما لم يعد أحد منهم، ذهبت الشرطة في أعقابهم، فوجدوا جثثهم ممزقة ومشوهة. علم المعز لدين الله بالخبر فغضب، وبعث بالكثير من جنده إلى هناك، قبل أن يُنادي المنادون في الشوارع بأن الخليفة قد طهر القرافة من قطاع الطرق والمجرمين، فابتهج الناس .

أما ما لا يعلمه أحد فان المعز لدين الله، حين أرسل بجنود كثيرة من الشرطة السفلية لتطهير القرافة، لم تعد تلك الجنود، وحين بعث بأخرين خلفهم،



وجدوهم وقد هلكوا جميعا، فأمر المعز ألا يتحدث أحد بما جرى. ثم بعث في طلب قائد قواته جوهر الصقلي. أرسل جوهر جيشا من 300 رجل فقتلوا شر قتلة كسابقيهم، فأراد ارسال المزيد من الجند، وفكر في هدم القرافة بأكملها، وحرقها بالنار ليهلك من بها. لكن وزير المعز لدين الله، أشار عليه في طلب العرافين والمنجمين والسحرة والشيوخ، وقد شك في أن تكون تلك الأمور من أفعال المجرمين من البشر .

في النهاية جاء أحد السحرة، ويدعى بالشيخ منصور الكلدي، ليبشر الخليفة أنه قد أهلك الشياطين الذين سكنوا القرافة وتلوا الرجال هناك ومن بعدها عاد الأمان للقرافة ثانية.

وفي آخر عهد الخليفة العزيز بالله، تكرر الأمر ثانية، فبعثوا في طلب الشيخ محفوظ الكلدي مرة أخرى ، فحاول الرجل الذي بلغ من العمر أرذله حينها، أن يعتذر لمرضه، ووهنه، وشيخوخته، لكن العزيز بالله أصر أن يقوم بعملة مرة أخيرة ، فذهب برفقة أحد أعوانه حيث هلك في القرافة، وعاد معاونه مذعورا ليبشر الخليفة بانتهاء الأمر ثانية، وهلاك شيخه قبل أن يجدوا معاونه في الصباح وقد شنق نفسه .

لكن الأمر تكرر عاد للظهور ثانية في هذه الأيام من حكم الحاكم بأمر الله، وعاد المشيعون لتختفوا في القرافة، ولم ينج إلا حفارو القبور، الذين خرجوا من القرافة، وحدهم وقد قطعت أنوفهم وألسنتهم، حاول الحاكم بأمر الله استجوابهم عسى أن يخبروه بما يجرى في القرافة، فلم يظفر بشيء. قَتل بعضهم، وسَلخ البعض الأخر، فلم يخبروه بما جرى، في النهاية أطلق سراح الباقين، وبعث في طلب السحرة عسى أن ينجح أحدهم في ما نجح فيه الشيخ محفوظ من قبل، لكن حفارو القبور واصلوا عملهم هذه المرة، فصار الناس



يكفنون موتاهم ويصلون عليهم، ثم يبعثون في طلب حفارو القبور مقطوعي الأنوف والألسنة، فيأخذون الموتى ويدفنوهم بمفردهم في القبور.

كان حسام الدين يعلم كل تلك الأحداث كغيره من سكان مصر، ورغم خوفه من تلك الأساطير التي تحيط بالقرافة، إلا أنه اخترق دروبها، فور أن بلغها برفقة البغّال. راح يهرول في طرقاتها الترابية، وهو يتوجس من كل حركه مفاجئة حوله ورأسه يدور في المكان، بلا انقطاع، وقلبه ينبض في صدره بعنف. بدا الجو المحيط به كئيبا مريباً، وشعر وهو يتحرك، أن شواهد القبور نفسها تراقبه.

"ترى ما الذي تخفيه تلك القرافة في جوفها من أسرار؟!"

تساءل في سره،

" وهل يكون الخطر في قلب الأرض أم فوقها؟!"

تمنى لو كان الخطر رجلاً من لحم ودم، فهذا ما يقدر على عراكه. لكن ماذا لو كانت الحكايات والخرافات حقيقة؟!

ماذا لو كان الخطر هو عفاريت الموتى وأقرانهم من الجن؟! ماذا لو واجه أحداً من الغيلان يبغي أكل لحمه؟!

ارتجف جسده بغتة عند هذا الخاطر، فتوقف مكانه وفكر في التراجع، وأن يبحث عن مكان آخر يختبأ فيه .

لكنه حاول التماسك في اللحظة التالية وغمغم لنفسه :

"-كفاك جبنا يا حسام الدين وتقدم، هل تخشى الموت؟ لو تراجعت وقبض عليك المغاربة فالموت مؤكد، ولو ظللت هنا فالموت محتمل، إذاً واصل طريقك، واستعن بالله فهو خير حافظ"



ورغم أنه واصل التحرك بعدها، وهويردد في سره ما تذّكره من آيات القرآن الكريم، إلا أن السكون المميت من حوله، كان مثيرا للخيالات المظلمة، كانت الأشجار من حوله يابسة تماما، وقد ذبلت الحشائش ونبات الصبار المنتشر حول القبور. المكان كله كان يعبق برائحة الموت ولا أثر للحياة فيه. أين ذهبت الكلاب والقطط، وهي التي تهوى سكن تلك الأماكن، ولماذا لا يصدح أي عصفور أو يطير فوق المكان؟ هل أدركت تلك الحيوانات والطيور الشر المستطير بالمكان، فهربت هي الأخرى منه؟ حاول طرد تلك الهواجس من رأسه فلم يقدر، قبل أن يلح على عقله تساؤل مريع، إذا كان هذا حاله والشمس مازالت تتربع قلب السماء، فماذا سيفعل إذا حل عليه الليل بظلامه وهواجسه؟

بلغ مكانا ناءٍ يشرف على الجبل، يمتلئ بالكثير من الشواهد الطينية المتهدمة المهجورة، ومن بينها وجد قبر مهجور مفتوح. تقدم نحوه ثم رقد على قدميه ومد عنقه داخله ليرى ما قد يكون مختبئا فيه من حيوانات أو زواحف كالحيات والثعابين. كان القبر كحفرة واسعة داخل الأرض لا يحوى الا كومة من الثرى، خمن حسام أنه ما تبقى من شخص دُفن قديما به.

غالب تردده وهبط إلى داخله وهو يتحسس الجدران بباطن كفه، بحثا عن شقوق قد تخفي داخلها شرما، ثم انتقى مكان فسيح نظيف ورقد فوقه، وراح يفكر حاله، مضى الوقت بطيئا فلم يشعر بنفسه وقد غلبه النعاس .

حين أفاق كان الظلام قد حل منذ وقت كبير، ومنذ الوهلة الأولى أدرك أنه ظلام غير الذي ألفه طوال عمره، ومن بعيد تناهي لأذنيه أصوات خافتة غير مريحة. وبشيء من التردد والحذر غالب خوفه وأطل برأسه خارج القبر، ليرى ماذا يدور بالأعلى وقلبه يرجوه ألا يفعل!



(9)

لم يكن هناك ما يقال غير أنه قد جن تماما هذه المرة! هل يصدق حقا تلك التُرهات والهرطقة التي يتفوه بها؟

"-يا رب محمد وعلي وفاطمة والحسين ارحمنا برحمتك "

همست بها ست الملك في سرها، وهي توليه ظهرها كما اعتادت أن تفعل حين تحدثه منذ أعوام طوال، لم تعد تتذكر عددها، رغم أنه أخاها الأصغر. تنهدت في عمق، ولم تجبه. بينما واصل الحاكم بأمر الله حديثه:

"- كان عليك أن تكوني هناك، كي ترى كيف أعدت خادم ذلك الساحر للحياة ثانية. كانت رأسه ملقاة الي جواره، وكان جسده غارقا في دمائه. كان ميتا ولا خدعة في الأمر، وكل ما فعلته هو أن وضعت كفى على جسده وأمرته أن يعود للحياة، فعاد للحياة! "

هزت رأسها ببطء، وغمغمت في بطء بلا انفعال :

"-هذا رائع "!

"-ألا تصدقيني؟! "

قالها وهو يدور حولها، ليواجه وجهها. لكنها أبعدت وجهها عنه، وكأنما لا ترغب في أن تتلاقى عيناهما، وأجابت :

"-لم أكذبك يوما يا مولاي !"

"-إذاً تصدقين أنني قد صرت إله! "

ابتسمت ولم تجب. فمنذ متى وأخوها لا يرى في نفسه إلها؟ ، منذ متى وهو يحيا ولا مَرَدّ لمشيئته وإرادته، إنه ليس بحاجة لأن يكون إلها ليفعل ما يريد، إنه يُغني ويُفقر ويَقتل ويَعفو، يأمر فلا تُرد مشيئته، يُعطي فيَرفع حتى السماء



ويَقبض ويُمسك حتى الذل والهوان. تململ الحاكم من صمتها، وأحاط كتفيها بيديه، وأجبرها على أن تواجه وجهه، وقال :

"-ألا تؤمنين بي مثلما فعل الآخرون؟! أتكوني أول كافرة بي؟ "

أغرقت مقلتيها دمعتان كبيرتان. فحجبت وجهه عنها، ثم سقطت الدمعتان فاتضح وجهه. رمقته بإمعان للمرة الأولى منذ أعوام بعيدة. رأت كيف تغيرت القسمات والعينان، وكيف اكتسب هذا الوجه كل تلك القسوة. وكيف اكتسبت عيناه هذا البريق المخيف، سَرحت بعقلها لزمن بعيد . زمن كانت فيه صبية حلوة تمرح في حدائق القصر الكبير، وبين يديها أخوها الأصغر،ذا الوجه الملائكي والروح الطاهرة البريئة، وهو يلهو ويضحك، كانت هي من ربته، من اهتمت به، من يلعب معه ويلهو، ومن علمته شئون الدنيا كما عرفتها، كانت ملاذه حين يخاف، حيث كان يندفع نحو صدرها الصغير، ليدفن رأسه فيه، محتميا من شرور العالم كله، لتظل تهدهده وتطمأنه حتى ينام،

أين ذهب ذلك الطفل الذي طالما أحبته، هل هي لعنة العروش القائمة على الدماء، أم هو المُلك؟ لعنت تلك اللحظة التي أتوا فيها بأخيها من بين أغصان الشجر، حيث كان يمرح ليجلسوه على عرش أبيه العزيز بالله، حين مات، قبل أن يضعوا التاج على مفرق رأسه ويلقبونه بالحاكم بأمر الله. كان أكثر ما يحنقها أنها كانت واحدة ممن خططوا لهذا.

هل كانت واحدة من هؤلاء الذين جعلوا من أخيها وحشا لا يعرف الرحمة؟

ارتجفت، وقالت محاولة الهرب من إجابة سؤاله:

" -وماذا حدث لتابع الساحر الذي أحييته؟ هل أخبركم بما رآه بعد موته؟"

"-لم أسأله عن هذا ، لكنني أمرت بقطع رأسه مع الأخرين "



"-ولماذا قتلتهم؟ ألم تقربهم اليك، وتخلع عليهم، وتفيض عليهم بالذهب والفضة؟ ألم تكن أنت من جمعهم من بقاع الأرض واصطفيتهم لنفسك؟ "

"-كانوا يخدعونني ، والموت جزاء كل من يخدع إلهه "

بالكاد احتملت اذنها كلمة إله، وحدثت نفسها في اشفاق:

"يا لك من مسكين يا أخي الصغير لتصدق أنك قد تصير إله، إن من أوهمك بهذا، لهو من خدعك حقا، لا أولئك السحرة المساكين، وهو بحق أولى بسيفك من أعناقهم!"

ثم قالت بصوت مسموع :

"-وذلك المسكين الذي أحييته، أكنت تعيده للحياة لتذبحه ثانية؟ هذا غريب "

أطلقها من كفه، فعادت لتستدير بعيد عن عينيه، وهى تتنفس بسرعة، بينما قال الحاكم :

"-لقد كان واحدا منهم، وكان عليه أن يشاركهم مصيرهم "

"-وهل كان ذلك الرجل المخيف الذي ظهر في القصر بغته وصار يتبعك كظلك، هو من أخبرك بحقيقة كونك إله؟ "

"-هل تقصدين مفرج بن دغل الحراج، الشيخ الأسود؟"

"-لا أعلم ما اسمه، لكن أليس عجيباً أن يَدعو نفسه بهذا الاسم الغريب، الشيخ الأسود؟"

التقط الحاكم بأمر الله بعض حبات العنب من طبق فوق طاولة، في أحد الأركان ممتلئة بالفاكهة الطازجة ووضعها بفمه، وأجاب:



-" إنه مرشدي يا اختي، إنه من يخبرني بحقيقتي!"

همست في سخرية لم تنجح في اخفائها :

"-وهل يكون للآلهة اخوة، ألا يعني هذا أنني قد أكون أنا الأخرى إلهاً آخراً؟ "

لم تخف عليه نبرتها المتهكمة، فصرخ في غضب :

"-أعلم أنك تسخرين منى. لكن لا بأس، يوما ما ستؤمنين بي وسأجعلك تندمين على كفرك بي!"

"-وماذا لو لم أفعل؟ هل تذبحني يومها؟ "

"-لو شئت قتلك لفعلت منذ زمن، لكن أمراً في نفسي لا أفهمه، يقيدني عن فعل هذا "

لم تعقب، وبالكاد منعت عن عينيها الدموع، فاندفع نحو باب الحجرة ليغادر، لكنه توقف وقال دون أن يلتفت إليها :

"-هل تظنين يا ست الملك أنني لا أدرى ما تكنيه في صدرك من غيرة منى، أنا أكثر من يعلم شغفك بالحكم، ومدى حنقك لأن الخلافة ذهبت لي رغم أنك أكبر مني "

قالها ثم ذهب، زفرت في ضيق وقد أحست بضيق في صدرها، فتحركت نحو النافذة، صفعت وجهها نسمات من الهواء اللطيف، وحملت النافذة اليها أصوات الجواري والكهرمانات والعبيد والأهالي القادمون للديوان للشكوى وقضاء حاجاتهم، مختلطة بأصوات الحمير والخيل والدواب وحركة العربات في الطرقات حول القصر وداخله. كان عالماً كبيراً يتسع لملايين الحكايات ويضيق بحكاياتها مع الحاكم بأمر الله، الخليفة الفاطمي القادم من نسل الأبرار كما تعلم عن اجدادها.

شعرت بجفاف في حلقها، فنادت على جاريتها، وأمرتها بصب شراب الرمان البارد لها، ثم تناولته وهي تفكر في تلك الأفكار الحمقاء التي تربعت في عقل أخيها، هل يعتقد ذلك الاحمق أنها تغار منه حقا؟ ألم يدرك أنها رغم كل شيء أكثر من أحبه في هذه الأرض، وهل منحته أمهما نصف ما منحته هي من حب ورعاية، ووجدت نفسها تهتف في حنق:

"_أحمق كعادتك لو استسلمت لتلك الفكرة الحمقاء كما استسلمت لغيرها من أفكار ستقتلك بلا ريب."

عادت لتفكر في الشيخ الأسود. ذلك القادم من المجهول ليوقد الفتنة في نفس أخيها، والقصر الكبير، والمحروسة كلها. كيف نجح ذلك الغريب في اقناع أخيها المتشكك بفكرة ألوهيته؟ وماذا سيحدث لو انتقل الخبر إلى الناس في البلاد، وماذا سيفعلون؟ أمر كهذا كفيل بإشعال ثورةٍ قد تذهب بملكهم وملك آبائهم الي يوم القيامة. ذلك الأمر كفيل بصب العار فوق رؤوسهم ورؤوس أشياعهم للأبد. كان عليها أن تحمي مُلك عائلتها، وتحمى أخيها الغافل الأحمق نفسه من شر نفسه، كان عليها أن تعود للتحرك ثانية. كما فعلت مرارا.

استدعت خادمتها ثانية وأمرتها:

" -اذهبي بنفسك إلى أبو القاسم الجرجاني، وأخبريه أني أريده في الحال "

أجابتها الجارية :

"-أمر مولاتي، لكن القاضي أبو الفضل محمد بن منصور البقلي قد أتى لرؤيتك "

شعرت ست الملك بالدهشة من تلك الزيارة المفاجئة، هل هناك كارثة أخرى بانتظارها، أم تراه جاء ليشكو اليها بعض أعمال أخيها، كما يفعل أحيانا؟ أشارت لجاريتها بإدخاله، فقال لها والذعر يغمره فور أن دخل:



"-إنه حسام الدين يا مولاتي، قَتَل أحد المغاربة، وهم في إثره الآن ليقتلوه "

ضاق صدرها بغتة، وأدركت أن طالعها اليوم قد أتى بالشؤم، فقالت بصوت مبحوح :

"-يا اله السموات! ، ألم يجد غير المغاربة ليقتل واحداً منهم؟"

قص عليها القاضي كل ما حدث، وأخبرها بهجوم الشرطة والمغاربة على داره، وهروب حسام منهم، فارتعشت كفاها وهي تسأله:

"-وأين هو الآن؟ هل هو في مكان آمن؟ "

تردد للحظة قبل أن يجيب :

"-أشرت عليه بالاختباء في القرافة"

لم تصدق أذنيها، فصرخت في وجهه في استنكار :

"-ويحك أيها القاضي، هل أشرت عليه بالقرافة؟ لقد أوردته التهلكة! ألا تعلم ما يحدث هناك؟"

"-كان هذا آخر مكان قد يفكرون في البحث فيه عنه، كما أننا لم نعد نسمع عن حوادث قتل جديدة في القرافة منذ زمن، وحفارو القبور يذهبون كل يوم الي هناك بجثمان جديد دون أن يصيبهم مكروه! "

"-هذا لأنهم قد فقدوا ألسنتهم وسمعهم بل وعقولهم كذلك. هل ترغب في أن ينجو حسام الدين من القتل بيد المغاربة، ليعود اليك وقد قطع لسانه وفقد سمعه؟ بئس الرأي ما أشرت عليه أيها القاضي! "



تضاءل القاضي من غضبها وحدتها التي لم يعهدها، وهو لا يعلم ما يرد به على غضبها، فراحت تتنفس بسرعة، وهي تروح وتجيء في الحجرة الواسعة بلا توقف، ثم التفت اليه في النهاية، وقالت له :

"-وماذا تريدني أن افعل الآن؟"

"-أنت أخت الخليفة ولو حدثته فربما عفى عنه "!

ابتسمت في مرارة وقالت :

"-وهل تظن أنه سُيغضب المغاربة من أجل أحد المصرين وهو لا يعرف حقيقته، إنه لن يفعل مهما حاولت ! "

"-إذا ماذا أفعل الأن يا مولاتي؟"

"-عليه أن يظل مختفيا لبعض الوقت حتى يهدأ الأمرويهدأ المغاربة قليلا ، ثم أحدث الخليفة بشأنه حينها، لكن عليك أولا إخراجه من القرافة، اذهب إلى هناك بنفسك وابحث عنه، ثم ارحل به الي النوبة أو السودان، واختبأوا جميعا هناك، حتى أرسل في استدعائك. "

ثم اتجهت الي خزانتها وأخرجت منها صرة دنانير، وقالت وهي تناوله إياها :

"-خذ معك تلك الدنانير، فحتما ستكون بحاجة اليها في رحلتك تلك. "

التقط القاضي الصرة منها، وأردفت ست الملك :

"-اياك أن تثق في أحد، وخاصة المصريين، لقد شوههم الفقروالخوف، فصار المرء منهم مستعداً لتسليم أبيه نفسه لحتفه مقابل دراهم معدودات. حاول التخفي أنت وحسام الدين، وتظاهرا بكونكما تاجرين مثلا، ثم استأجر أحد المراكب وسافروا في النهر، فهذا آمن لكم من رحلة البر "



استأذنها بعدها القاضي في الانصراف ثم غادر الحجرة، فدبت على الأرض بحذائها في حنق، وصرخت :

"-لماذا أصيب الكل بالجنون والغباء في هذا اليوم، هل فقد الرجال في هذا البلد عقولهم؟ "

ثم دخلت جاريتها في اللحظة التالية يتبعها أبو القاسم الجرجاني خادمها وتابعها الأمين فقالت له :

"-تعال هنا يا أبا القاسم، واستمع الي، أريدك اليوم في أمر خطير "

ابتسم أبو القاسم وقال في خضوع :

"-أنا طوع بنان مولاتي "

سار القاضي أبو الفضل محمد بن منصور البقلي في طرقات القصر الكبير متجها نحو الباب الخلفي، كي يخرج منه دون أن يشعر به أحد، كما اعتاد أن يفعل، بينما يتقدمه أحد الخصيان التابعين لست الملك.

في الواقع كان في أسوأ حال ممكن، لقد أتى وهو يتمنى لو تعثرست الملك على حل للورطة التي عَلِقَ بها حسام الدين، وها هي تُعلن له عجزها عن إيجاد هذا الحل، بل وتأمره بالرحيل والاغتراب عن أرضه، كان الخروج من الفسطاط وجامعها العتيق وأهلها الذين أنسوا به وأحبوه كالحُكم بالنفي، لكنه في النهاية كان مجبراً على طاعتها، فهي تبغي السلامة لحسام الدين، مثلما يريد هو، وربما كان من الأفضل له ولأبنته سلمى الرحيل في هذا الوقت عن دارهما، لقد هاجمه المغاربة اليوم بيته، وقد حفظها الله منهم، لكن من يدرى، فربما كرروا الأمر ثانية، وربما آذوا ابنته حينها. بالفعل افضل ما يمكنه عمله الأن هو الرحيل، وليحفظهم الله بفضله . بلغ الباب الخلفي للقصر واستعد ليخرج منه، حين وجد نفسه محاطا ببعض المغاربة والحراس من الشرطة، ولدهشته وجد



صاحب الشرطة نفسه محمد بن نزال بينهم، ارتبك القاضي، وهوى قلبه بين قدميه، وقد شعر بهلاكه، بينما تحدث صاحب الشرطة إليه، ورجاله يقيدونه، قائلا :

"-الي اين يا قاضى الحنفية، مازال مولانا يرغب في الحديث اليك!"

(10)

أدرك حسام الدين حين أطل برأسه من قلب المقبرة القديمة، التي يختبأ بها أنه كان محقا حين شعر بأن ظلام هذا الليل يختلف عن ظلام أي ليل آخر قد رآه يوماً، فرغم أن القرافة تقع خارج الفسطاط في الخلاء قرب الجبل، وأنه لا شيء يحجب السماء عنها، إلا أنه حين نظر الي السماء لم يعرفها. بدت صفحة السماء سوداء تماماً كالفحم، بلا نجمة واحدة تزينها أو قمر يضيئها. اضطرب قلبه وقد تذكر أنه في منتصف الشهر الهجري، وأن القمر لابد أن يتربع الأفق في ليلة كهذه، كصحنٍ كبيرٍ مكتمل الاستدارة، لقد زار القرافة من قبل كثيراً، وخاصة في قلب الليل، كان يهوى المرح بين قبورها في الظلام، مع رفاقه حين كان صبياً، كان الحضور إليها، والتوغل بين شواهدها ومبانيها لإثبات شجاعتهم، هي اللعبة المفضلة للصبية والمراهقين، كانت اللعبة كالتالي:

"من يمكث فيها من الصبية بمفرده، أطول وقت ممكن، دون أن يصرخ من الخوف، أو يعدو هاربا، يكون هو الفائز."

وفي ذلك الوقت كان الفوز في مثل تلك المسابقات، وسيلة لاكتساب الاحترام بين رفاقه. كان بلا أب أو أم يعرفهما، مجرد لقيط يربيه القاضي أبو الفضل محمد بن منصور البقلي. لقد رباه القاضي كابن له، ولم يشعره يوما ما باليتم



أو الذل، بل رباه مع ابنته سلمى كندٍ لها. لكن الأطفال والصبية لا يعرفون مثل تلك الأشياء، فطالما أتى للدنيا بلا أب يعرفونه، فهو لقيط، بل وهو غالبا ابن حرام، فراحوا يعايرونه بهذا طوال الوقت، حتى استحال نهاره وليله إلى جحيم، كره الخروج من البيت وتعلم العزلة، بل وفكر أكثر من مرة في قتل نفسه، ليتخلص من هذا العار الذي ولد معه، إنه ابن حرام!

راح يسأل الشيخ القاضي كثيرا من يكون أباه؟ فيمسح الشيخ على رأسه بعطف، ويخبره أنه حقا لا يعلم، ليشعر الفتى بالثورة في قلبه، وينتقل للسؤال الثاني الأكثر صعوبة، هل يعني هذا أنه ابن حرام؟!

هنا كان الشيخ ينتفض في غضبٍ، نادراً ما يراه عليه، ثم يسوّد وجهه وتنتفخ اوداجه في ثورة، ويصيح:

" -هذا افتراء على الله يا ولد، اياك أن تنطق به يوما أو تصدقه، وإن سبك أحد بهذا فأخبرني به لأقيم عليه حد الله، وأقتص منه ومن حدثه بهذا. "

حينها كان يلوذ بالصمت في عجز، ويختفي في حجرته ليجّتر ألمه بمفرده، وهو يقول لنفسه في حسرةٍ :

"-أي قصاص ستقيمه يا أبا الفضل؟، هل ستقوم بجلد أطفال لم يبلغوا الحُلم، وحتى لو منعت ألسنتهم من قول هذا، فهل تمنع عيونهم وقلوبهم من اتهامي، ليتك يا مولاي تخبرني باسم أبي فأخبرهم به، ليصمتوا ! "

ظل رفاقه يضايقونه حتى تشاجر معهم للمرة الأولى، وحين ضرب أكثر الصبية مشاغبة وقوة، رأي الرهبة في عيون الباقين. تعمد أن يتعارك مع غير واحد منهم ويتغلب عليهم، كان ينتقى الأكثر قوة فيهم ليخافه الباقون، وحين نجح في هذا، خافه الجميع، وتوددوا إليه وقد أصبح زعيمهم، وامتنعوا عن مناداته باللقيط أو ابن الحرام.



كان الأمر الأخر الذي يزيد من قدره بينهم، هو اختبار الشجاعة، والقيام بأي أمرٍ جريء، كي يثبت لهم أنه أكثرهم شجاعة، وكانت المقابر ، وما تتفوه به العجائز في قلب ليالي الشتاء الباردة عنها من حكايات مرعبة، هي ساحة الامتحان الأكثر رعبا. كانوا يختارون الليالي حالكة الظلمة التي لا قمر بسمائها ليذهبوا اليها، ثم يتقدم أكثر الصِبيَةَ شجاعةً، ليدخلوا المقابر ويختفوا بين شواهدها، بينما ينتظر الباقون خارجها لمراقبة المكان، كي لا يداهمهم الحرس أو حفارو القبور، وكان أخر من يخرج من قلب القرافة، هو اكثرهم جرأة وشجاعة وبطولة، وكان الاحتفاء به عظيما!

نجح دوما في اثبات أنه الأكثر شجاعةً، وأثبتَ لهم كثيراً، أنه لا يخاف المقابر أو حتى عفاريتها. لم يكن أكثرهم شجاعة في الواقع، فقد كان قلبه حينها يوشك أن يتوقف رعباً، حتى يكاد أن يفقد وعيه، وهو يتخيل كل حركةٍ، أو صوتٍ حوله، عفريت من الجان أو شبحً جاء ليختطفه أو يقتله.

إنه ما زال يتذكر تلك المرات التي كان يقترب فيها من شواهد قبور متهالكةٍ، بالغة القدم، ليختبأ وسطها. هنا كان يسمع تلك الأصوات المخيفة، القادمة من باطن الأرض، ممتزجة بصراخ يشيب له الولدان، قادم من قلب الشواهد المتهدمة، كانت تلك المرات هي الأكثر رعبا له، وطالما تساءل بعدها، هل كان ما يسمعه وَهمٌ صنعه خوفه، أم أن تلك الصرخات الرهيبة، هي العذاب الذي يقاسيه الموتى، وما سمعه من همسات مخيفةٍ غامضةٍ، هو حديث الموتى الأخرين؟!

كان أخر مرة أتى فيها للقيام بتلك التجارب المرعبة، لإثبات شجاعته، حين تراهن معه صبي جديد، أتى من الصعيد مع أهله للعيش في المدينة، أراد ذلك الصبي الأسمر القوي الذي كان يدعى "مِحفظ" أن يتحداه، وأن يتزعم الصبية بدلاً منه، بأن يثبت للجميع أنه اكثرهم شجاعة، انطلقوا يومها في الظلام نحو



القرافة، وبلا تردد اخترقها المتنافسين، اختار محفظ الناحية الشرقية ليختفي فيها، واتجه حسام للناجية الأخرى واختبأ. مضى الوقت ببطء في الظلام ثم بدأت الهمسات الغامضة تأتي من الظلام من حوله. شعر بالطبع بالخوف، إلا أنه صمم على ألا يغادر المكان، إلا حين يكون متأكداً أن ذلك الصبي الغبي الأسمر، قد خرج من القرافة قبله، إنه اختبار زعامة، ولو سقط فيه لخسر كل شيء، وربما عاد رفاقه لمعايرته ثانيا بأنه لقيط .

وبعد وقت بدا له كدهر كامل، سمع تلك التأوهات الغريبة، تأتي من مكان قريب من مقبرته التي يختفي خلفها، شعر برعب لا حد له، وفكر في الهرب. لكن قدميه لم تطاوعه، زحف ببطء ليرى مصدر الأصوات، فرأي جارية حلوة، كالبدر المنير، وهي تداعب شاب وتحتضنه. وجد نفسه يراقبهما في شغف وقد أنستهُ حلاوة الجارية حذره وخوفه، وأيقظت روح المراهق الشبق في نفسه، هل هما عاشقان اختارا المقابر لممارسة الحب بعيدا عن العيون؟ لا يدرى كم مضى من الوقت وهو يراقبهما، حين وجد نفسه فجأة محاطاً بالفتاة والشاب الذي معها وهما ينظران إليه في هدوء!

عاد الذعر ليتملكه وهو يتأمل تلك الابتسامة الواسعة المرتسمة على وجه الفتاة الحسناء، ثم مدت كفها اليه وقالت بصوت رخيم :

"-تقدم إلي يا حسام، ولا تخف، لن يؤذيك أحد! "

كان شيء ما في وجهها وصوتها يبعث الخوف في نفسه حتى الموت، تقدمت الفتاة نحوه، فتراجع زاحفا حتى التصق ظهره بشاهد القبر الذي كان يختفي وراءه. وبفزع رأى قدمي الشاب الغريب، كانت مجرد عظام بلا لحم يكسوها. إنه ميت أو مسخ أو عفريت. شهق بفزع، والتفت الي الفتاة بسرعة، ونظر إلى ساقيها ليدرك أنها لا تسير على الأرض بقدمين كباقي البشر. بل كان جسمها مُعلق في

الهواء، وينتهي بضباب كالدخان، بالكاد يلمس الأرض. سأل نفسه، ماذا تكون؟ كان التخمين مرعبا بحق.

كان أول تعبير عن فزعه هو مثانته التي أطلقت ما بها من بول، فأغرقت سرواله. وفي اللحظة التالية علم أنه سيموت لو لم يفر الأن، استجمع شجاعته وانطلق يجري من بينهما كالسهم، وهو يطلق صرخات استغاثة توقظ الموتى، بلغه هتافها من خلفه وهي تناديه:

" -حساااااااااام الدين، اااااانتظر " !

لكنه لم يكن ليقف مهما حدث. وحين بلغ رفاقه خارج القرافة، لم يتوقف وصرخ فيهم :

"-هيا اهربوا، انهم قادمون خلفي"

أدرك الصبية أنه لا يمزح، ليرهبهم، ولمح بعضهم تلك الحسناء القادمة نحوهم من قلب القرافة. هنا انطلقوا خلفه كأنما تطاردهم شياطين الجحيم .

وفي الصباح علموا أن (محفظ) لم يعد من القرافة، وأن أبوه يبحث عنه، فتش الأب عنه في مكان، لكن الفتى لم يظهر ثانية، لقد اختفى وكأنما ابتلعته باطن الأرض. الصبية وحدهم هم من كان يعرف الحقيقة، هم من كان يدرك أن القرافة وشياطينها، قد ظفرت بواحد آخر من الأحياء، لكن أحداً منهم لم يكن ليجرأ على اخبار الناس بما يعرفه، فالخوف في نفوسهم كان أقوى من أي شيء آخر، وكانت هذه هي آخر مرة يفكر فيها أحد الصبية في الاقتراب من القرافة ليلا أو نهار، بما فيهم حسام الدين.

والآن ها هو حسام الدين وبعد كل تلك الأعوام، يعود مرة أخرى للقرافة. عاودته مخاوفه كلها في تلك اللحظة، وخاصة مع تلك الأصوات الغامضة



القادمة من ظلام القرافة، فكر في أن يمكث داخل القبر ويختبأ، لكن ماذا لو حاصره شيء ما، مثلما حدث في الماضي فكيف يهرب؟

حزم أمره وزحف بلا صوت لخارج القبر. ثم راح بحذر يتلفت حوله، لم يرى غير الظلام، بحث عن مصدر تلك الأصوات الغامضة، وحاول بعينيه أن يخترق الظلام السرمدي الرهيب، فلم يرى شيئاً، في تلك اللحظة ألح على عقله خاطر رهيب. ماذا لو كانت حسناء المقبرة الرهيبة التي قابلها منذ أعوام، مازالت بالمكان وتنتظره؟

خاطر مرعب !

وفي اللحظة التالية رواده شعور غامض بأن هناك أحد غيره في المكان، وبينما بلغت دقات قلبه حدها الأقصى دار رأسه ببطء للخلف و..

وكانت حسناء المقبرة هناك بالفعل!

كانت تقف خلفه وعلى وجهها نفس الابتسامة الغامضة المثيرة، التي رآها من قبل، وبينما اهتزت قدماه أسفل منه، منذرة بأنها لن تقدر على حمله أكثر من هذا، سمع الفتاة تهتف بصوتها المثير المبحوح :

"-حساااااام الدين، لقد عدت ثانية !

(اا)

لم يصدق القاضي (أبو الفضل محمد بن منصور البقلي) أن يساق الي السجن هكذا مثل اللصوص والقتلة والمجرمين، وبينما راح عقله يتذكر الكثيرين، ممن قتلوا بيد ذلك الخليفة السفاح. اعتصر الألم قلبه، وهو يفكر في



ابنته سلمى. من يكون لها من بعده، وهل يتركها الحاكم بأمر الله وشأنها ام ينهب أمواله وبيته ويطردها الي الشارع؟

دعا الله في سره أن يحميها من بطش الخليفة ورجاله والمغاربة. تمنى لو يتزوجها حسام الدين، ويرحل بها بعيدا عن هذا البلد الذي ضربته الذلة والمسكنة، وصار رجاله كالخصيان أو الطيور الداجنة، ترضى بالفتات من كل حاكم أو غاصب!

لماذا قال صاحب الشرطة أن الحاكم ينتظره، ولماذا عامله بمثل تلك الخشونة؟ هل غضب الحاكم من أجل المغاربة، وما فعله حسام الدين بهم؟ أم هي وشاية أطلقها الحاقدون عنه في أذن الخليفة؟ أم هل علم الحاكم بأمر الله بشأنه وشان ست الملك أخته، وقدومه إليها من حين لآخر، وهل علم بما بينهما؟

تحرك بين جدران السجن الصخرية في قنوط وترقب، وبصعوبة راح يتنفس ذلك الهواء الحار الرطب، المشبع بروائح عضوية كريهة خانقة، لم يكن هناك من نافذة في الحجرة الضيقة، إلا تلك الكوة الصغيرة في الباب، ومن بعيد راحت صرخات المعذبين، في الزنازين المجاورة تنفجر في أذنه، منذرة بمصيره الحتمي القادم،

تيمم بالثرى، ثم بدأ الصلاة وهو لا يدرى اتجاه القبلة، لكنه تذكر قول الله :

"وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ "

فاطمئن قلبه لصحة صلاته، انهمك في الدعاء وهو ساجد، حتى بلل لحيته، لم يسأل الله أن ينجيه، قدر ما سأله أن ينجي ابنته وحسام الدين، وأن يحفظهما، وحين رفع رأسه من سجوده، طالعه وجه باسم يرمقه بتهكم لرجل يقف أمامه، اضطرب للحظة، وهو يتساءل، متى دخل هذا الرجل زنزانته، وكيف لم يشعر به؟ نظر إلى باب الزنزانة، فوجده مغلقا كما كان منذ قليل، فعاد



لينظر للرجل الذي مد كفه نحوه، ليساعده على النهوض، لكنه تجاهل اليد الممتدة، وسأله :

"-من أنت، وكيف دخلت إلى هنا، والباب مغلق؟"

أعاد الرجل يده ببساطة، وأجاب :

"-ينادونني ب (مفرج بن دغل الحراج)، ويدعوني البعض، الشيخ الأسود . سمني ما شئت، وإن كنت أشك في أن يروقك مناداتي، بالشيخ الأسود، أما سؤالك، كيف دخلت إلى هنا، فلم تكن الأبواب أو الجدران عائقا يوما أمامي !"

رمقه القاضي بتوتر ورهبة، وشعر بشيء شيطاني مخيف، في هذا الرجل المليح، وخاصة عينيه. بينما دار الشيخ الأسود حوله، وواصل الحديث:

" -لست بحاجة لأن تدعو إلهك، أن ينجى ابنتك أو يحفظها، بل وحياتك نفسها يمكنك أن تنجو بها، لو شئت ! "

ازدادت دقات قلب القاضي اضطرابا، وتلاحقت أنفاسه، وهو يتساءل، كيف علم هذا الرجل أنه كان يدعو الله بهذا؟

انحني الشيخ الأسود نحوه، و أجاب تساؤله الذي لم يفارق عقلٰه :

"-يمكنني معرفة ما يدور في العقول، لكن دعك من هذا، واستمع إلي، لن يستمع إليك إلهك، ولن ينجيك أو ينجي ابنتك من بطش الخليفة، فقط أنا من يمكنه أن يفعل! هذا بالطبع، لو أخبرتني أين خبأت حسام الدين؟ "

انتفض القاضي، وصرخ في غضب:

" -اعوذ بالله من هذا الكفر البين، أتتهم الله بالعجز يا رجل؟ هل أنت شيطان؟ "



ضحك الشيخ الأسود وأجاب :

"-دعك مني أيها القاضي، وفكر في ابنتك، إنها فتاة جميلة وصغيرة، وستروق حتما لرجل همجي من الحرس، أوصعلوك من المغاربة، لو كنت مكانك لجنبتها هذا المصير، وأخبرت عن مكان حسام الدين "

احتقن وجه القاضي، وتمنى لو يمسك برأس هذا الكافر المارق، ويحطمها على جدران الزنزانة، حاول أن يسبه، أو يبصق في وجهه نفورا، لكن قوة أقوى منه سيطرت على جسده وعقله، وعاقته عن التنفس والكلام للحظة ، في النهاية نجح في اطلاق الكلام، فقال :

"-أريد التحدث الي الأميرة ست الملك!"

اطلق الشيخ الأسود ضحكة ساخرة، ومال نحو أذنه، وقال ببطء :

"-ست الملك؟ الأميرة القوية التي يخشاها الجميع في هذا القصر! "

ثم هز رأسه في أسف مصطنع، وأكمل :

"-يؤسفني أن أخبرك، أنها أخر من قد تتحدث إليه، أيها القاضي، وحتى لو حدثتها، فلن تجنبك المصير الذي ينتظرك، تذكر أنني حاولت مساعدتك، لكن رفضت "

قالها قبل أن ينظر إلى الباب، الذي فتحه أحد الحراس، ثم ظهر وجه الحاكم بأمر الله من خلفه، فقال الشيخ الأسود، وهو ينحني انحناءة خفيفة:

" -إنني بانتظارك يا مولاي "

نظر الحاكم بأمر الله الي القاضي في قسوة، وغمغم :

"-هل تحدث؟"



"-سوف يفعل، الكل يتحدث بكل ما لديه في النهاية !"

"-ألم يكن ممكنا أن نستجوبه في الديوان؟"

أجابه الشيخ الأسود مبتسما، وهويهزرأسه :

"-ليس هذه المرة يا مولاي، القاضي يمتازبالعناد، ولهذا فهو يصلح تماماً، لعملنا الذي حدثتك عنه اليوم!"

تذكر الحاكم حديثه هذا الصباح، مع الشيخ الأسود، وتجربته التي يريد تنفيذها، فقال بغيرترحيب كبير :

"-إذا متى نبدأ؟"

"-ليس هنا يا مولاي، المكان هنا لا يصلح، والعيون كثيرة حولنا، لكنني أعرف مكان قريب يناسب عملنا "

تمتد أسفل القصر الكبير، شبكة ضخمة من الأنفاق والسراديب والحجرات الحجرية، التي تم استخدام بعضها كزنازين. شق الحشد الصغير طريقه داخل السراديب المظلمة، يتقدمهم الشيخ الأسود، الذي حمل أحد المشاعل كي ينير لهم المكان، غادروا منطقة الزنازين ثم ابتلعتهم دروب متربة رطبة، بدا وكأن أحد لم يقربها منذ عقود، امتدت الانفاق الحجرية بلا نهاية، وهب في وجه الحشد الصغير، عشرات الخفافيش التي طارت مبتعدة، وقد أزعجها ظهور هؤلاء الزوار الغير مرغوب فيهم، بينما راحت الكثير من الجرذان في الهروب من بين أقدامهم، طال الوقت، ودخلوا وخرجوا من عشرات الانفاق الحجرية، حتى أن الحاكم بأمر الله سأل الشيخ الأسود في دهشة:

" -هل توجد كل تلك الانفاق أسفل القصر ،دون أن أعلم بشأنها؟ "



"-تلك الانفاق حفرها القائد جوهر الصقلي منذ البداية، وقد كان مولانا المعز لدين الله على علم بها، لكنه لم يخبر أحدا بشأنها للحفاظ على سريتها، إنها من أجل سلامة الخلفاء وابنائهم، لو حاصرهم عدو ما، ورغبوا في الهرب، إنها تخترق باطن الأرض، وتمتد الي خارج أسوار القاهرة."

ثم توقف الشيخ الأسود، ودار بالمشعل الذي يحمله في الهواء، ليرى الحاكم بأمر الله عشرات الفجوات المظلمة، في الجدران الحجرية، وغمغم:

"-تلك دروب صنعت ليتوه فيها الأعداء الغير مُرحب بهم، والآن نسيها الجميع، ولم يعد يتذكرها غير العناكب والأشباح."

نظر الحاكم حوله في دهشة وأراد أن يسأله، كيف عرف هو بمكانها، وكيف يتحرك بمثل تلك الثقة فيها، رغم ظلامها الحالك ودروبها المتشعبة، التي من السهل أن يتوه المرء فيها، لكنه أحجم، فليست هذه هي المرة الأولى التي يبرهن فيها الشيخ الأسود على معرفته بالكثير من الأسرار، ورغم كل تلك الريبة التي تحيط بذلك الرجل الغامض، إلا أنه يثق به، يكفيه أنه أول من آمن بإلوهيته، والان قد صار القصر بأكمله، يؤمن به ويسبح بحمده ويسجد له، وقريبا ستكون الأرض بأكملها تعبده .

بلغوا نهاية الانفاق فظهرت أمامهم حجرة واسعة، بابها مفتوح. توقف الشيخ الأسود أمام الباب، وانحنى وهو يفسح الطريق للخليفة، ويقول :

"-سيد الأرض أولا ! "

تقدم الحاكم بأمر الله، ودخل الحجرة في ثبات كي لا يُظهر توتره. فالتفت الشيخ الأسود إلى الحارس الذي يقتاد القاضي، وقال له :

"-دعه لي، وعد الي موقعك !"



تراجع الحارس، وهو يتساءل، كيف سيعرف طريق العودة في تلك الأنفاق الكثيرة، لكنه لم يجرؤ على طرح سؤاله، على ذلك الرجل المخيف. قرأ الشيخ الأسود مخاوفه، فاتسعت ابتسامته وهو يعلم، أنه لن يعود لعمله، إنها بضع خطوات في الانفاق المظلمة، ثم ينتهي أمره. ثم جذب القاضي، وقال في أسف زائف:

" -تمنيت أن تستمع إلى نصيحتي قبل الأن، لكنك كالأخرين، أحمق ومكابر "

اكتفى القاضي بالنظر اليه في كراهية ونفور، في الواقع كان هذا كل ما يمكنه عمله، فمنذ حديثه مع ذلك الكافر المدعو بالشيخ الأسود في زنزانته، فقد قدرته على النطق، حاول مرارا أن يحرك لسانه، فلم يستجب له، حاول أن يخرج الأصوات من حنجرته، فأبت أن تطاوعه. أدرك أنه قد أصيب بشلل جلبه الحزن، أو سحر شيطاني من عمل هذا الرجل اللعين .

كانت الحجرة متوسطة الاتساع، الجدران والأرض مكسوة بالحجر المصقول ، والمشاعل والشموع الكبيرة تتوزع في كل الجدران كأنما هناك من يهتم بالمكان ويحافظ على اضاءته. امتلأت الجدران كلها بالطلاسم والنجوم والأرقام السحرية والرموز الشيطانية. كانت كلها مرسومة بالدم، أوربما هو حبر قرمزي قَانٍ يبدو كالدم. وفي منتصف الحجرة، كان هناك نَصَبٌ حجري متوسط الارتفاع، يتوسط نجمة خماسية كبيرة. تمتلئ هي الأخرى بالمزيد من الحروف والطلاسم، وقد لوثته دماء جافة تشي بماض مخيف.

وفي ركن الحجرة البعيد كان هناك جبل صغير من العظام، ولم يكن الأمر صعبا ليدرك الجميع، أنها عظام آدمية. علم الحاكم بأمر الله، وكذلك القاضي أن تلك الحجرة مهيأة لإقامة شعائر وطقوس شيطانية، وأن ذلك القائم الحجري هو مذبح تراق على جنباته الدماء. من المستحيل أن يكون الخلفاء



السابقون من أنشأوا تلك الحجرة، أو على أقصى تقدير أن يكونوا على علم بشأنها .

ارتجف القاضي وقد عرف مصيره. وهتف الشيخ الأسود مخاطبا الخليفة :

"-انها حجرة الاسرار والباطن يا مولاي، هنا تتعلم علوم الأقدمين وأسرار القوى الأزلية القديمة في الكون. هنا يتهيأ مولاي ليكتسب كامل قواه الإلهية "

ثم جذب القاضي نحو القائم الحجري، حاول القاضي التملص، لكن الشيخ الأسود أظهر قوة لا تُقهر وهو يجذبه، ثم راح يقيده في حلقات من المعدن، مثبتة في القائم الحجري، وحين انتهى، قال :

"-حان الوقت ليتكلم لسانه بما أخفاه في ثنايا عقله! "

هبت عاصفة من الهواء البارد وتراقصت الشعلات النارية في المشاعل والشموع. ومن باب الحجرة ظهر ثلاثة رجالٍ طوالٍ ضخام، يرتدون عباءات سوداء ضخمة، تغطي رؤوسهم وأبدانهم، وتصل لأحذيتهم الجلدية. كانت وجوههم بيضاء كالثلج، وعيونهم سوداء تماما، كالليل الحالك بلا بياض يشوبها. تحركوا في صمت يثير الرعب، ولم يسمع الحاكم بأمر الله أي وقع لأحذيتهم على الأرض الصخرية. التفوا حولهم في دائرة ضخمة فرمقهم الشيخ الأسود في رضا، بينما بدا القلق على وجهه الحاكم بأمر الله، وقد علم إنهم ليسوا من البشر. نظر الي الشيخ الأسود، ملتمسا الشد من أزره، فأسرع الأخير قائلا :

"-إنهم أعاونك وخدمك يا مولاي!"

ثم وضع الشيخ الأسود كفيه في وعاء به سائل أحمر ثقيل كالدماء، موضوع فوق القائم الحجري، وغسلهما في هذا السائل، ثم رفع يده دون أن يعلق بها شيئا من السائل، التقط بعدها خنجراً، ذو مقبض عجيب يعج بالنقوش والطلاسم، ورفعه، فتحرك الرجال الشاحبين في صمت نحو القاضي الذي نظر



اليهم في رعب عظيم. ثبت أحدهم جسده، واحاط الثاني رأس القاضي بكفين أبيضين ينتشر فيهما زرقة الموت وبرودته، وتنتهي أناملهما بأظفار طويلة كالمخالب، بينما حمل الرجل الثالث إناءً من النحاس، وانحني به أسفل رأس القاضي، وانتظر. تحرك الشيخ الأسود نحو القاضي وارتعش اللهب في المشاعل، وبدأ حشد الرجال الشاحبين في ترديد تعاويذ قديمة .

حاول القاضي التملص، فلم يقدر، وانحنى الشيخ الأسود نحوه، وقد فارقته لأول مرة ابتسامته الساخرة المتهكمة، وتجهم وجهه. ثم دفع طرف السكين في عين القاضي اليسرى، ودار بها بمهارة في تجويفها العظمي وهو يفصلها عن رأس القاضي، حتى سقطت في الإناء الذي يحمله ذلك الشاحب أسفل رأس القاضي، ثم امتدت يد الشيخ الأسود بالخنجر الملوث بالدماء، نحو العين الأخرى للقاضي، وفعلت بها مثلما فعلت بأختها. كان الألم عنيفا لا يُصدق، وامتدت أعمدة من لهب من عين القاضي الي عقله، تمنى القاضي لو يذبحوه في تلك اللحظة، أو يحرقوه حتى ليموت. المهم أن يتوقف ذلك الألم الشنيع. ضاعف من ألمه، أنه لم يكن قادرا على الصراخ ، ولا المقاومة، بل ولا حتى تحريك رأسه، ومن أعماق قلبه سأل الله أن يرحمه بالموت .

صب الرجل الشاحب مقلتي القاضي، داخل الوعاء الذي يحوى ذلك السائل الأحمر القان، ثم عاد وزملائه إلى مكانهم، خلف الحاكم بأمر الله، الذي راح يراقب ما يدور بأنفاس محبوسة، بينما حرك الشيخ الأسود كفيه حول وعاء الدم ، وراح يردد مع الرجال الشاحبين تعويذته :

"إنه رأى وأخفى لكن الدماء ستفضح"

"إنه يعلم ولا ينطق لكن، لسانه سيفضح"

قبل أن يسود الصمت بغتة ويقول الشيخ الأسود :



"-والأن تقدم يا مولاي !"

تقدم الحاكم بأمر الله نحو الاناء ولدهشته رأي على صفحة الماء القاضي وهويجلس مع حسام الدين في ركن الجامع العتيق، ثم وجد القاضي، الذي تدلى رأسه، في انهاك وقد راح يتحدث، كان يكرر نفس ما قاله لحسام الدين من قبل.!

" عليك أن تهرب، المغاربة قساة، ولا قبل لأحد بهم في هذا البلد، وهم ذراع الخليفة في الحكم"

" إلى أي مكان لا تصل فيه أيديهم لك. أرض الله واسعة يا ولدي، وهذا قدرك"

" اذا تسعى خلف موتك، لأقضي ما بقى من عمري كله أتحسر عليك، يا حسام لقد ربيتك في بيتي، كابني، ويعلم الله أنه لو كان لي ولد من الذكور ما أحببته أكثر. ارحل يا ولدي فهذه الأرض قد ضاقت عليك"

" وهل يطيق هذا الجسد الهالك الشفر ومشقته؟ لا تقسو على يا ولدي"

" :اسمع يا بني، ربما كان هناك بعض الأمل في الله، سأحدث ست الملك في أمرك"

" اسمع، اذهب الي القرافة واختبأ داخلها"

كان نفس كلام القاضي، الذي تحدث به إلى حسام من قبل، لكن القاضي لم يكن هو المتكلم، بل لم يكن حتى يعي في تلك اللحظة أنه يفعل. كانت الكلمات تخرج من فمه دون إرادته. كان الضباب يحيط بعقله، وهو ينتظر النهاية التي كان يتمناها في تلك اللحظة. تبادل الحاكم بأمر الله والشيخ الأسود النظرات وقال الحاكم بأمر الله في ظفرٍ:

"-اذا ذلك المصري يختبأ في القرافة "



عاد الشيخ الأسود ليبتسم، ونظر للدماء للحظة، ثم اشتد بريق عينيه وقد ظهر أمامه أمر خطير آخر لم يره الحاكم بأمر الله. فرمق القاضي في رضا، وهو يقبض على شعره، ويُرجع رأسه للخلف فوق القائم الحجري، وأجاب وهو يرفع خنجره :

"-هذا يعني أنه بين يدينا! "

ثم هوى بالخنجر فوق عنق القاضي ففصل رأسه عن عنقه، ثم رفع الرأس بكفيه وأغمض عينيه للحظة فتصاعد دخان أسود منها، ثم فتح يده ليرى الحاكم بأمر الله، أن الرأس قد اختفى مع دمائه .

في بيتها انتظرت سلمى طويلا أباها، كي يعود، لكنه لم يأتي، أرسلت أحد العبيد الي الجامع العتيق، ليسأل عنه، فأخبرها خادم الجامع أنه اتجه الي القصر الكبير في القاهرة، لا تدرى لماذا راح قلبها يخفق بقوة، وهي تشعر أنه لن ترى أبوها مرة أخرى، رغم أنه اعتاد أن يزور القصر من حين لأخر، هناك خاطر ملح في رأسها يحدثها أن تلك المرة مختلفة، وأن الأحداث الجسام التي حلت فوق رؤوسهم، لن تمضى بسلام، بكت هي وجواريها حتى جفت العيون، صلت لله، ودعته حتى حَلّ التعب، وفي النهاية أنهكها القلق، فظفر النوم برأسها .

أرقدتها الجواري على الفراش، وأسدلن الستائر، فساد الظلام في الحجرة إلا من شمعة صغيرة، معلقة على الجدار، وفي النوم احتشدت الكوابيس، رأت حسام الدين وهو يصارع وحشا من ضباب أسود، ثم قطع الوحش عنقه بسيف من نارٍ، فهوى حسام على الأرض بلا حراك، وقد فارق الحياة. بينما راح الوحش الضبابي يضحك في جنون، ثم ظهر أبيها ورأسه معلق في الهواء فوق جسده، وخلفه الخليفة، الحاكم بأمر الله، الذي طالما رأته في موكبه الضخم في الأعياد، وهو يبتسم في تَشفٍ وسعادة.



ثم نظر اليها رأس أبيها وفتح عينيه فبدت بيضاء كالثلج، وهتف بصوت غليظ لا تعرفه:

-" لا تدعيهم يصلون إليك، ابحثي عن حسام الدين، واهربا! "

وبينما كانت تنظر للرأس في رعب، وجدت من يحيط بكتفها من الخلف، فانتفض جسدها، والتفت بسرعة، لتجد نفسها بين ذراعي رجل طويل وسيم، له عينين واسعتين سوداوين، كالليل البهيم، وهو يبتسم في سخرية، لتظهر أسنان ناصعة البياض، ويقول لها :

"-مرحبا بك يا صغيرتي، في عالمي !"

راحت تفتش بإصرار عن صرخة كي تخرج بها عن هذا الكابوس، حين هوت رأس أبيها بين ذراعيها ومازالت الدماء تتدفق من الرأس المقطوع، ونظر أبوها لها بعينين دامعتين. هنا صرخت كما لم تفعل من قبل، وهبت من نومها في ذعر.

راحت أنفاسها تتلاحق في غير انتظام، وبعد لحظة شعرت بالشيء الكروي القابع في حجرها، وعلى ضوء الشموع، هبطت بعينيها ببطء نحوه قبل أن تدرك ماذا يكون، لتطلق صراخات مذعورة وملتاعة، توقظ الموتى!

كانت تحمل رأس أبيها الذي رأته منذ لحظات في الكابوس المريع، كان يرمقها بنفس العين، التي اختفى السواد منها، فبدت بيضاء، شاحبة كالثلج، وكانت الدماء تنهمر من جذعها المبتور، وكأنما فارقت جسد ابيها منذ لحظة واحدة .

دخلت جاريتها عليها في اللحظة التالية، وقد جذبتها صرخة سيدتها، وحين رأت الرأس المذبوح، هوت على الأرض بلا حراك.



(12)

توارى (أبو القاسم الجرجاني)، خادم الأميرة ست الملك ،خلف أحد الأعمدة الحجرية ، في الطريق المتجه للقبو والزنازين، الموجودة أسفل القصر الكبير، كان الخليفة الحاكم بأمر الله، قد سار من نفس الطريق قبل وقت طويل، وهذا ما لم يفعله من قبل، وكان بصحبته ذلك الرجل الغريب، المدعو مفرج بن دغل الحراج، أو الشيخ الأسود، كما يتهامس البعض. كان يعلم بشأنه كباقي من يعيش في القصر. رجل غريب ظهر بغتة في القصر، وصار ظِل الخليفة. رجل فارسي، حمل معه هرطقات عُبّاد النار القدماء، وأوهم الخليفة أنه إله، وأن على رعاياه أن يعبدوه.

رأي بعينيه، كيف صار كل من في القصر، يسجد للخليفة حين يدخلون عليه، وشهد كيف عُطّلت الصلوات الخمس في كل انحاء القصر، وصار محرما إقامة الصلاة اورفع الآذان في جنبات القصر، لم يعد الخليفة يذهب للجامع الكبير، المجاور للقصر كي يؤم الناس، مثلما كان يفعل بالماضي، واكتفى بأن كلف قاضي القضاة بأن يؤم الناس بدلاً منه .

في الواقع لم يكن هو نفسه متدينا، وكان لا يصلي إلا من الحين للأخر، بل وآخر مرة صام فيها في شهر رمضان، كانت حين كان في الثانية عشر من عمره. كان يعاقر الخمر كل ليلة، ويتمتع بالجواري والمومسات بلا انقطاع فلم يكن هناك من وقت للعبادة. لم يفكر يوما في التوبة، أو الذهاب مثلا إلى الحج، ليغسل ذنوبه على أستار الكعبة، وهل لمثله توبة، وهو الذي قتل من الخلق ما لا يذكر عدده؟

لكنه رغم هذا لم يكن غبياً أحمقاً، ليصدق أن رجلا بال يوما في سرواله، وهو بعد طفل، قد يصير إلها بين يوم وليلة. الآلهة مكانها في السماء لا السير على الأرض، الآلهة لا تَلِد ولا تُولد. ورغم كل ذنوبه ظل يؤمن بشدة، أن في السماء



والكون إله واحد بلا شريك، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد. ربما يكون عاصياً، لكنه ليس كافراً، ربما لا يقبل الله توبته على ما يقترفه من آثام، في كل ليل ونهار، وحتما سيكون الجحيم مثوى أمثاله، لكنه لن يقبل أن يلقى في النار لأنه كافرٌ بالله أو ملحدٌ!

الخليفة مجنون فقد عقله حين استوى على عرشه، وهو خير من يدرك هذا، ولأنه يؤمن أنه لم يصب بالخبال بعد، فلن يتبعه، سيراوغ مثلما يفعل طوال عمره، وسيضمر في نفسه كل ما يؤمن به، ولن يخبر بها أي بشري. لكن ليدع هذا الآن، ويفكر في تلك المهمة الجديدة، والخطيرة، التي كلفته بها سيدته ومولاته، الاميرة ست الملك. سوف يقتل الشيخ الأسود من أجلها، وعليه أن يخفى جثمانه بعدها، فلا تظهر ثانية، وكأن الأرض قد ابتلعته في جوفها. لم تكن هي المرة الأولى التي تكلفه فيها ست الملك بقتل أحدهم. لقد قتل الكثيرين من أجلها. أمراء في المهد، ورجال دولة عظيمي الشأن في ديوان العرش، ومنافسون للخليفة، بل ورجال اشتهتهم يوما، ثم ملّتهم. إن سيدته لا تختلف عن الخليفة المجنون في شبقها للدماء والموت. لكنها لا تريق الدماء بكفها الجميلة أبداً.

في الواقع لم يكن يهمه كم يريق من الدماء، ولا عدد الأرواح التي يزهقها. من يقتل وأحداً يقتل ألفاً، وإنما الصعوبة في القتل أول مرة. والأن، وبعد كل تلك الأعوام، لم يعد يذكر من كان ضحيته الأولى، ولا كيف صار هكذا يقتل الناس بلا اكتراث !

هذه المرة وعدته ست الملك، أنها ستكون مهمته الكبرى، والأخيرة، وأنها ستعطيه ما يكفيه من نقود طوال عمره. فقط عليه أن يقتل الشيخ الأسود، دون أن يشعر به أحد، وبخاصةٍ الخليفة، لكنها لم تنس أن توصيه بالحذر، فضحيته هذه المرة ليس مجرد رجل عادي، يكفيه أن يتوارى في الخفاء، ثم يفاجئه بسيفه، أو خنجره، الرجل مخيف، يثير الرعب في النفوس، وهناك تلك



الحكايات المرعبة، التي يتهامس بها العبيد والخصيان في القصر، وكيف يراه البعض، وقد اختفى فجأة، قبل أن ظهر في مكان آخر بغتة!

لم يكن بحاجة لتلك النصيحة في الواقع، ففي أعماقه، كان يشعر بالرهبة والخوف من ذلك الرجل، الذي لم يره عن قُربٍ من قبل. تخيفه عين الرجل النافذة السوداء، كقلب قبر قديم، وتثير تلك البسمة الساخرة التي لا تفارق وجهه، الكثير من التوتر في نفسه، لم يكن أبو القاسم الجرجاني مَن يخاف رجلاً مهما كان، لكن هذا الرجل كان يخيفه بحق، لهذا تمنى حين رآه للمرة الأولى، أن يقتله، الرجل الذكي لا يدع رجلا يخشاه ويهابه حيا، لأنه سيشعره طوال الوقت بضعفه وخوفه، ولقد أقسم منذ عقود، ألا يعرف الخوف سبيلا إلى قلبه. لقد طالبته ست الملك بقتله، وهو للمرة الأولى في حياته يفعلها لأنه يريد هذا من كل أعماقه، وليس من أجل الدنانير التي ستغرقه بها ست الملك.

لن يقتله بغتة مثلما يفعل عادةً، بل قرر أن يحتال في هذا، لقد أوعز إلى الجارية المكلفة بخدمة ذلك الرجل المخيف، بأن تدس له السم في شرابه وطعامه، وجلب لها بنفسه سِمٌ، لا لون له أورائحه. سِمٌ قوي يقتل الفيل نفسه في ثوان معدودة، ولا ترياق معروف له. سوف ينتظر حتى يقوم السم بعمله، ثم يدخل ليكمل سيفه ما بدأه السم.

سارع بالاختباء، حين تعالي وقع أقدام الخليفة، والشيخ الأسود، قادماً من القبو، ثم كتم أنفاسه حين دنت الخطوات منه، لم يتحدث الخليفة، ولا رفيقه، والغريب أنه لا وجود لذلك الحارس، الذي دخل السراديب معهما في المرة الأولى. انتظر للحظات حتى اطمأن أنهما قد ابتعدا عن مكانه، ثم أطل برأسه، لتطالعه من بعيد عين سوداء، قادمة من منابع الظلام نفسه، وهي ترمقه في غضب. كان الشيخ الأسود مازال يتبع الخليفة، لكن رأسه كانت تنظر للخلف في تلك اللحظة، وعينه تنظر لمكانه حيث يختفي. أعاد رأسه لمكانها بسرعة، وبلا جدوى،



حاول أن يسيطر على قلبه كي يهدأ. ما هذا الرجل الملعون؟! وأي قوى ملعونة يمتلكها هذا الرجل، وكيف علم بمكانه؟

هل يقرأ ذلك الرجل الأفكار، أم تخبره الشياطين بما يدور من حوله؟

فكر للحظة في أن يغادر القصر، بل ومصر كلها، ويهرب بعيدا عن مكان هذا الرجل، لكنه في اللحظة التالية، طرد تلك الفكرة، وعاد إليه تصميمه على قتله. لن يهرب ليظل طوال عمره خائف، مذعور وجبان. سوف يقتله ولو كلفه هذا حياته .

انتظر حتى اختفيا ثم اسرع يتبعهما. كان يدرك أن الوقت قد تأخر، وقد نام أغلب سكان القصر، وأن الشيخ الأسود لا بُد وأنه مُتجه إلى حجرته الأن.

تساءل في قلق، هل تقوم الجارية التي كلفها بدس السم بعملها؟

تحرك بلا صوت كقط حذر، حتى اقترب من حجرة الشيخ الأسود. ظهرت الجارية من بعيد، وهي تحمل صفحةً من النحاس بها الطعام وأكواب الشراب، ثم دخلت حجرة الشيخ الأسود، وأغلقت الباب خلفها. ظل في مكانه مختبأ، في انتظار أن تخرج الجارية، لكنها لم تفعل. عاوده التوتر، وهو يفكر، لماذا غابت كل هذا الوقت بالداخل؟ وحين مضى وقت طويل وهو ينتظر خروجها من الحجرة بلا جدوى، قرر أن يفارق حذره، وأن يدخل الحجرة ليعلم ما حدث للجارية.

كانت الشكوك تطارده، هل خانته الجارية، وأقامت علاقةً ما مع الشيخ الأسود، وصارت من محظياته، أم أن ذلك الرجل الداهية، قد كشف مكيدتهما وأوقع بها. اقترب من الحجرة، وألصق أذنه بالباب، وانتظر أن يسمع شيئا، لكن الصمت التام كان حاضراً. هل تناول الشيخ الأسود الطعام، والشراب المسموم



مثلا فلقى حتفه؟ وهل أخبر الجارية على تناول الطعام المسموم معه، فماتت هي الأخرى؟ كان احتمالاً قائماً، لكنه ظلّ بحاجةٍ لدليلٍ عليه.

ورغم كل الخوف في نفسه، إلا أنه مد يده وفتح الباب بحذر، ثم دفع رأسه للداخل.

كان الظلام حاضرا. انتظر للحظة حتى اعتادت عيناه الظلام، ثم راح يمسح جوانب الحجرة التي كانت خالية. راح قلبه يدق، وهو يتساءل، أين ذهب الرجل والجارية؟

دلف الحجرة بحذر، وتقدم، وهو ينتظر أن يظهر الرجل أمامه فجأة. سيكون في ورطة حقيقية حينها. كتم أنفاسه، واتجه إلى الطاولة الموضوع فوقها الطعام والشراب، ورفع كأس الشراب فوجوده ممتلئ لأخره. إذاً لم يشربه الرجل! تحرك وقد شهر خنجره، في تحفزٍ، نحو الفراش، لكنه وما أن بلغه، حتى ادرك أن الشيخ الأسود ليس فوقه. نظر حوله في الظلام في توتر، قبل أن يأتي الصوت من خلفه بغتة قائلا في سخرية:

" -هل تبحث عني؟! "

توقف قلبه للحظة من الرعب، وأسرع يستدير، ليقابله الوجه القاسي، والعينان اللتان تلمعان رغم الظلام، والابتسامة الساخرة الوحشية لذلك الرجل المدعو بالشيخ الأسود. فرقع الرجل بأنامله، فاشتعلت شموع الحجرة مرة واحدة، وكأنما أوقدتها أشباح خفية. ثم تقدم الشيخ الأسود نحوه، فتراجع أبو القاسم الجرجاني، رغم أنه من يحمل السلاح. كان مذعورا خائفا، كما لم يشعر من قبل، وبينما راحت عينا الشيخ الأسود تتسعان، راح يدور هو بعينيه بحثا عن الجارية، فقال الشيخ الأسود:

" -أشعر أنك تبحث عن جاريتك التي تآمرت معها؟ إنها هناك، انظر ! "



قالها وأشار بإصبعه نحو السقف، فرفع أبو القاسم رأسه لأعلى، لتجحظ عيناه من الرعب. كانت الجارية هناك معلقة في السقف بلا حبال او سلاسل أو قيود، وقد راحت عشرات الثعابين السوداء تلتف حول جسدها، وتنهمش لحمها بأنيابها، والجارية مازالت حية، تتلوى في ألم رهيب بلا صوت، وكأنما فقدت حنجرتها ولسانها.

كانت عيناها منزوعةً، وقد خَلفت وراها فجوتان داميتان. تعلقت عينا أبو القاسم بها لبعض الوقت في رعب، وحين أبعد نظره عنها، كان الشيخ الأسود أمامه تماماً، وقد أحاط ذراعيه بأنامله ذات الاظفار الطويلة، ثم بدأ الألم الرهيب وابتسامة الرجل تتسع!

(13)

كان السؤال الذي لا يكف عقله عن طرحه، إلى متى الصمت؟

في النهاية لم يقدر على كتمان ضيقه، واحتجاجه، فاتجه إلى العجوز في مغارته. كانت الأبخرة تغمر المغارة كالعادة، واستقبلته رائحة أعشاب لا يعرف كنهها، وإن كانت قريبة من القرفة، مازال العجوز رغم عمره الذي بلغ المائة عام، يمارس عمله بنشاط في تحضير العقاقير والمواد الغريبة، التي يستعملها في سحره. توقف أمام الشيخ محفوظ الجالس أمام طاولة وهو يحمل قارورة زجاجية يتصاعد من فوهتها بخار أزرق، بينما راح يصب عليها بحرص بضع قطرات من سائل شفاف من أنبوب زجاجي صغير، ليزداد البخار الأزرق كثافة .

عقد الشاب ذراعيه أمام صدره، وقال :

"-ماذا تفعل؟ "



ابتسم العجوز فتغضن وجهه، وهو يجيب دون أن يلتفت :

"-ما أفعله طوال الوقت منذ أعوام، دون أن أفلح، أبحث عن اكسير الشباب "

"-وهل مازلت تؤمن أن شيئا كهذا يمكن صنعها، إنه وهم تفني فيه ما بقي من عمرك! "

"-ربما تراه وهماً، وربما يؤمن غيرك بهذا، لكن علوم الأقدمين تحدثت عنه، وألمحت لوجوده!"

ثم صب نقطة أخيرة من السائل الذي في أنبوبه، فتوقف انهمار البخار الأزرق فأعاد الانبوب لحامله، واستدار نحو الشاب، واستطرد :

"-لكنك لم تأتي لتسألني عن تجاربي وأبحاثي التي لا تكترث بها، أليس كذلك يا نجم الدين؟ "

"-الشيخ الأسود وقد ظهر، والحاكم بأمر الله قد أصابه الخبال، وأعلن الوهيته. فلماذا ننتظر؟ "

"-وماذا تقترح أن نفعل؟ هل تريد أن نذهب اليهم ونقاتلهم؟"

صرخ نجم الدين وهو يضرب إحدى المناضد الخشبية، بكفه لتهتز الدوارق والأنابيب فوقها :

"-هذا خير من أن نمكث في مكاننا، ولا نفعل شيئا! "

نهض الشيخ محفوظ، واتجه إلى ركن من مكتبته، به الكثير من لفائف البردي والمخطوطات والكتب الضخمة ذات الأوراق المصفرة، وسحب لفافة من الجلد، وضعها فوق الطاولة الخشبية، بعد أن فتحها، وأجاب:



-" هل تعلم كيف مات أبوك؟ "

"-تلك حكاية لا تمل من ترديدها على أذني "

تأمل العجوز النقوش الغير مفهومة بتلك اللغة القديمة في اللفافة، وقال :

"-ولن أمل حتى تتعلم، لقد كان مثلك تماما، نفس الشاب القوى الثائر العجول الذي لا يعرف فضيلة الصبر!"

ثم التفت الي نجم الدين، وغمغم :

"-حين أنظر إليك، أشعر أنني أمامه، وأحدثك فأتذكره وهو واقف، في نفس مكانك، وكأن الامر حدث البارحة وليس منذ ثلاثين عاما "

ثم ترقرقت الدموع في عينيه، فطوى لفافته، وجلس على مقعد بجواره، وأغمض عينيه، وسبح عقله نحو الماضي البعيد، وهو يتذكر :

"-لم يستمع إلى حين طالبته بالصبر، وتغلبت على عقله فكرة حمقاء، أراد حينها أن يقتل الشيخ الأسود، وقد ظن أن بقتله تنتهى اسطورة السبعة. المشكلة أنه رفض تصديقي حين أخبرته أن السيف ليس السلاح المناسب لقتل هذا الشيطان حتى لو أُتيحت له الفرصة لهذا، انضم حينها لصفوف القرامطة حين علم أن العزيز بالله قد خرج بنفسه فوق جيشه، لقتالهم، وأن الشيخ الأسود برفقته، كان يتخذ وقتها شخصية أخرى غير مفرج بن دغل الموجود الأن، وهناك قرر أن يتحين الفرصة، ويباغته بسهم مسموم "

صمت العجوز بعدها للحظة وقد تسارعت أنفاسه، ثم واصل سرد ذكرياته:

" -يقولون أنه ظل يقاتل في شجاعة حتى اقترب من الشيخ الأسود، وبلا تردد أصابه بسهامه، ثم انطلق نحوه بعد أن سقط من فوق فرسه ليجهز عليه بسيفه، لا أدرى حقاً هل كان ممكناً وقتها الشيخ الأسود بتلك الطريقة أم لا؟



لكن الأمر لم ينتهي لسوء حظه كما خطط، لقد انتبه إليه الحسين بن جوهر الصقلي، وكان حينها مجرد فارس صغير، وظن أن أباك يهاجم الخليفة فاندفع نحوه، وأصابه بسيفه في ذراعه، وكانت تلك الفرصة الذهبية التي استغلها الشيخ الأسود، وبعدها اختفى جثمان أبيك في أحد مخابئنا وقد عذبه الشيخ الأسود بوحشية قبل أن يقتله"

هتف نجم الدين في سخط :

"-والأن تصادق من ساعد الشيخ الملعون في قتله؟! صار القائد حسين بن جوهر الصقلي صديقك، وأنت تعلم أنه قاتل أبي، الذي هو ابنك! "

ازداد انهمار الدموع من عيني العجوز، وكأنما آلمته الذكرى، ومسح انفه بمنديل، وقال :

"-كان يدافع عن خليفته يا نجم الدين، كان يقوم بواجبه في حماية الخليفة، ولم يكن يعرف أباك، لم يكن الذنب ذنبه "

"-حتى لو لم يكن مخطئا فلم يكن عليك أن تستقبله، وأن تطلعه على أسرارنا ومكاننا، ألا تخشى أن يخبر الحاكم بأمر الله عنا "

"-إنه لن يفعل، اطمئن"

"-وما الذي قد يمنعه، لقد قتل أبي من أجل العزيز بالله، لأنه كان يخدمه، وها هو الآن يخدم الحاكم بأمر بالله، فما الذي تبدل ليغير ولاءه نحونا؟ "

"-ستعرف يوما ما، فقط ثق في جدك العجوز، ولا تتعجل"

ثم اتكأ على ذراع الشاب وتحرك به نحو مدخل المغارة المطل على بعض قمم الجبال العالية، كان المكان يحوي عشرات الأكواخ والبيوت الحجرية الصغيرة . وأكمل الشيخ محفوظ، وهو يشير للمكان :



"-يا بني، مَن تَراهم أمامك هنا، هم رجالٌ يفنون عمرهم من أجل رسالة عظيمة لا يدرك عنها باقي البشر شيئا، إنهم المختارون، وكل منهم يدرك واجبه، وما ينتظره من أهوال لو فشل. لكن الدرس الأول الذي تعلموه هو الصبر، وربما مضت الأعوام الكثيرة والعقود، دون أن نفعل شيئا سوى الاستعداد في الظل، حتى يظهر أحد اعوان الشر، فيأتي دورنا، هل فهمت؟ عملنا الأول هو الاستعداد والصبر"

ما يقوله الشيخ محفوظ غير جديد، وطالما سمعه، إن تلك الجماعة السرية الصغيرة، التي يترأسها جده منذ عشرات السنين، هي لمحاربة الكائنات القديمة وأنصار الشر القديم من الشياطين وغيرهم، بل إن اتقان جده لفنون السحر الأسود، إنما كان لمحاربة الشر بنفس سلاحه الذي لا يُقهر، السحر القديم!

وبعد موت أبوه قام جده بتربيته، واعداده ليخلفه في قيادة تلك الجماعة التي تعود أصولها لأكثر من الف عام، كما يزعم الجد. لكنه ومع إيمانه بتلك الرسالة السامية الغامضة، التي يقومون بها، لم يقبل أن يتعلم فنون السحر الأسود، كما حاول العجوز مرارا.

فرغم كل المبررات التي صاغها جده، لإقناعه بأهمية هذا الامر، إلا أنه رفض هذا، إن ممارسة تلك الفنون السوداء، تقتضى الاستعانة بالشياطين انفسهم، وهو لا يفهم كيف نحارب الشياطين، ونستعين بهم في الوقت نفسه؟ لقد اتجه جده وبعد أن يأس منه، إلى عمر، صديقه، الذي تربى معه هنا، وراح يلقنه فنون السحر، ولقد أبلى صديقه بلاء عظيما في استيعاب تلك الفنون، لكنه لم يشغل باله بالسؤال المهم بعدها، هل كان هذا يعني أن تنتقل قيادة الجماعة إلى عمر، من بعد جده، وقد تسلح بعلوم الرجل العجوز وسحره؟



طقطقت الشعلة داخل المغارة، فاستدار العجوز في اهتمام، وأسرع نحو ناره، يتبعه نجم الدين، تأمل الجمرات المشتعلة بعينين متوترتين، ثم قال لنجم الدين بسرعة:

"-ستذهب الي القرافة الآن، وخذ معك عمرو بعض الرجال، هناك شاب عليك إنقاذه"

هتف نجم الدين في دهشة :

"-وشياطين القرافة والشيخ الأسود، ألم تمنعنا من الذهاب إلى هناك بسببهم؟"

"-يعرف عمر كيف يتعامل معهم، فقط استمع إليه، وتحرك بلا إبطاء، حياة الشاب في خطر!"

"-ومن يكون هذا الشاب، وكيف أعرفه؟ "

اقترب العجوز بوجهه من النار فاندفعت ألسنة من النار نحو وجهه، فلم يبتعد، وبعد لحظة تصاعد بخار كثيف غطى وجهه ممزوج برائحة شياط لحم بشري قوية، وحين ابتعد برأسه عن النار، كان وجهه قد ذهب، وحل مكانه وجه آخر،

وجه حسام الدين!

وقال الشيخ وهو يشير للوجه الجديد الذي صار يحمله :

"-انه هذا "!



(14)

للحظات بدا وكأن الزمن قد توقف، أنفاسه خمدت، الهواء تجمد، حتى الأصوات الغامضة القادمة من ظلام القرافة اختفت، فقط راح حسام الدين يرمق تلك الحسناء المرعبة، القادمة من زمن الطفولة ليلقاها في قلب القرافة ثانية. كانت ترمقه بثبات، وهو ينظر اليها ويجاهد نفسه، كي لا يفقد الوعي، في المرة الأولى هرب من أمامها وجرى مبتعدا، لكن الرعب شل قدمه هذه المرة فلم يقدر على التحرك. هبط بعينيه نحو قدميها فرأى أن قدميها مازالت كالدخان. إنه لم يكن يهذي إذاً في ما رآه أول مرة. إنها غير بشرية بلا شك! ازداد هياج قلبه في صدره، واندفعت الدماء في أذنيه، فشعر بالدوار. ما الخطوة التالية؟ هل ستقتله الآن، أم ستختطفه لباطن الأرض وتحبسه هناك، أو تتزوجه، كما تفعل الجنيات؟!

مضى بعض الوقت قبل أن ترفع ذراعها وتشير بسبابتها البيضاء الطويلة نحو السماء، وبحذر رفع حسام الدين رأسه حيث تشير، كانت الغيوم السوداء تحتشد في صفحة السماء المظلمة، عاد ببصره إلى الفتاة فوجدها تشير نحو الشرق هذه المرة بإصبعها. تحول ببصره حيث تشير، فرأى أشباحاً تتحرك بين شواهد القبور المظلمة. عاد برأسه نحو الفتاة لكنها لم تكن هناك، لقد اختفت !

دار بعينيه في المكان بسرعة، وهو يبحث عنها، فلم يجدها. هل تختبأ منه أم انها قد ذهبت؟ أم هل تحاول اثارة ذعره؟ لماذا أشارت نحو السماء، وما تلك الأشياء التي تحدث هناك في ظلام المقابر؟

انتظر للحظات حتى يهدأ قلبه ويتماسك، ثم قرر رغم خوفه، أن يذهب حيث أشارت الفتاة. تحرك بحذر بين شواهد القبور، وقد أحنى ظهره محاولا ألا



يصدر أدني صوت. وظل طوال الوقت ينظر حوله في تحفز، وهو يتوقع أن يظهر عفريت، أو شيطان من خلف أحد الشواهد فجأة، أو تنشق الأرض أسفل قدميه، ثم تخرج منها وحوش وأذرع من العظام تجذبه إلى باطن الأرض، أو تُخرِج القبور ما بها من موتى، ليطاردوه !

يا للرعب الذي يشعر به في تلك اللحظة!

كان قلبه فتياً قوياً، ولولا هذا لتوقف قبل زمن من الفزع. دار حول جذع شجرة ضخمٍ، وشق طريقه بين شاهدي قبرين متجاورين، واقتربت الأصوات الغامضة، ثم ظهر الشبح الأول فاختبأ في مكانه .

كان أحد حفاري القبور الذين قطعت ألسنتهم، في أحداث القرافة القديمة. تبعه حسام الدين بحذر، ثم توارى خلف أحد الأشجار الضخمة، حين بدأ الحفار في ضرب الأرض بفأسه أمام أحد القبور. راقبه حسام الدين وهو يتساءل، ما الذي يفعله، ولماذا يقوم بنبش ذلك القبر؟ هل يفكر في سرقة كفن الميت داخله، كما يفعل البعض، أم أن غرضه أكثر خبثا؟

مضى بعض الوقت، واتسعت الفتحة التي يقوم الحفار بحفرها، ثم أزاح التراب المكوم جوار القبر بعيدا وهبط القبر، اختفى داخله لبعض الوقت، وفكر حسام في يقترب أكثر، ليرى ما الذي يقوم به، لكنه ما كاد يتحرك، حتى برز الجثمان المُغطى بكفن أبيض، وقد رفعه الحفار الي خارج القبر. تراجع حسام الدين بسرعة، ورأى الحفار وهو يحمل الجثمان فوق كتفه، ويبتعد نحو ظلام المقابر. لم يكن أمامه الا أن يتبعه، لو شاء أن يعلم، ما الذي ينوى فعله بهذا الجثمان .

ارتفعت الأصوات المبهمة القادمة من قلب الظلام، أصوات غير بشرية بلا شك. أصوات تثير الفزع في أشجع القلوب. كان هذا وقت التراجع، لو شاء حسام



الدين السلامة. لكن الفضول في نفسه، كان عاتياً، ووجد حسام الدين نفسه يخترق الظلام، خلف حفار القبور الذي يحمل الجسد الميت. ازداد الظلام كثافة، ثم بدأت بعض الاشباح في الظهور في منتصف القرافة تماما، وفي السماء بدأت دوامة عاصفة في التشكل، ثم هوت نحو القبور تضربها بعنف، قبل أن تومض السماء فجأة وقد شقها لسان من اللهب، قبل أن يدوى هزيم الرعد.

وعلى الضوء الذي أشعل الفضاء للحظة، ظهر لعين حسام كل شيء. كان هناك ثلاث أشباح ضخمة ترتدي عباءات سوداء، تغطي أجسادها بالكامل وقد التفتوا في شبه دائرة، حول ثلاثة جثامين، أحضرها حفارو القبور من قلب المقابر، بينما وقف ثلاثة من حفارو القبور، أمام الحشد الغريب في جمود وسكون غريب. ارتجف حسام الدين، وقلبه يحدثه أن هؤلاء الأشباح لا ينتمون لعالمنا. شيء ما في أجسادهم الضخمة التي تناهز المترين طولاً، ووجوههم المتوارية في الظلام، داخل العباءات السوداء الضخمة التي يرتدوها، كان شيطانيً

عاد البرق العجيب ليسطع مرة أخرى، وعلى ضوئه شاهد كيف رقدت الجثث الثلاث وقد تلاقت رؤوسها، بينما اتجهت أقدام كل واحد منها للخارج، في اتجاه مخالف للآخرين. حبس حسام الدين أنفاسه، وهو ينتظر ما سوف يحدث؟ هل هؤلاء قومٌ من الغيلان الذين يقتاتون على جثث الموتى؟ بدأ المطر في الهطول بغتة بغزارة كبيرة، في نفس الوقت الذي رفعت فيه الأشباح السوداء أذرعها لأعلى ومن فمها خرج صوت غريب، يردد تعاويذ مخيفة:

" من قلب الموت ندعوك لتاتي أيها السائر في الظلام"



" حطم قيودك، واشعل لهبك، واتبع النداء نحو رفاقك الذين سبقوك الي ذلك العالم البعيد التعيس"

" استمع لصوت الأرواح القديمة، وشق طريقك لتحتل وأحداً من تلك الأجساد العفنة"

" انها هشة، لكن روحك القوية ستجعلها منيعة. انها فانية لكن روحك الأبدية ستمنحها البقاء، انها لا تنتمي اليك لكنك قادر على ارتداء أي لباس"

راحت السنة اللهب تتراقص في السماء بين الغيوم، وراحت العاصفة تعوي في الفضاء ثم راحت تضرب القرافة كلها في دوامات عظيمة، وازداد المطر انهماراً. بدا وكأن العالم كله في تلك اللحظة أسير تلك التعاويذ القديمة، التي ترددها تلك الكائنات الشيطانية. بينما انكمش حسام في مكانه، وهو يخشى أن يكتشف أحد هؤلاء الشياطين مكانه، بينما واصلت الكائنات ترديد التعويذة:

.. "حطم القيود واشعل اللهب واتبع قلبك نحو رفاقك الذين سبقوك الي ذلك العالم البعيد التعيس!"

فهوت صاعقة من نار، نحو جسد أحد الموتى، فاشتعلت فيه النيران.

"أستمع لصوت الأرواح القديمة، وشق طريقك في الظلام، لتحتل واحدا من تلك الأجساد"

هوت الصاعقة الثانية، نحو الجسد الميت الثاني، فاشتعلت النيران فيه هو الآخر .

"أنها هشة لكن روحك القوية ستجعلها منيعة"

ثم برز لسان ثالث من لهب، ليضرب الجثمان الأخير ليلتهب بالنار.

" انها فانية لكن روحك الأبدية ستمنحها البقاء"



تأججت النيران المشتعلة في الأجساد، ومن قلبها ارتفعت الصرخات، وكأن هناك من يُشوى حياً داخلها، رغم أن من يحترق الآن، أجساداً فارقتها الحياة بالفعل .

"أنها لا تنتمي اليك لكنك قادر على ارتداء أي لباس"

ثم دبت الحركة في الأجساد التي تأكلها النار، وأمام عيني حسام الجاحظتين في رعب نهضت الجثث المشتعلة، ووقفت ثم رفعت أكفها الملتهبة نحو السماء وخرج منها الصوت للمرة الأولى وهي تردد مع باقي الشياطين الاخرين:

" نحن هنا في انتظارك منذ البدء فأت ولا تتأخر"

وصارت الأمطار سيولا والعاصفة، اعصارا في المكان. وبالكاد حافظ حسام الدين على نفسه، كي لا تقتلعه من مكانه. ورغم هذا لم تهتز تلك الكائنات التي صارت ستةً الأن، قيد أنملة، بدا، وكأن الأمطار كلها مصوبة نحو الأجساد المشتعلة، وبعد لحظات نجحت مع الهواء العاصف، في إطفاء النيران. وحين تألقت السماء مرة أخيرة بالبرق، رأى حسام الدين أن الجثث الثلاث، قد تضخمت اجسادها واستطالت، وقد اكتست بنفس الرداء الأسود الذي ترتديه الكائنات الثلاث الاولى. ثم بدأت تلك الكائنات الجديدة في النظر حولها في حيرة للحظة، وكأنما تتعرف على المكان، قبل أن تتوقف رؤوسها الثلاث، وهي تنظر حيث يختبأ حسام الدين. هنا أطلقت الأشباح الثلاث صرخة مريعة، كادت تذهب بسمع حسام الدين. ثم رآها، وهي ترفع أناملها، وتشير إلى مكانه.

أدرك حسام الدين على الفور، أن أمره قد انكشف، وفي اللحظة التالية كان قد اتخذ قراره. قفز من مكانه و شرع في الهرب. ورغم الظلام الدامس والهواء العاصف، والمطر الذي يضرب جسده، فقد كان يعرف وجهته. كان يتجه نحو خارج المقابر. تناهى لسمعه الصرخات المفزعة. التي تشي بأن هؤلاء الشياطين



يلاحقونه. كان حسام الدين سريعا، وطالما تفوق على أقرانه في كل سباق، لكنه شعر أن هذا غير كافٍ، ليسبق هؤلاء الملاعين. شعر بأنهم يقتربون منه في كل لحظة، وعلم أن وقوعه بين أيديهم مسألة وقتٍ، لا أكثر. هل سيقتلونه ويحولونه لواحد منهم، أم تراهم يطعمون الرفاق الجدد بلحم جسده؟

كان بحاجة لمعجزة لينجو، وفي سره هتف :

"-أغثني يا الله !"

ثم سمع صوت حوافر خيول، قادمة من الظلام من أمامه. ازداد اضطراباً، وتوقع أن يكون القادم تابعا لهؤلاء الشياطين، وأنهم في طريقهم لتطويقه ومحاصرته. ظل يعدو، وهو يفكر، هل يغير طريقه ويتجه للشمال مثلاً؟ لكنه كان يدرك أن الناحية الشمالية من المقابر، تطل على الصحراء والعراء، حيث لا مخبأ له حينها من تلك الشياطين. كان القرار الوحيد المتاح له، أن يواصل الهرب في نفس طريقه. انطلقت صرخة جديدة، لكنها بدت هذه المرة، وكأنها بجواره تماماً، حتى أن طنينا قويا ضرب اذنه، فأصمها. وبطرف عينيه لمح تلك الأنامل السوداء التي تمتد نحوه من الجانبين، وتحاول القبض عليه.

زاده الهلع قوة، فازدادت سرعته، ثم ظهرت الخيول الثلاث التي صهلت بقوة، أمام الكائنات الضخمة، وقد شهر فرسانها الثلاث سيوفهم، وسمع حسام الدين صوتاً، يقول وهو يتجه نحوه:

- " اقفز إلى ظهر فرسي، أيها الأحمق "

ودون تردد أو تفكير قفز، فتلقفته كف قوية، ورفعته بسهولة ليعتلي الفرس، الذي قفز فوق أحد الاشباح، فتجاوزه. لكن الفارس شد اللجام وأجبر فرسه على الالتفاف ثانية، بينما اندفعت أجساد الكيانات الشيطانية نحوه محاولة محاصرته وهي تطلق صرخات، نجحت في اثارة فزع الفرس فصهل وهو



يحاول الهرب بعيداً . دار الفارس بسيفه في وجوههم، محاولا الدفاع عن نفسه، لكن الكائنات الستة ،المتشحة بالسواد، كانوا في كل مكان حوله، دون أن يمنحوه أي فرصة للهرب، فغمغم حسام الدين في توتر :

"-ماذا سنفعل الآن. لقد حاصرونا؟ "!

لكن الفارس الغامض أجابه متهكما، وهو يرمقهم في حذر :

"-سنقاتل بالطبع! ألديك اقتراح آخر؟ "!

وفي اللحظة التالية، سقطت قارورة زجاجية بينهم، فاندفع منها دخان ذو رائحة نفاذة، وسمع حسام الدين صوتا، يصرخ من خلف تلك الكائنات :

"-هيا تحرك بسرعة، يا نجم الدين "

رأى نجم الدين كيف تراجعت تلك الكائنات المخيفة، أمام الدخان الكثيف ذو الرائحة النفاذة الخانقة، ودون ابطاء ضرب بطن الحصان بقدمه، فاندفع الحصان مخترقا الدخان ليحلق برفيقيه.

انطلقت الخيول الثلاث مبتعدة، وقال نجم الدين، للفارس الذي عن يمينه :

"-ماذا اطلقت عليهم ؟"

"-انها تعويذة ستعطلهم لوقت ما، لكنها تزول بسرعة "

ثم تناهى صوت خيول لها صهيل غريب من قلب القرافة، فقال عمر في عجلة:

"-والأن، دعونا نرحل عن هذا المكان، لقد استدعوا خيولهم، ولو أدركونا فلا أمل لدينا في النجاة ! "



ثم راحت الخيول الثلاث، تنهب الأرض عدواً، وصهيل الخيول من خلفها يقترب .

(15)

انتهى الحاكم بأمر الله من وطء الجارية الخامسة، ولم ينتصف الليل بعد. العجيب أنه لم يشعربالتعب، ولا الإعياء بعد انتهائه من إتيان خمسٍ من جواريه في نصف ليلة فقط، بل ومازال يشعر بقدرته على مضاجعة المزيد. لكن الأكثر غرابة، أنه صاريقوم بالمضاجعة بصورة آليه. غابت النشوة والمتعة التي كان يشعربها قبل اليوم، مع كل علاقةٍ يقيمها، مع واحدة من محظياته أو جواريه.

قبل اليوم ، كان من المستحيل أن ينجح في إقامة علاقة جنسية مع امرأة، لليلتين متتابعتين، بل وكثيرا ما كان يفشل في إقامة تلك العلاقة لنحو أسبوع كامل، حتى أنه قد امتنع منذ زمن، عن طلب الجواري لفراشه، واكتفى ب(وعد) .

العجيب أن ذكراها راودته في تلك اللحظة، دون أن يشعر بالأسف، لأنه قد ذبحها قبل يوم، بلا سببٍ أو ذنب اقترفته، ألم يكن ما يحسه معها هو الحب؟ ألم تكن هي المرأة، التي أشعلت في قلبه الشغف بالنساء، بعد أن امتنعت عنه محبوبته الأولى والوحيدة، وقد قررت هجره؟

ألم تكن علاجه، حين بدأ عجزه الجنسي يظهر ، وراح يفشل في وطء الجواري؟ ألم تعلمه من فنون الحب ما كان عجيبا وطريفا ومثيرا؟ هل كان ما يحسه نحوها وهما أفاق منه، حين ارتشف روحها ودمائها؟ أم أن نعمته



الجديدة والوهيته قد أفقدته أي إحساس دنيوي، وصار أعظم من أن يهوى ويحب امرأة من البشر؟

استلقت الجارية الرومية بجواره في انهاك، ممزوج برضا لا شك فيه، وربما كانت تحدث نفسها في عجب، من تلك الفحولة والقدرة المفاجئة، التي اصابت الخليفة. فاستمتع بها طويلا، وامتعها، بعد أن انتهى من أربع جواري غيرها قبلها، رغم الهمسات الخافتة التي تتناقلها الجواري والخصيان عن عجزه وعلته. أفاقت على إشارة الخليفة وهو يشير لها بجلب الماء. أسرعت عارية إلى اناء من الفضة، وصبت الماء في كوب فضي آخر، ودفعته للخليفة الذي التقطه بأطراف أصابعه، وشرب، ثم أعاد لها الكوب، وهويشيرلها بالانصراف، فغادرت الحجرة بلا ابطاء .

نهض الخليفة، واتجه الي النافذة المطلة على المدينة النائمة أسفل قصره، وراح يتذكر تلك الأيام التي فقد فيها القدرة تماما على إقامة الجنس، كان قد اعتزل زوجته منذ زمن، ولم يعد يهتم بالذهاب اليها، أو مضاجعتها، وكان أكثر ما أراحه أنها لم تتذمر، أو تحتج، وكأنما كان ما حدث، هو رغبة مشتركة بينهما، جرب الجواري المصريات والمغربيات والشاميات والفارسيات والتركيات والروميات، فلم تفلح أيهن في اشعال ناره. شعر في ذلك الوقت، أنه قد فقد مع عجزه، رجولته وهيبته، فراح يسرف في ذبح من يعارضه، ليكتشف أنه مع كل رأس يقطعها، تعود اليه قدرته المسلوبة، فينجح في مواقعة احدى محظياته في ذلك اليوم. أسرف في القتل والذبح والسلخ والصلب، واستمتع لحين بعودة قدرته، قبل أن يعاوده العجز ثانية، فلا يعود للذبح أو القتل، أي تأثير في نفسه .

ثم اكتشف بالمصادفة، أن قدرته تعود حين يواقع جارية، ويعذبها اثناء النوم معها، صارت صرخات الألم التي تطلقها الجواري، محفزاً قوياً لقدرته الجنسية، فصار يضربهن، ويقيدهن للفراش، ويجلدهن بالسياط، قبل أن يبدأ



في بتر أطرافهم بخنجره لتنهمر الدماء على فراشه. في تلك اللحظة كانت رغبته الجنسية تبلغ أوجها ويصير قادرا على الاستمتاع بهن، حتى لو كن موتى أسفل منه. تذكر في ذلك الوقت الحكايات العربية القديمة، عن ذلك الملك العربي القديم، والملقب بشهريار، والذي كان يذبح جارية في كل ليلة بعد أن يفقدها عذريتها، هل كان يعاني عجزا جنسيا مثله، وهل وجد الشفاء في تعذيب الجواري وقتلهن كل ليلة، ليوقد رغبته ؟

لكن ذلك العلاج الجديد انتهى مفعوله بعد حي، ولم يعد يشعر بأي إثارة أو شغف حين يعذب جارية، أو يريق دمائها على فراشه، رغم كل من قتلهن. طلب العطارين والحكماء والأطباء والسحرة، وسأل الجميع العلاج، فلم ينجح أحد في علاجه، اعتقد أن الأمر لا علاج منه، حتى لقى الشيخ الأسود، الذي اخبره بأمر الوهيته، وكالسحر استعاد بفضله، كل قدراته السابقة، مع ما اكتسبه من قدرات. وكانت قدرته الجنسية أول ما استعاده .

لكن العجيب هو انه لم يعد يشعر بالمتعة، بعد كل مرة يمارس الحب فيها، ولا يحس بعدها بالاكتفاء والشبع، بل يظل نهما ليطلب المزيد من الجواري، دون أن يرتوى من أجسادهن أو يشبع. كان أمرا سخيفاً، فما جدوى كل تلك الاثارة والشبق والرغبة، طالما لا يأتي الشبع بعد هذا؟!

كان يفكر في طلب جارية أخرى، قبل ان تبرز اسم محبوبته في عقله، لتراوده رغبةٍ عنيفةٍ لا رد لها. لماذا لا يذهب إلى حجرة محبوبته، ولماذا لا يجرب النوم معها، بعد كل السنوات التي لم يقربها فيها؟ اتجه إلى حجرتها، فقابلته بدهشة، وقد رأت الرغبة في عينيه تشتعل، حاولت أن تدفعه وتبعده عنها، لكنه دفعها بعنف نحو الفراش، وبقوة لا قبل لها، واقعها رغما عنها. العجيب أنه شعر هذه المرة بالارتواء والشبع، راحت ترمقه بدهشة، وهى ترى أنها غير صادقة تماما في



رفضه، وأن هناك امرأة أخرى داخلها مازالت تشتهى هذا الرجل وتحبه ولا تنفر منه .

ارتدى الحاكم عبائه وغادر حجرتها بلا كلام. وأمام حجرته وجد الشيخ الأسود ينتظر، وفي عينيه وشفتيه ابتسامته الساخرة المتهكمة، تبددت بعض النشوة التي كانت تغمره، وقال له بدهشة :

"-لماذا تقف أمام بابي في تلك الساعة يا مفرج بن دغل الحراج، هل هناك جديد؟ "

"-مازال هناك من يَكِيدُ لمولاي في هذا القصر، بل ويفكر في القضاء عليه! "

انتبه الحاكم بأمر الله في تلك اللحظة، إلى أبو القاسم الجرجاني الذي وقف مترنحاً كالثَمِل، بين قبضة حارسين من حراس القصر، وعيناه تغربان لأعلى، فغمغم بدهشةٍ :

"-أليس هذا خادم ست الملك؟ وماذا يفعل هنا؟"

هز الشيخ الأسود كتفيه، وأجاب:

" -لن تصدق ما لم تسمع بأذنك، فهل يأذن مولاي في أن نعود ثانية الي حجرة القبو هذه الليلة "

-"هل ترغب في استجوابه، كما فعلت مع القاضي؟ "

اتسعت ابتسامة الشيخ الأسود، ومال نحو أذن الخليفة، وهمس في غموض :

"-بل سيفعلها مولاي بنفسه هذه المرة!"

ثم انطلقوا نحو القبو، حيث أمر الشيخ الأسود الحارسين بالبقاء على بابه، واتجه برفقة الحاكم بأمر الله، وأبو القاسم الجرجاني، الذي تحرك بينهما



كالمنوم الذي لا يعي شيئا مما يدور حوله، نحو الحجرة الغامضة في نهاية السراديب، والتي ذبحوا القاضي أبو الفضل محمد بن منصور البقلي داخلها قبل ساعات.

دخلها الحاكم بأمر الله فوجدها كما تركها، الشموع والمشاعل على الجدران تضيئها، بينما صار الرجال الضخام المتشحين بالسواد ستٌ هذه المرة. ارتجف الحاكم بأمر الله ثانية لمرآهم، وشعر ببعض البرودة تسري في أطرافه، وعاد ليشعر بالإزعاج، وهو يرى ان هناك من يخيفه، فرمقهم بجمود مماثل لجمودهم، محاولا مدارة خوفه ورفع صوته قائلا لهم:

"-من أنتم؟ "

كان ينتظر أن يجيبه أحدهم، لكنهم ظلوا على جمودهم، الذي جعلهم أقرب للتماثيل الحجرية، فالتفت الحاكم بدهشة إلى الشيخ الأسود، الذي احنى رأسه، وأجاب :

"-أخبرتك أنهم هنا لخدمتك يا مولاي؟ "

-"لكنني أسأل من يكونون؟ "

رفع الشيخ الأسود كفه نحوهم في احترام، وأجاب :

"-انهم أسلافي الستة وأنا السابع "!

لم يفهم الحاكم معنى ما يقوله فقال :

"-ماذا تقصد بأنهم اسلافك الستة؟ "

"-يا مولاي، هؤلاء اجدادي مذ بدء الخليقة، إنهم ستة من الآباء والأجداد وأنا السابع الأخير، إننا نصير هكذا حين ينتهى وقتنا على الأرض "

"-هل تعنى أنهم موتى "!

"- الموت هو الفناء التام، وطالما كنا قادرين على اتخاذ صور أخرى للحياة، فإننا لسنا موتى "

"-اذا ماذا يكونون الآن، وبماذا تقلبهم؟ "

"تدعوهم ب (فرسان الظلام)، وكل واحد منهم قادرعلى إهلاك جيش كامل، من فرسان البشر، وهم هنا ليحموا مولاي، ويخدموه "

بدا الحديث كله كالأحاجي والألغاز للحاكم بأمر الله، وفكر في أن يسأله المزيد عنهم، لكن الشيخ الأسود لم يدعه لأفكاره، وقال :

"-هل سمع مولاي عن فنون الاستجواب التي اتبعها الأجداد القدامى؟ "

لم يفهم الحاكم بأمر الله مغزى هذا التساؤل، فغمغم:

" -وهل هناك من طرق أخرى للاستجواب غير التي نسلكها؟ الرجل يأتي فنسأله، فإن أجاب وتحدث، أَمِنَ العذاب، وان آثر الصمت، انتزعنا أظفاره، وقطعنا أنامله، وسلخنا جلده، ثم جلدناه وصلبانه حتى يتحدث، أويهلك "

دار الشيخ الأسود حول أبو القاسم الجرجاني، الذي وقف في منتصف الحجرة تماما في جمود، وقال

"-وقد ينطق حينها الرجل بغير الحقيقة، ليتقي العذاب، وتكفوا أيديكم عنه، لكنني أتحدث عن استجواب لا كذب فيه ولا تضليل، هل مازال مولاي يذكر ما حدث مع القاضي؟ "

-"بالطبع، لقد استخدمت سحرك لتجعل لسانه ينطلق وينطق "

"-هذه المرة لا حاجة لنا للسان يتكلم، سوف تخبرنا دمائه وخلاياه بما نريد "



"-كلامك كله غموض هذه الليلة، يا بن دغل، وعقلي عاجز عن فهم ما تعنيه؟ "

"-سيعرف مولاي كل هذا الآن، اليوم أنت هنا لتستنطق الأحياء، وغدا موعدك مع الموتى، لكن في البداية، استأذن سيدي في الوقوف في منتصف تلك الدائرة الكبيرة "

كان يشير الي دائرة ضخمة تتوسط الحجرة الحجرية، وقد خطت بلون أحمر، وانتشرت حولها عشرات الأرقام والطلاسم والنجوم والحروف، تحرك الحاكم نحو الدائرة في فضول، ثم توقف في منتصفها، ونظر الي الشيخ الأسود منتظرا الخطوة القادمة، رفع الشيخ الأسود كلتا يديه في الهواء، فتوهجت الشعلات، وسرى دخان غريب في الحجرة، ثم تحرك فرسان الظلام الستة، أحاطوا بالدائرة الضخمة، التي يقف داخلها الحاكم بأمر الله، دون أن يدخلوها أو يلمسوا خطوطها، ثم جذبوا غطاء الراس الأسود الذي يخفي وجوههم، فارتجف الحاكم بأمر الله، وهو يرى وجوها لا شعر لها، ذات لون شاحب ابيض يميل للزقة، وانوف ضامرة طويلة وشفتين رفيعتين، وعيون سوداء كالفحم لا أثر للون الأبيض فيها .

"إنهم موتى بلا شك"

حدث الحاكم بأمر الله نفسه وهو يغالب خوفه، ثم تقدم الشيخ الأسود نحو الحاكم بأمر الله ودخل الدائرة ووقف أمامه، وقال بصوت آمر مخيف، وهو ينظر لعيني الخليفة بعين حالكة السواد :

"-اركع "!

وجد الحاكم نفسه يركع دون مناقشة على ركبته، ووضع الشيخ الأسود كفه فوق رأسه، وأغمض عينيه، وهتف :



"باسم الذي لا اسم له امنحنا الأسرار القديمة"

ردد فرسان الظلام خلفه ما يقوله.

"باسم الكيانات القديمة التي تقتات الظل، وتعاشر الموتى، وتفتك بالأحلام والأمل .. نسألك يا سيدي أن تمنح هذا الجسد الفان قطرة من قواك وعلومك"

"إنه جاء ليتعلم، وهو مستعد .. لقد أن يعلم، وجلب القربان معه"

" إنه أمامك يركع، فابسط عليك جناحك وضمه اليك"

" ان الذي لا اسم له يرعاه ويبجله"

انطفأت الشموع كلها بغتة، فساد الظلام في المكان، وهبت رياح باردة قوية، ممزوجة برائحة كبريتيه عنيفة، ثم انطلقت رائحة بخور غامضة في الحجرة. ورغم الظلام، راحت عشرات الرموز والخطوط والمثلثات ورؤوس الحيوانات، تظهر على الأرض والجدران من تلقاء نفسها، قبل أن يشعر الحاكم بأمر الله، عنف أن هناك ضيف جديد حلّ في المكان. ارتجف جسده، حين أحاطت برأسه كف مخلبية باردة كالثلج، وبالكاد كتم صرخة رعب، حين وجد من يهمس في أذنه، بصوت أجش مريع :

"قبلناك أيها البشري فتجرع دمائنا لتكون منا!

ثم شعر الحاكم بأمر الله، بجمجمة بشرية لها رائحة صدئة كالدماء على شفتيه، ثم امتلأ فمه بسائل تجرعه رغم مرارته، بينما ظل فرسان الظلام يرددون بصوتهم الغيربشري :

"بسم الذي لا اسم له امنحنه يا سيد الأكوان المظلمة الأسرار القديمة"



سرت في جسد الحاكم بأمر الله حرارة رهيبة، بدا وكأن النيران تلتهم خلايا جسده، أراد أن يصرخ وأن يطلب النجدة والرحمة، لكنه فمه ظل مغلقا على صراخه، فاكتفى بإطلاق أنيناً متوجعاً. لكن الألم انحسر مرة واحدة، وأحس الحاكم بأمر الله، أنه صار في خير حال.

هنا اشتعلت الشموع فجأة، فرأى الحاكم بأمر الله، نفسه وحيداً داخل الدائرة، بينما وقف الشيخ الأسود خلف القائم الحجري، وعاد فرسان الظلام لمكانهم، وقد غطوا رؤوسهم مرة أخرى، فاختفت وجوههم الشاحبة، وقال الشيخ الأسود في نشوة:

" -والأن، هل أنت مستعد؟ "

كان الحاكم بأمر الله يعلم في تلك اللحظة ما هو مقدم عليه، فأجاب مبتسماً :

"-يمكنك أن تبدا"!

مرر الشيخ الأسود حد خنجره على جانب عنق أبو القاسم الجرجاني، فقطع وريده الودجي، الذي يمد راسه بالدماء، الوتي راحت تنهمر في غزارة، دون أن يبدو على وجه الرجل، أي اثر لما يحدث له، ثم تراجع الشيخ الأسود، بينما ملأت رائحة الدماء أنف الحاكم بأمر الله وعقله وروحه. بدت وكأنما تدعوه لتذوقها كي تمده بأسرارها، شعر بشهوة لا حد لها نحو تلك الدماء، فانحنى نحو العنق النازف، وراح يرتشف في نهم.

هنا رأى بعقله ذكريات لا حد لها، عشرات السيوف والخناجر تهوى على أعناق وقلوب بشر لا عدد لهم، صرخات تتردد، وتضرعات لطلب رحمة لا وجود لها، كانت ذكريات أبو القاسم، وجرائمه، تنتقل لعقل الخليفة مع ما يرشفه من دمائه. لكن هذا لم يبد كافيا، كان الحاكم بأمر الله يتوق للمزيد.



ترك العنق النازف ووقف خلف الرجل الجامد، ثم أحاط عيني الرجل بأنامله، قبل أن يضغط بقوة عليهما، لم تتحمل العينان كل تلك القوة، فانفجرت في يد الحاكم، قبل أن يجذبها من محجرها وينظر في ما بقى منهما للحظة، ثم وضعهما في فمه وراح يمضغها، هنا رأى ما كان ينتظره، كانت ست الملك هناك في حجرتها، ترمق أبو القاسم بثبات وتقول له:

" -اقتل الخليفة!"

(16)

كانت الخيول الثلاث تخترق شوارع الفسطاط الرابضة في الظلام والسكون، حين قال حسام الدين، وقد فشل في كبت فضوله :

"-من أنتم؟"

أجابه نجم الدين، بتهكم، وهوينعطف بالفرس نحو أحد الشوارع الجانبية :

"-حمقى انقذوا حياتك يا فتى، ألا يكفيك هذ؟"

تجاهل حسام الدين تهكمه وقال:

"-اسمك هونجم الدين، لقد سمعت صديقك يناديك بهذا. "

"-إنه اسمي لوكان هذا يريحك، والأن، هل من أسئلة أخرى؟"

أدرك حسام الدين أن نجم الدين، لا يرغب في الحديث، لكنه واصل طرح اسئلته التي تكاد أن تذهب بعقله:

" - وهل تعلم من يكون هؤلاء الذين هاجموني في القرافة؟ "



شد نجم الدين لجام فرسه بقوة وعنف، فتوقف الفرس، ثم التفت إلى حسام الدين، وقال بخشونة :

"-اسمعني أيها الشاب، وافهم جيداً ما أقوله، أنا لا أعلم من أنت، ولا أهتم بمن تكون، ولا أعلم حتى من هؤلاء الشياطين الذين كانوا في القرافة، ولا لماذا كنت هناك، أو لماذا هاجموك. كما أنني لست هنا لأجيب عن أسئلتك، لقد أنقذناك وهذا يكفي. فالزم الصمت، حتى نوصلك لمكان آمن، ثم نرحل "

شعر حسام الدين بالإهانة، من هذا الأسلوب الجاف، فهتف محتجا وهو يترجل من فوق الفرس :

"-لم أطلب منكم انقاذيّ، لو كان هذا ما يضايقك. ولم أطلب منك اخراجي من المقابر، ولهذا ليس من حقك أن تعاملني بمثل تلك الحدة! "

بلغهما الفرسان الآخران، في تلك اللحظة، وتوقفا بجوارهما، ونجم الدين يجيب في سخرية :

"-يمكننا أن نعيدك إلى القرافة ثانيا لو شئت هذا، لا أدرى لماذا أفكر في أنني، كنت أنتظر شكرا بدلا من هذا الغضب! "

تدخل عمر في الحديث، قائلا لنجم الدين :

"-مهلا يا نجم الدين، الشاب لم يفعل شيئا لتحدثه هكذا "

ثم نظر لحسام الدين، وأكمل :

"-ما اسمك يا صديقي؟ "

"-حسام الدين، ولن أمضى معكم إلى أي مكان، قبل أن أعلم من أنتم؟"

"-اسمي هو عمر، وهذا هو نجم الدين ، وذلك الفارس الثالث يدعى بهرام "



"-والي أين نذهب؟"

"-إلى أي مكان آمن بعيدا عن القرافة، أخبرنا أين تعيش، لنذهب بك إلى هناك، ثم نرحل "

لم يعجب حسام الدين ذلك الغموض، فغمغم في حذر:

"-وهل أنتم من الشرطة؟"

تبادل الشباب الثلاث النظر، ثم قال عمر:

"-كلا بالطبع، لكن سؤالك هذا يعني أنك تهرب منهم، هل هذا صحيح؟"

"-لقد قتلت أحد المغاربة والجميع يفتش عني الآن، ولهذا كنت اختبأ في القرافة منهم!"

هنا أطلق نجم الدين ضحكة ساخرة، وقال:

" -وتجاهلت كل من هلكوا في القرافة' وذهبت اليها، لتبتعد عن الشرطة والمغاربة معتقداً أنك ستكون آمناً هناك، لو شئت رأيي فهذا حُمقٌ!"

أراد حسام الدين أن يرد عليه اهانته، لكن عمر أسرع قائلا :

"-ما قلته يعني أنه لا مجال للعودة للفسطاط أو القاهرة، هذا يعني أن تأتي معنا "!

"-إلى أين؟ "

سأل حسام في توتر، لكن نجم الدين هو الذي أجابه، هذه المرة في صرامة :

"-اطمئن! لن تذهب معنا الي أي مكان. أخبرنا الي أين تحب أن تذهب، أو ابق هنا ودعنا نرحل "

قال عمر في حزم، وهو يتجاهله :



"-سيأتي معنا يا نجم الدين، هذا ما أمرني به الشيخ محفوظ، لقد طالبني أن أحضر الشاب، لو لم يكن له مأوى، أو كان مطارداً، وكما سمعت، فالشرطة والمغاربة يلاحقونه، وهذا يعني أنه لا مكان أمامه، ليهرب فيه منهم."

نظر نجم الدين إلى الشاب في شك، ثم إلى عمر، قبل أن يقول في ضجرٍ:

" -هذا شأنكم، لكن عودته معنا لا تروقني، هيا اركب خلفي يا هذا لنذهب، لكني عدني ألا تحاول الحديث معي حتى نصل. "

لكن حسام الدين أجابه في اعتراض:

" -لن أركب خلفك مهما حدث !"

تقدم عمر نحوه بحصانه، وقال :

"-إذاً امتطى الحصان خلفي، ودعنا نتحرك، المكان غير آمن، وقد تأخرنا "

امتطى حسام الدين الفرس خلفه، وانطلقوا، اتجهوا جنوباً لبعض الوقت، قبل أن ينحرفوا نحو الشرق حيث الصحراء والجبل ، ظلت الخيول تعدو فوق الرمال، حتى اقترب الفجر، ثم بلغوا مخبأهم في الجبل، كان الشيخ محفوظ هناك بانتظارهم، فوق ربوة عالية، بينما تابعتهم عينا اثنين من الحراس، فوق قمتين صخريتين في تحفز. ترجل الجميع أمام الشيخ محفوظ المتكأ على عصاه، والذي بادرهم بالسؤال:

" -ماذا وجدتم في المقابر؟ "

أجابه عمر وهو يتقدم نحوه:

" -كان هناك ستة من فرسان الظلام، هل تصدق هذا؟ "

تقلص وجه الرجل العجوز، وغمغم في توتر :



"-هذا يعني أنهم قد عادوا جميعا، وان الأمريقترب، يبدو أننا قد تأخرنا في التحرك هذه المرة!"

ثم التفت إلى حسام الدين، وقال له، وهو يحاول سبر أغواره بنظره :

"-تقدم أيها الشاب نحوى وأخبرني، من أنت، وما هي حكايتك؟ "

قص عليه حسام الدين ما حدث له، فتبادلوا النظرات للحظة، قبل أن يغمغم الشيخ محفوظ :

"-اذا فأنت الغلام الذي رباه "القاضي أبو الفضل محمد بن منصور البقلي، رحمه الله "

اتسعت عينا حسام الدين في ذهول، قبل أن يقول بصوت مختنق :

"-رحمه الله؟! ما معنى قولك هذا؟ إنه ما زال حياً! "

سأله عمر في حذر :

"-ألم تعلم بما حدث يا حسام الدين؟ "

"-أعلم ماذا؟ لماذا لا يخبرني أحدكم بما حدث، هل أصابه مكروه؟ "

تبادل الكل النظر في وجوم، وعينا حسام الدين المذعورة تلاحقهم ،وقد قرأ في وجوههم الحقيقة المريعة، قبل أن يقول نجم الدين هذه المرة:

" -لقد قتله الحاكم بأمر الله اليوم، ثم أمر بصلبه أمام داره! "

لم يحتمل حسام الدين الخبر الذي هوى على رأسه كالصاعقة، فخانته ساقاه، وسقط فوق الرمال والصخور وهو يصرخ، في غير تصديق :

"-واسيدي القاضي وأبي،! لقد قتلتك بحماقتي وتهوري، أنا من تسبب في موتك، ليتني مت قبل هذا، ليتني ما هربت وتركتك بمفردك! "



ظل يبكي ويمرغ وجهه في الرمال بعض الوقت، دون أن يتدخل أحد منهم ويمنعه مما يفعله، تركوه لحزنه، وانتظروا أن يهدأ، لكنه رفع رأسه بغتة، وكف عن النحيب، وهو يهتف:

" -سلمى! "

غمغم الحكيم في حذر :

"-ماذا؟ "

هب حسام الدين من فوق الرمال، وقال في إصرار :

"-على أن اعود !"

لم يتمالك نجم الدين نفسه، وصاح فيه، مستنكراً:

" -هل جننت يا هذا؟ سيقتلونك لو عدت. "

"-هذا لا يهم، المهم أن أطمئن على سلمى "!

"-هل تقصد ابنة القاضي؟"

سأله الحكيم

"-أجل، إنني آخر من تبقى لها، ويجب أن أكون بجوارها الآن، لا أدرى كيف تواجه الأمر بمفردها، ولا ما قد يفعلوه بها، لهذا علي أن أعود لأحميها! "

قال الحكيم في هدوء محاولاً بث طمأنته:

"-لا تقلق بشأنها، سوف أرسل من يأتي بها إلى هنا سراً، دون أن يشعر أحد "

لكن حسام الدين هتف في عناد:



" -كلا، سوف أذهب اليها، أنا من يجب عليه أن يكون بجوارها في هذه اللحظة، إنني أدين للقاضي بعمري كله، ولهذا علي أن أحفظ ابنته، وأن ادفن جثمانه، ولا أدعه في الشارع مصلوباً أمام الكلاب، لتنهشه "

غمغم نجم الدين بتهكم :

"-إنه رجل أحمق بالفعل، كما قلت من قبل، سوف يلقى حتفه بمجرد أن يراه أول رجل فيهم!"

تجاهل الباقون التعليق، وقال الشيخ العجوز لحسام الدين، في اشفاق :

"-يمكننا أن نقوم بكل هذا دون أن تذهب يا بني، أنت من يطلبونه لا نحن، وربما نجحنا في انقاذ الفتاة، وسرقة جثمان القاضي."

كان العناد من السمات المميزة لحسام الدين، ولهذا أصر على رفضه، وقال:

"-اشكرك يا سيدي على اقتراحك، لكن انقاذ سلمى، ودفن جثمان القاضي، هو واجبي أنا، قبل أي أحد آخر، وسوف أقوم بالأمر ولو كان فيه هلاكي، ليذهب بي أحدكم إلى الفسطاط، أو أرشدوني للطريق لأذهب بمفردي!"

هز الشيخ رأسه في أسف، وقد أدرك عناد الشاب، وغمغم وخلجاته تتقلص:

" -حين تبلغ مثل عمري يا بني، يصير من العسير أن تتقبل حماقات كتلك التي أنت مقبل عليها، لكني رغم هذا، مازلت أفهم دوافعك وأحترمها، إن الوفاء ظل دوما العملة النادرة، في هذا الحياة، ولهذا لا يمكنني الوقوف أمام رغبتك تلك، سوف نساعدك في العودة إلى هناك، ولن نتركك لتكون بمفردة في مواجهتهم، لو تطلب الأمر القتال"

ثم نظر الي عمر، وسأله :

"-هل ترافقه إلى هناك يا عمر؟"



"-وهل تسأل؟ سوف أذهب بالطبع يا مولانا "

"-وماذا عنك يا نجم الدين؟ "

سأل الحكيم.

"-الأمر كله حماقة كما قلت منذ قليل يا جدي، لكنها حماقة من النوع الذي يروق لي، ما كنت لأفوت فرصة لقتال بعض الحرس."

ثم التفت الي حسام الدين وأكمل مبتسما، وهو يربت على كتفه:

"-اليوم هو يوم سعدك يا فتي، لو قدر لك الموت اليوم، فلن تموت بمفردك، سنكون هناك أعناق كثيرة لتذبح معك، هل رأيت كم أنت محظوظ!"

تنهد الحكيم في ارتياح، وقال وهو يتحرك :

-" اذا دعونا نفكر في خطة، فلن تعودوا إلى هناك بوجوه عارية"

(17)

/رتشفت ست الحسن قطرات من شراب الرمان المثلج، لتطفئ به أور ظمأها الذي لا يهدأ. لم يكن الحر هو ما تسبب في جفاف حلقها، لكنه القلق. كانت قد علمت بما حل للقاضي (أبو الفضل محمد بن منصور البقلي)، وأخبرها عيونها في القصر، كيف طافوا بجثمانه مقطوع الرأس في شوارع الفسطاط، وقد صلبوه فوق حمار، بلا رأس، والمنادون يرددون:

" -هذا جزاء من لا يطيع الخليفة !"



والآن اختفى أبو القاسم الجرجاني، بعد أن طالبته برأس ذلك الرجل المخيف المدعو ب(الشيخ الأسود)، ورغم كل من أطلقتهم من جواسيسها من الخصيان والجواري والحراس والخدم، في جنبات القصر، إلا أن الجميع عجزوا عن معرفة مكانه. لكن الشيء المؤكد، أنه لم يغادر القصر، فلم يشاهده حراس الأبواب، وهو يخرج.

فكرت أنه ربما يكون في السجن، لكن رجالها بين حراس السجن أخبروها، أنه ليس في أي زنزانة، إذاً أين ذهب، وهل تبخر في الهواء؟

انتهت من كأس الشراب، فناولته لجاريتها وطالبتها بالمزيد، ثم تحركت بالكأس الجديد، نحو النافذة فأزاحت الستائر، ونظرت للخلق التي تملأ حديقة القصر الكبير وما حوله، ناس جاءت لتشكو، وبشر جاءت لتقضى حوائجها، ونساء جئن لطلب المعونة، وعجزة ومرضى جاءوا من أجل طعام الخليفة. فرسان تجيء، وجنود تذهب، وعمال في القصر لا يتوقفون، وخدم وأجراء وموظفين. خلق كبير وفي البلاد خلق أكثر، وقد جاء أجدادها الي هنا ليحكموا كل هؤلاء.

ظهر أحد الخصيان، وقال بصوت ناعم، ووجه أمرد :

"-مولاتي !"

التفت اليه بعيون متسائلة، وهي تنتظر أن يكون قد أتى بخبر عن خادمها، لكن الخصى كان يحمل في يده، سلةً من الخوص. نظرت اليها بحيرة، فقال الخصي بارتباك :

"-كانت هذه أمام حجرتك!"

"-ومن أين أتت، ومن وضعها؟"

"-لم نشاهد أحد بجوارها "



"-وماذا بداخلها، هل فتحها أحد!"

ابتلع الخصي ريقه بصعوبة وقال:

-" أرى أن تنظري بنفسك !"

أومأت بالموافقة، فرفع الغطاء في اضطراب، بينما هوت السلة على الأرض وقد تحرجت منها يدٌ مقطوعة، عرفت ست الملك صاحبها من النظرة الأولى، وقد رأت خاتم كبير مميز، من الياقوت الأحمر بإبهامه. كانت يد أبو القاسم الجرجاني، خادمها !

رمقت الكف الدامية، في عبوس، وقد بلغتها الرسالة البليغة، لقد فشل خادمها، وحتما قد قُتل، والأن يرسل لها قاتله، وهو بلا شك الشيخ الأسود، يده وخاتمه، ليخبرها أنه يعلم بمكيدتها.

هل يهددها هذا اللعين أم يتحداها؟ وهل يجرؤ على فعل هذا، مع ست الملك، أقوى امرأة عرفتها قصور الدولة الفاطمية؟ تنهدت، وهمست لنفسها"

يا الله، من أي جحيم ملعون هبط على رؤوسنا هذا الرجل وماذا يريد منا؟"

ثم أشارت لجاريتها والخصي أن يفارقاها' قائلة:

"- اتركاني بمفردي ولا تسمحوا لأحد بالدخول، فلا رغبة لدي في التحدث إلى ي أحد ! "

ثم أشارت للسلة وقالت للخصى :

"-أما أنت، فاذهب بتلك الكف وأدفنها في مقبرة ما، ولا تتحدث بما رأيت، هل تفهم؟ "

انحنى الخصي في طاعة، والتقط اليد بأطراف أنامله، ورماها في السلة، ثم تراجع للخلف وغادر الحجرة، وما أن صارت ست الملك بمفردها، حتى سمحت



لدموعها بالانهمار، كان ما يحدث فوق قدرتها على الاحتمال، ورغم كل ما يشاع عن قوتها وشدتها، إلا أنها كانت الوحيدة، التي تدرك أن كل هذا مجرد قناع ترتديه، كي لا يلحظ أحد ضعفها، وكي تحمى ملك أخيها، وخاصة بعد أن مات أبويهما فجأة، والاعداء في كل جانب، الخليفة العباسي في بغداد، والقرامطة في بلاد الحجاز والشام، والبرابرة في المغرب، والروم من خلف البحر، والمتربصين داخل القصر الكبير!!!

كان الحاكم بأمر الله طفلاً، بالكاد قد تخطى العاشرة من عمره، حين ألبسوه عمامة الحكم، وقبلوا الأرض بين يديه، ثم أعلنوه كخليفةٍ جديد، كان مجرد طفل لا يعي شيئا من شرور الحكم، وما يقتضيه حفظ المُلك من آثام، وكانت دوما خلفه، تدير شئون البلاد بدلاً منه، وتكيد لأعدائه، وتولى وزرائه، وتؤهله ليصير الخليفة المرهوب. كانت تدارى خوفها على نفسها، وعلى أخيها بالقسوة التي تُظهرها، وتداري ضعفها الذي يكاد أن يعصف بها، بالعنف الذي تبديه للجميع. عَلَمت الحاكم بأمر الله، أن الذئاب من تحيا للنهاية، وأن الحملان مهما كانت براءتها وطيبتها، فمصيرها الذبح، عَلّمته أن العروش تبقى للأقوياء وتذهب من يد الضعفاء، عَلّمته أن دماء الأعداء تكفي شرهم وتخيف غيرهم، عَلّمته ان السيوف لا تصدر، إلا أفصح الحديث، وأنها متى تكلمت، صمت أمامها أي صوت آخر!

والآن صار الحاكم بأمر الله، هو الخليفةَ المخيف المرعب الذي أرادته من قبل، فلماذا تتذمر؟

هل لأنها صارت تخشاه، كما يفعل الجميع، رغم أنه لم يجرؤ يوما على ايذائها، أم لأنها لم تدرك، أنها حين كانت تعلمه كل هذا، كانت تخلق وحشاً لا حاكماً، وحش رأى نفسه إلهاً فوق البشر، بعد أن شبع من دمائهم؟



أي مفارقة تلك التي تحدث؟! الخليفة الفاطمي القادم من نسل فاطمة الشريفة ابنه (محمد) يَكفر، ويدعي الألوهية ويدعو الناس لعبادته؟!

كانت خير من يعلم نهاية مثل هذا الطريق، الذي زج أخيها فيه نفسه، كانت ترى قصور الحكم، التي تنطق بالجمال والحياة، وقد تهدمت ،ونعقت في جنباتها الغربان ، و ...

"-لن يحدث هذا، وأنا موجود "!

صرخت في فزع حقيقي، حين سمعت تلك الكلمات من خلفها فجأة، والتفت بسرعة إلى صاحبها، رأت رجلا طويلا، أبيض البشرة، ذا عيون سوداء واسعة جميلة، ومخيفة في نفس الوقت، وعلى شفتيه ارتسمت ابتسامة ساخرة باردة. ورغم أنها لم تره من قبل، إلا أنها كانت تعلم من يكون!

هتفت بصوت مرتجف:

" -أنت؟! "

اتسعت ابتسامة الشيخ الأسود، ورفع كفين تلمع فيهما الكثير من الخواتم، وأجاب:

" -جميل أنك تعرفين من أنا، هذا يعني أنه لا حاجة لتقديم نفسي!"

بالكاد تمالكت نفسها، وهي ترمقه في خوف، وارتجفت شفتاها، وهي تجاهد لتخرج الكلمات من فمها، وقالت :

"-كيف دخلت إلى هنا؟ ولماذا لم يمنعك الحراس والخصيان؟ أين ذهب كل هؤلاء؟ "



اتجه الشيخ الأسود إلى اناء الفضة، الذي يحوي شراب الرومان البارد، وصب لنفسه بعض العصير في نفس الكأس، الذي كانت تشرب فيه ست الملك، ثم رفعه نحو فمه، وارتشف بضع قطرات منه، ثم هز رأسه في رضا، وقال :

"-شراب رومان حُلو مُعطرٌ بمذاقك، لو شئت الحقيقة، فإنه يُسكِر كالنبيذ!"

كان وقحاً، فكرت ست الملك في هذا، وهي لا تصدق أن يتحرش بها هكذا، ثم جاء الغضب، فوجدت نفسها وهي تدفع كفها نحوه لتلطمه، لكن كفها سقطت في يده، قبل أن يبلغ وجهه، حاولت المقاومة، إلا أنه كان أقوى منها بكثير، رفعت رأسها نحوه في تحدٍ، وهي تجاهد عينها كي لا تظهر دموعها، ثم وجدته يرفع كفها نحو شفتيه، ويقبلها قبل أن يطلقها، ويقول :

"-هل أخبرك أحدٌ من قبل، كم أنت فاتنةٌ حين تغضبين؟ "

"-كيف تجرؤ على فعل هذا، هل أصابك الجنون؟ "

"-الجنون صفة لا افتقدها يا أميرتي الفاتنة "

تحشرج صوتها عجزاً للحظة قبل أن تصرخ في ثورة :

"والوقاحة كذلك، وسوف تندم على اقتحامك حجرتي، والتعدي علي هكذا، سوف أنادي الحراس ليلقوك بالخارج، ثم نرى ما الذي سيفعله الخليفة بك! "

جلس على طرف فراشها، وقال في تحد :

"-لا احد منهم بالخارج ليسمعك "



اندفعت نحو الباب في غيظ، لكنها ما أن فتحته حتى تراجعت وقد صرخت في فزع، فما واجهها لم يكن الا الظلام، ظلام لا حد له يحيط بالحجرة كلها، تراجعت في خوف حقيقي، ونظرت للشيخ الأسود في رعب، وقالت :

"-كيف فعلت هذا، وأين اختفى القصر "

"-إنه ما زال في مكانه، نحن من صرنا في مكان آخر! "

"-هل اختطفتني أيها الشيطان؟ لو علم الخليفة بما فعلته، لسلخ جلدك وأطعم لحمك للكلاب."

ارتفعت ضحكة الشيخ الأسود في مرحٍ، ثم قام من مكانه، وتقدم خطوتين نحوها، وقال:

" -ما يعلمه الخليفة الآن، هو أن أخته التي قامت بتربيته، قد أرسلت خادمها ليقتله !"

"-هذا كذب! "

"-نعم ، إنه كذبٌ بالفعل، لكن عليك أن تُثبتي هذا. الحقيقة، هي أن سيدة القصر القوية، قد أرسلت قاتلها الأثير، ليقتل رجلا بريئا مثلي، لكنه كان تافها وغبي، فسقط كأي جرذ، لكن المشكلة ليست في هذا في الحقيقة، بل في ما أخبره خادمك للخليفة، قبل أن يذبح، لقد اعترف أنك أرسلته ليقتل الحاكم بأمر الله "

وجدت نفسها ترتجف في غير تصديق، ثم صرخت في وجهه :

"-أنت كاذب، خادمي لن يشي بي، ولو مزقته اربا، وحتى لو قالها، فلن يصدق أخي، إنه يعرف كم أحبه "

فرقع بلسانه وهو يهز رأسه للناحيتين نفياً، ومال نحوها وقال:



"-هل تراهنين؟ يمكنك أن تذهبي اليه لترى بنفسك هل صدق أم لا، لكن لو شئت نصيحتي فلا تفعلي، إنه غاضب كما لم أره من قبل، ولولا أنني قمت بتهدئته لبطش بك."

كانت ترغب في أن تكذيبه، لكن حدسها أخبرها أنه قد يكون صادقا في حديثه، إنه رجل يعمل بالسحر الأسود، وربما أجبر خادمها على قول هذا بسحره. لكن السؤال المهم، هل صدق أخيها هذا؟ لو حدث هذا الأمر قبل أعوامٍ، لما صدق الحاكم بأمر الله، لكن تلك الأيام مختلفة، ولا شيء يمنعه من تصديق هذا وهذا الشيطان إلى جواره. حاولت استعادة هدوءها وأن تلجأ للحيلة، فقالت في برود:

"-ماذا تريد؟ "

"-لا شيء!، فقط عليك الإيمان بما صارعليه الخليفة "

"-هل تمزح يا رجل، هذا كفر !"

"-اذا أعطني شيئا أخر، لأكف يد الخليفة عنك. أنت بحاجة إلي الآن، والخليفة لا يقوم بأي أمر دون مشورتي، انظري كم تساوي حياتك، وفكري في الثمن المطلوب لإنقاذها "

"-وقد سألتك، ماذا تريد؟ "

بدا ما حدث كالحلم، كان الشيخ الأسود قد رحل منذ زمن، لكنها ظلت في جمود، وذهول، وحيرة، لوقت طويل. كانت تشعر بالوحدة في مواجهة كل هذا، وكم أربكها طلبه الغريب. وجدت نفسها بحاجة لرجالها المخلصين، هنا فتحت الباب فطالعها المنظر المعتاد لطرقات القصر. كانت جواريها وخدمها هناك في انتظار أوامرها، نادت على أحدهم، وكانت تثق فيه، ثم قالت له:



"إذهب الي القائد الحسين بن جوهر الصقلي، وأخبره أن ست الملك تريده."

(18)

شعرت سلمى أنها تعيش داخل كابوس ثقيل، رأس أبيها النازفة التي وجدتها بين أحضانها على الفراش، والحياة مازالت عالقة بها، ثم رجال الشرطة والمغاربة والحراس، الذين كانوا داخل البيت في اللحظة التالية. لم يكن هناك وقت للاختباء في المخبأ السري، بل لم يكن هناك أي وقت للتفكير نفسه.

جذبها أحد المغاربة من شعرها الطويل، وجرها عبر الغرفة وهي تصرخ، ثم سألها في غلظة:

"-أين تخفون القاتل المصري أيتها العاهرة؟ تكلمي أو تلحقين بأبيك."

ولمّا لم تُجبه، صفعها على وجهها مرتين، ثم ألقاها خارج البيت .

كانت سلمى ما تزال في الملابس الخفيفة، التي نامت بها، رأت الجواري يصرخن، والعبيد يحاولون الفرار، والبيت يُنهب أمام بصرها، فتجمدت في مكانها في عجز وخوف. رأت رأس أبيها بين أقدام هؤلاء الملاعين، وهم يتقاذفوها ويركلوها في استهزاء، فحاولت أن تحتضنها، وتحفظها من عبث أحذيتهم الجلدية الثقيلة، لكن أحد المغاربة ركلها بطرف حذائه في وجهها، فأدمى شفتيها وشقها نصفين، ثم منعتها من الحفاظ على رأس القاضي الجليل.

أهكذا يفعلون بالعلماء؟ يا لبؤس من يحيا في هذه البلد التعيس!

وجدت سلمى واحدة من العجائز وكانت جارتها، تحيط كتفها بعباءة ثقيلة، لتخفى ما أظهره ثوبها الشفاف، وقالت لها، وهي تجذبها بعيدا عن البيت:



" -لا مكان لك يا ابنتي هنا، انهم رجال بلا شرف، فلا تقفي هكذا لتفقدي شرفك، بعد ان فقدتي بيتك وابيك "

استسلمت لكفها الضامرة، وهي تكاد لا ترى أمامها، ودموعها تملأ عينيها، لكنها لم تتحرك سوى بضع خطوات، ثم وجدت واحداً من رجال الشرطة يعترض طريقها، يقول لجارتها العجوز، في غلظة:

"-دعيها يا امرأة واذهبي، إننا لم ننتهي منها بعد!"

التصقت سلمى بالعجوز في رعب، وكأنها تستجديها الحماية، وقالت العجوز في غضب :

"-وما شأنكم بها وقد قتلتم أباها؟ دعوها تذهب، إنها مجرد فتاة!"

دفعها الشرطي في غلظة، وجذب سلمى من ذراعها بقسوة، وقرب وجهه منها، فالتقطت أنفها رائحة أنفاسه الكريهة، وهو يقول :

"-قفي هنا يا فتاة ولا تفكري في الفرار، ما زال الرجال هنا يرغبون في الحديث معك، إنه حديثٌ ممتعٌ لكنك حتما لن تُحبيه، لكن، يمكنك أن تتجنبي كل هذا، لو انفكت عقدة لسانك، وأخبرتِنا أين يختبأ المصري القاتل؟ "

رمقته في ذعر، وهي تنكمش في نفسها أكثر، وتفكر في مقصده، هل سيغتصبها المغاربة ثم يقتلوها؟ هل هذا ما يقصده؟ انه من الشرطة الموكل بهم حفظها وحمايتها، فكيف يهددها هكذا؟ راحت ترتجف، وقد شعرت ببرد عجيب يكتنفها، وتذكرت قول أبيها في رجال الشرطة السفلية :

"-انهم عصا الحاكم وكل حاكم، عبيد لمن يحكم ويدفع، لا يبالون بشرف أو نخوة، طالما رضى الحاكم عنهم! "



فكرت في حسام الدين. أين يكون الآن، وهل يعلم ما حل بها، وأن ابيها قد قتل؟ إنه حي بلا شك، والا لما تكبدوا كل هذا العناء للبحث عنه. لكن لماذا لم يهرع لنجدتها. كما ظل طوال عمره يعدها؟ وهل يترك سلمى لضباع حقيرة تنهش لحمها وتسرق عفتها، ثم تقلتها؟

انتبهت للمنادي القادم من بعيد فوق حمار، وهو يهتف، والعامة من حوله يتقاطرون :

"-هذا جزاء من يعصى الخليفة "!

ومن خلفة ظهر جسد أبيها مصلوباً على جذع شجرة، وقد ثبتوا جسده بالمسامير فيه، ويحمله حمار آخر، بعد أن جردوه من ملابسه. بلغ المنادي بيتها، فهرع اليه الحرس، وثبتوا الجذع أمام البيت، ثم علق أحد المغاربة رأس أبيها في عصا طويلة، وثبتها فوق العنق المبتور قبل أن يبصق عليها. ودت لو تنهش عنقه بأسنانها وأظفارها، ثم اقترب منها أكبر رجال الشرطة عمراً، وقال لها في خشونة:

" -سيظل جسده مصلوبا هكذا، لتقتات الطيور من لحمه وتنهشه الكلاب، حتى يظهر القاتل الذي أخفاه. "

ثم ترك رجلين من رجال الشرطة السفلية، لحراسة الجسد المصلوب، وصرف الباقين، وقال لها قبل أن يغادر متوعداً :

"-لو لم يظهر حسام الدين، ستحلين محل ابيك، وسنصلب جسدك عاريا، لكنك ستكونين حية هذه المرة "

ارتعد جسدها من هول التهديد، ثم اندفعت إلى داخل الدار لتختفي عن العيون، كان الأثاث مبعثرا، وقد كسروا وأتلفوا ما فشلوا في نهبه. بدا البيت وكأنما تعرض لزلزال مدمر، كان تشعر بذعر وضعف وانكسار هائل، وزاد من ذعرها أن الجواري والعبيد، في البيت قد استولى عليهم هؤلاء المغتصبون، كانت



وحيدة بين جدران البيت الكبير، وكانت رأس أبيها المقطوعة، وجسده العاري المصلوب لا تفارق خيالها. .

كانت الحجرة الوحيدة التي لم تنهب هي مكتبة أبيها، فقد اكتفوا ببعثرة الكتب وإلقائها من فوق الرفوف الخشبية، من حسن الحظ أن أحداً لم يكتشف باب المخبأ السري، اتجهت إلى الحائط، وانتظرت للحظة، وهي تحبس أنفاسها، لترى إن كان هناك من يراقبها، ثم فتحت الباب السري، ودخلت بسرعة وأغلقته خلفها لتغرق في الظلام. تهاوت في تلك اللحظة، ووجدت نفسها تبكي وتنتحب في صمت.

كانت تخاف الظلام منذ طفولتها، وفي تلك اللحظة، راح خيالها يصور لها كيف يختفي في هذا الظلام التام عشرات الاشباح وكيف ترمقها بعيون لا ترمش في انتظارأن تنام، كي تنال منها. ثم تخيلت رأس أبيها وهي تراقبها في الظلام بعيون فقدت بريق الحياة، وعاد عقلها ليتخيل جسد أبيها مقطوع الراس، وهو يزحف نحوها في صمت، قبل أن يقبض على قدميها بيد باردة. هنا اضطرب قلبها وفقدت دقاته انتظامها، فقالت لنفسها بأنفاس متلاحقة، وعينها تحاول بلا جدوى اختراق الظلام :

"انه أبي في النهاية، ومن المستحيل أن يؤذيني حيا أو ميتا، الوحوش هم من قتلوه وينتظرون بالخارج "

وبعدها لم يحتمل عقلها كل تلك الضغوط فهوت في غيبوبة عميقة .

مست كتفها أنامل رقيقة، فصرخت في رعب مميت، وهى تتخيل أن تلك الأنامل أصابع أبيها الميته، لكن كفاً قويةً اندفعت رغم الظلام، نحو فمها وأغلقته بقوه، وسمعت صوتاً هامساً يقول لها بسرعة :

"-ششششش، اهدأي يا سلمى، هذا أنا !"



احتاجت للحظة قبل أن تدرك لمن يكون الصوت، إنه حسام الدين. هذا حلم بلا شك، لكن الكف التي تغلق فمها كانت حقيقية تماما، وعاد حسام الدين ليتحدث:

" -إنه أنا يا حبيبتي، حسام الدين، لا تقلقي يا سلمى، لقد عدت من أجلك، فقط كفي عن الصراخ، كي لا يشعر بنا أحدهم، مازال الحراس والبصاصين يحومون حول البيت !"

احتاج الأمر بضع ثوان أخرى، لتستعيد رباطة جأشها و تهدأ أنفاسها اللاهثة، ثم أبعد حسام الدين كفه عن فمها فلم تصرخ، ومرة واحدة ألقت بنفسها بين ذراعيه، وراحت تبكي بصوت مكتوم، وهي تدفن رأسها في صدره. ضمها اليه في رفق، وظلت تبكي لوقت طويل وهو يربت على ظهرها، انتظر أن تنتهي من البكاء في صبرٍ، وقد علم أن دموعها هي السبيل الوحيد كي تحظى ببعض السكينة والطمأنينة. كان يدرك ما مرت به في الساعات الأخيرة من وقت عصيب، دون أن يكون أحدٌ ما بجوارها، ليخفف عنها ويحميها. مضى الوقت في الظلام كدهرٍ كاملٍ. قبل أن تبعد رأسها عنه، وتقول في غير تصديق:

"-هل رأيت ما فعلوه بأبي، لقد ذبحوه، ثم صلبوا جسده أمام الدار، لقد رأيته بلا شك، هل تصدق يا حسام الدين ما حدث؟ هل تصدق أنهم فعلوا هذا في أبي وأبيك، قاضي قضاة الحنفيين، أبو الفضل محمد بن منصور البقلي؟! لقد قتلوه وصلبوه، كما لو كان مجرد لص حقيرٍ، وليس عالماً جليلاً "

اقترب بفمه من أذنها، وهمس :

"-وأنا هنا من أجل هذا يا حبيبتي، أنا هنا كي أنقذك. "

"- وأين كنت كل هذا الوقت، خفت أن يقبضوا عليك، وأن يقتلوك أنت الأخر."



"-كنت مختبأ في القرافة كما أخبرتك، وكما أشار علي مولاي القاضي، لم أتخيل للحظة أن يلحقوا به أي سوء، فالناس تحبه وست الملك تقربه منها، لكن الملاعين فعلوها، وحين علمت جئت إليك دون ابطاء "

"-أنت لم ترى ما فعلوه بي، وما هددوني به، لو لم أخبرهم عن مكانك، لكنني لم أتكلم، من المستحيل أن أفقد أبي اليوم، ثم أخسرك في اليوم التالي، لكن أخبرني كيف عرفت أنني هنا؟"

ابتسم في الظلام رغما عنه، وهو يتذكر أن هذا المكان، كان منذ زمن بعيد ملجأهما السري من الخدم، حين كانا مجرد طفلين صغيرين، كانا يختبأن بالساعات فيه، وقد جلب حسام الدين معه الكثير من الشموع، وعلى ضوء الشموع في المكان الضيق الحار، كانا يرسمان سويا عالمهما الخيالي، يقص حسام عليها الحكايات التي قرأها أو سمعها، بينما تحكي له سلمى عن أحلامها المثيرة. كانت أكثر حكايات حسام الدين حينها عن أبيه وأمه المجهولين، كان دوما ما يخبرها أنه كأبطال الف ليلة وليلة، وسَيكْتشفُ في النهاية أنه أمير قادم من بلد بعيد، وأن عفريتا من الجن ربما اختطفه من مهده، ليعاقب أباه وأمه على شيء ما، لكنهما حتما مازالا يبحثان عنه، ويوماً ما سوف يعرفانه بعلامة سرية في جسده، قد لا يدركها هو. وحينها سوف يعود معهما إلى بلاده ليعيش أميراً سعيداً في قصر عظيم. كانت تلك القصص تبهر سلمى حينها، فتراها امام عينيها كحقيقة لا شك فيها، لكنها تنتبه بعدها لأمر مخيفٍ، فتقول في عبوس :

"-لكن هذا يعني أن ترحل عنا، ولا نراك مرة أخرى، بل وقد تتزوج من احدى الأميرات؟ "

لكنه كان يرد عليها من فوره، وهو ينظر لعينيها:



" -ومن قال أنني سأرحل عنك، حين أعود أميرا سأكون بحاجة لأميرة أتزوجها، وستكون سلمى أميرتي الجميلة التي تعيش معي الي أخر الزمان "

كانت حينها تبتسم في حياءٍ، وقد تضرج وجهها بالدماء، فلا تقدر على النظر اليه مرة أخرى لوقت طويل. لكن القاضي، وبعد أن كبرا قليلاً، وعلم بسرهما الصغير، منعهما من الاختباء في تلك الحجرة مرة أخرى، بل وجعلهما يقسمان أمامه أنهما لن يدخلاها ثانية، إلا لو حدث جلل ما .

وقال حسام الدين في رقه :

"-توقعت أن تكوني هنا مختبئة منهم، فكان هذا المخبأ هو أول مكان أبحث عنك فيه "

ثم زفر في توتر، وهو يكمل :

"-حين رأيت ما حدث للبيت، وكيف اختفى منه الخدم والجواري، كدت أموت قلقا عليك، وأنا أخشى أن يكونوا قد قبضوا عليك أنت الأخرى، اندفعت نحو ركن المكتبة، وفتحت الحجرة فوجدتك هنا في الظلام ترقدين على الأرض، لكن لماذا أنت بمفردك؟ ولماذا لم تصطحبي جارية ما إلى هنا كي تؤنسك؟ "

"-لقد سطوا على كل العبيد والجواري، فقط تركوني لأرى أبي مصلوباً تنهشه الكلاب، ويأكل الطير من لحمه، ويسترق الناس النظر على جثمانه العاري، يا الهي! لا أصدق ان يكون مصير القاضي هكذا "!

ثم قبضت على كف حسام في رجاء، وقالت :

"-أفعل شيئا لأبي يا حسام، من حق القاضي أبو الفضل أن يحظى بقبر يوارى جسده فيه "



"-سوف افعل يا حبيبتي، اقسم لك أنني لن أرحل من هنا دونك، ودون جسد القاضي "

"-وماذا ستفعل ورجال الشرطة يحرسون جثمانه، ويحيطون بالدار؟ لا تورط نفسك في المزيد من المشاكل "

"-لا تخافي علي، لست هنا بمفردي، ثم أن لدي خطه "!

(19)

تصاعدت الرائحة المتعفنة من الجثة المصلوبة للقاضي، والتي راحت حدتها تزداد قوة مع استمرار القيظ الشديد، حتى مع حلول الظلام، فمسح أحد الحارسين المكلفين بحراستها أنفه، وزفر في ضيق مغمغماً:

"-رائحة نتنة وقيظ وعرق لزج، ليرحمنا الله! وكأنما ألقوا بنا في جوف قبر، أو أتون مشتعل. "

ابتسم صاحبه، وحك ذراعه، ليذهب اثر عضة ناموسة، وأجابه :

و "-نسيت الناموس، وهذا لعمري عذاب بمفرده، لا أدرى لماذا نقوم نحن بتلك الأعمال القذرة في كل مرة، وغيرنا يمرح في الحانات مع جاريات حسان، وشراب بارد منعش، ونسيم بارد".

لمح الحارس الأول كلباً يرمقهما بحذر، قبل أن يدور حول نفسه، ويتشمم الهواء، ثم يزحف ببطء وحذر، نحو الجثمان المصلوب، ليلعق من قدميه الدماء المتخثرة دون أن تبتعد عيناه عن الحارسين، ثم قال:



" -لأننا مستجدان، وحتي يأتي من هو أحدث منا، سنظل نحن من يقوم بتلك الأعمال الحقيرة القذرة، بالمناسبة، ألا تشعر بالجوع؟ "

"-والعطش أيضا، أتعلم ما اتمناه الأن، أتمنى أن أكون جالساً أمام النيل أتناول شرائح البطيخ المحلى بالعسل، ثم احتسى البوظة الباردة بعدها، قبل أن أرقد على الحشائش، وأنام "

ثم ألقى الحارس الأول بحجر نحو الكلب، وبالكاد أخطأه، فعوى الكلب وهو يعدو مبتعدا عن متناول يد الحارس، قبل أن يقف أسفل شجرة توت، ويعود ليرمق الجثة في اشتهاء بانتظار أن يغفل عنها الحارسان أو يرحلا. كانت الكلاب قد اعتادت مذاق اللحوم الأدمية، مع كثرة الجثث التي كانت تُقتل وتُصلب كل يوم، حتى أصابها التوحش والسُعار، فراحت تعقر الأهالي حين تجوع .

وهمس الحارس الأول لزميله:

" -ربما كان في هذا البيت ما يؤكل، ما رأيك لو يدخل أحدنا، ويبحث عن أي طعام هناك "

أطلق الحارس الثاني سبة وبصق، قبل أن يجيب :

"-أحمق انت لو اعتقدت أن المغاربة حين ينهبون بيتاً يتركون فيه بعدها ولو كسرة خبز، إنهم أقذر لصوص يا رفيقي، ولو قدروا لحلموا الجدران والأبواب معهم وهم يرحلون، أتحداك لو تركوا مجرد شربة ماء داخل البيت، كم أشعر بالشفقة على تلك الفتاة، لا أدرى ما سوف تفعله الأن؟"

تطلع الحارس الأول نحو البيت الرابض في الظلام، دون أن يلوح منه أي شعاع ضوء وقال:

"-على ذكر الفتاة، أليس غريبا أنها لم تظهر منذ الظهيرة، لم تفتح أي نافذة، والأن وقد حل الليل، لم توقد ولو شمعة داخل الدار، ربما كان علينا أن نطرق الباب لنتأكد أنها بالداخل "

"-والي أين قد تذهب، ونحن هنا منذ الصباح، حتما مازالت تشعر بالذعر، وربما تختبأ في حجرة ما، وهي ترتجف من الخوف والجوع والعطش "

رمق الحارس الأول جثة القاضي العارية، ولاحظ أن الكلب راح يتسلل بحذر نحوهم ثانية، فقطب حاجبيه له، وقال :

"-أنت محق، اين يمكنها ان تذهب؟ "

مضى بعض الوقت بعدها، ثم ظهر شاب قوى البنيان، قادم من أول الشارع، كان يتحرك بشيء من التسكع، وشعر الحارسين بالتوتر وهو يجتاز البيوت، حتى توقف أمام جثمان القاضي المصلوب، فرمقه بلا مبالاة، قبل أن يقول للحارسين :

"-جثمان من هذا؟ "

شيء ما في لهجته الباردة بدا غير مريح، فقال الحارس الثاني في خشونة:

"-لا شأن لك يا هذا. امض في طريقك، وابتعد. "

"-ليس قبل أن تجيب سؤالي " ,

هنا قال الحارس الأول، وهو يخرج سيفه من جرابه، ويتجه إليه وهو يرفعه نحوه:، في تهديد

"-ربما تود أن تلحق به يا هذا، ولا تدري كم يسعدني فعل هذا، لو لم تبتلع لسانك، وتذهب بوجهك القميء هذا من هنا. "



بدا أن الشاب غير مبال بالسيف المشهور في وجهه، ومازالت الابتسامة الهادئة على وجهه وقال باستخفاف:

" -هل ستقطع رأسي لمجرد أنني أسأل، ماذا ستفعل إذاً لو اخبرتك انني هنا كي أخذ ذلك الجثمان معي؟ "

تبادل الحارسان النظر في غير فهم للحظة، قبل أن يشهر الحارس الثاني سيفه هو الأخر، ويدفعه نحو الشاب ، ويهتف في صرامة :

"-اذهب يا هذا من هنا في الحال، اذهب أو نقبض عليك."

تراجع الشاب خطوتين للوراء ورفع ذراعيه، وهو يقول في استسلام زائف :

"-يبدو أن المزاح لا يروق لكما أيها الشُجَعان، حسنا سأرحل، لكن لا تغضبا "

قالها ثم أولاهما ظهره للحظة، قبل أن يستدير نحوهما ثانية، وهو يشهر سيفه هو الأخر في وجهيما، ويكمل:

"-وربما ستكونان من يستجديا الرحيل بعد أن انتهى منكما."

توتر الحارسين وتبادلا نظرة سريعة، ثم اندفعا نحوه بسيفيهما معا، فتلاقت السيوف في رنين يصم الآذن، ومن خلف النوافذ المظلمة نظر حسام الدين إلى القتال الذي بدأ، ثم التفت الي سلمى، وقال :

"-لقد حان الوقت، سوف اخرج لمساعدة نجم الدين، إنه ذلك الشاب الذي يقاتل الحارسين، بينما تتسللين أنت من خلفنا، وتهربين إلى هذا الطريق، ستجدين عربة تجرها الخيول في انتظارك، أما الشاب الذي يقودها فَيُدعى عمر، فقط اصعدي العربة، وسوف يساعدك عمر على الهرب. "

"-وماذا عنك؟ هل ستبقى هاهنا؟ "



"-بالطبع لا، سوف ألحق بك بعد أن نتخلص من الحارسين، ونحصل على جثمان سيدي القاضي، لندفنه."

"-خذ حذرك وعد لي سالما".

"-لا تقلقي، والأن لنتحرك، لا أريد أن يتغلب الحارسين على نجم الدين، وهو بمفرده في مواجهتهما."

ثم غادر حسام الدين البيت شاهراً سيفا أمده به الشيخ محفوظ، وصرخ بقوة ليجذب انتباه الحارسين له..كان نجم الدين يقاتل الحارسين بمهارة، وهو يتلقى بسيفه سيف واحد منهم، قبل أن يتفادى سيف الأخر برشاقة، وقال فور أن ظهر حسام الدين :

"-كل هذا الوقت كي تظهر، خشيت أن تظهر بعد أن يكونا قد ظفرا بي!"

وجه حسام الدين ضربة قوية للحارس الأول، تلقاها الأخير على سيفه وقد كاد يسقط منه، وهتف حسام الدين :

"-انهما مجرد حارسين، ظننت أنك لست بحاجة للمساعدة"

اسقط نجم الدين سيف الحارس الذي يقاتله، بضربة قوية، وهو يجيب بسخرية :

"-يمكنك أن تعود لمخبئك ثانية، وتراقب كيف أتغلب عليهما!"

رفع الحارس كفه مستسلما، بينما لاحظ حسام الدين سلمى، التي ارتدت عباءة سوداء فضفاضة، وراحت تعدو من خلفه، حيث أشار، فدفع الحارس الذي يهاجمه بقدمه في صدره، ليوقعه قبل أن يعاجله بضربة من سيفه ليُسقط سيفه هو الأخر، ويقول له :

"-استسلم أيها الحارس، فلا أرغب في قتلك."



استسلم الحارس على الفور ورفع ذراعيه فوق رأسه بلا تفكير، في الواقع كان الحارسان سيئ التدريب، ولم يكن قتالهما بحاجةٍ لمهارة كبيرة للتغلب عليهما. دفعهما نجم الدين الي البيت، وهويقودهما بسيفه، وقال لحسام :

"-خلص جثمان القاضي من قيوده بسرعة، عشرات العيون من حولنا قد رأتنا، ولابد أن بعضهم من البصاصين، وحتما سوف يظهر الحراس في أي لحظة."

ثم دخل البيت المظلم، لحبس رجلي الشرطة في احدى حجراته، وحين عاد كان حسام الدين مازال يجاهد لتخليص قدم القاضي، من مسمارضخم يثبته بالخشب، فتحرك لمعاونته قبل أن يظهرمن بعيد، بعض رجال الشرطة فوق خيولهم، وهما يندفعون نحوهم في سرعة، بينما احتشد الأهالي حولهم دون أن يتدخل أي منهم في ما يحدث. انتهيا من تخليص جثمان القاضي من الخشب، فحمله حسام الدين، وحمل نجم الدين رأسه بين كفيه، وهتف :

"-من هنا يا حسام الدين."

تبعه حسام الدين وهو يحمل جثمان القاضي الذي بدا خفيفاً بغرابة شديدة، وفي منعطف ضيق بين البيوت، وقف فرسان في انتظارهما، امتطى نجم الدين الأول واندفع به في الظلام، بينما رفع حسام الدين جثمان القاضي فوق سرج الحصان الثاني، وامتطاه بسرعة، وانطلق هو الأخرخلف نجم الدين وغمغم لفرسه:

"-هيا انطلق كالريح يا صديقي!"

لكن رجال الشرطة طاردوهم في إصرار، وفي شوارع المحروسة المظلمة، جرت المطاردة العجيبة، ثلاث من رجال الشرطة السفلية فوق خيولهم، يطاردون رجلين يحملان جثمانا ورأس. من حسن الحظ أن الشوارع في تلك



الساعة كانت خالية من الأهالي والمارة، فلم يكن أحدهم ليجرؤ على مخالفة أمر الخليفة والذي عاد وحَرم قبل أيام العمل ليلاً من بعد صلاة العشاء، وأطلق رجال الشرطة بعدها، ليقبضوا على كل من يظهر في الشارع بعد صلاة العشاء، فيجلدونه او حتى يصلبوه.

أما نجم الدين فقد همهم في سخرية، وهو يحث فرسه على الاسراع :

"-ميتان يحاولان إنقاذ جثمان ميت، لكنه قد استراح من الدنيا، أما نحن فأمامنا احتفال مبهج لو سقطنا في أيديهم، أيرضيك هذا يا صديقي؟!"

اقترب أحد رجال الشرطة منهم، وأطلق صيحة قتال هادرة، وهو يلوح بسيفه، كان حسام الدين في المؤخرة، وشعر بالسيف المنطلق من خلفه نحو عنقه، فانحنى بسرعة، فمرق السيف من فوق رأسه في نفس اللحظة، وحين استقام ثانية، وجد رجل شرطة آخر يحاصره من الناحية الأخرى، وهو يحاول أن يصيبه بسيفه. حاول حث الفرس على زيادة سرعته، بأن صرخ فيه، وهو يضرب بطنه بكعب قدميه:

" أسرع يا صديقي، سيقتلوننا لو سقطنا في أيديهم."

لكن الفرس كأن يعدو بسرعته القصوى بالفعل، تفادى للمرة الثانية ضربة سيف رجل الشرطة الثاني، بأن تراجع بصدره للخلف، وشعر بالنصل الحاد يمزق قميصه ويصيب جلد صدره، لكن الإصابة كانت خفيفة. كان من المستحيل أن يبقى الامر هكذا، وخاصة وقد تجاوزه رجل الشرطة الأول بفرسه، وبدا وكأنه يرغب في قطع طريقه ومحاصرته، فهمس حسام الدين في سره :

"لا مفر من القتال، وإلا أوقعوا بي!"

لكنه كان يمسك اللجام بكف، بينما تُمسك اليد الأخرى بجثمان القاضي. وسمع نجم الدين يصرخ وقد سبقه بمسافة كبيرة :



"-دع الجثمان واهرب يا أحمق."

لكنه قال بصوت منخفض، رافضا الفكرة :

"-لا، لن يكون هذا أبداً ."

وترك اللجام وقد ضغط على بطن الفرس بفخذه ورفع سيفه بتلك الذراع، فتلقى على نصله ضربة جديدة من رجل الشرطة الثاني، لكن الفرس اضطرب، حين وجد رجل الشرطة الأول يقطع عليه الطريق، فحاول الدوران حوله في نفس اللحظة، التي حاول حسام الدين فيها مهاجمة رجل الشرطة الثاني.

كانت حركة مزدوجة، وفي اللحظة التالية سقط جثمان القاضي على الأرض، بينما انزلق جسد حسام الي من فوق الفرس، فحاول القبض على اللجام لينقذ نفسه من السقوط، لكن رجل الشرطة الأول، كان ذكيا فضرب اللجام بسيفه ليقطعه، فسقط حسام الدين، وراح جسده يتدحرج على الأرض لأمتاروقد وقع السيف من يده هو الأخر.

ومن بعيد رأي نجم الدين كيف سقط حسام الدين فشد اللجام ليجبر فرسه على الدوران للخلف، وهويغمغم:

"-اللعنة، سيهلكنا هذا الشاب بعناده، وحماقته!"

ثم اندفع نحورجل الشرطة الثالث الذي كان يطارده، فاضطرب الأخيرمن ذلك التحول، الذي لم يكن مستعداً له، وسقط من فوق حصانه مع الضربة التي كالها نجم الدين له، فأصابت ذراعه القابضة على اللجام .

هب حسام الدين بسرعة من رقدته، رغم الألم المبرح الذي يشعربه، في كل عظمة من عظامه، ليشعربعمود من الناريسري في ساقه اليمنى، فأدرك أنها قد تَهشمت، لكنه كان يدرك أن الاستسلام للألم، أو التوقف الأن، لا يعني إلا قتله بأبشع وسيلة ممكنة. وحاول رغم الألم، أن يصل لسيفه الملقى على بُعد امتار



منه، بينما اندفع نحوه رجلي الشرطة، وقال الأول في ظفر، وقد مال من فوق الفرس نحوه، وهو يستعد لضربه بسفه:

"- مرحبا أيها المصري القاتل."

ألقى حسام الدين بنفسه على الأرض في اللحظة المناسبة، لينجو من ضربة محكمة كانت تستهدف عنقه، ثم هب بسرعة وألقى بنفسه فوق سيفه والتقطه، ثم رفعه وهو يعد نفسه لضربةً من سيف رجل الشرطة الثاني المندفع نحوه. تلقى الضربة القوية على سيفه، وحاول التماسك لكن قدمه المصابة خانته، فهوى على الأرض، وقد تضاعف الألم فيها. علم أنه لن يقوى على القتال هكذا، وأنه قد سقط بين أيديهم لامحالة، لكنه سمع نجم الدين في اللحظة التالية يصرخ فيه:

" -اثنان خيرمن واحد، فقاتل من أجل حياتك كالرجال أيها الشاب"

التفت بسرعة نحوه فرآه يندفع نحو رجل الشرطة الأول، وهو ينحني ليتفادى ضربة من سيفه، في نفس اللحظة التي هوى فيها على قوائم فرس الشرطي، بجانب السيف فهوى الفرس بالشرطي على الأرض، ونجم الدين يواصل حديثه :

"-إنه لك من غيرفرسه، فلا تخذلني يا حسام الدين، وتغلب عليه "

اتقد حسام بالعزيمة، وقبض على سيفه بقوة، واندفع نحو الشرطي الذي كان يكافح للخلاص من سرج الفرس العالق به. بلغه حسام الدين فهوى فوق رأسه بالسيف فشج خوذته، ثم هوى مرة ثانية نحو عنقه فقطعها، وسمع من خلفه نجم الدين يصرخ :

" -كلا، يا حسام الدين، لا قتل!"



لكن الامر قد انتهى، لو لم يقتله لقضى عليه ذلك الشرطي، وخاصة مع ساقه المكسورة. التفت إلى نجم الدين، الذي نجح بسهول في التغلب على رجل الشرطة الأخير، وأسقطه من فوق فرسه، ثم هوي فوق رأسه بجانب السيف، فأفقده الوعى، قبل أن يعود إلى حسام الدين، ويقول :

"-هل أنت بخير؟ "

"أعتقد أن ساقي قد كسرت ".

"-لا بأس، يعرف الحكيم كيف يعالجك، لكن دعنا نذهب "

قالها وصفر لفرس حسام الهارب فعاد من بعيد، بينما تحرك حسام الدين نحو جثمان القاضي، فقال له نجم الدين :

"-كلا، اذهب أنت، وسأحمله أنا هذه المرة."

ثم تحرك نحو الجثمان، وهبط من فوق حصانه، ورفعه في نفس الوقت الذي امتطى فيه حسام الدين الفرس الأخر بصعوبة بالغة .

نظر بعدها لنجم الدين فوجده ينظر للناحية الأخرى في توتر، فنظر حيث ينظر ليرى سحابة من الغبار الأسود تلوح من بعيد. كانت تندفع نحوهم، وقد توهجت في قلبها سيوفا من نار تضطرم، فهتف في قلق :

"-ما هذا؟ "

"-خطر أبشع من اسوأ كوابيسك يا حسام الدين، إن الفرسان قد جاءوا "

"-أي فرسان تقد؟، هل هم جنود الشرطة؟"

"-إنهم فرسان الظلام أيها الذكي، هل تذكر رجال القرافة المهذبين، الذين طاردونا قبل يوم، إنهم هم، ولهذا علينا الفرار الآن أيها العبقري، لو شئت أن تعيش ليوم أخر!"



(20)

بدا الوجوم على وجه القائد، حسين بن جوهر الصقلي، قائد جيوش الخليفة، وهو يدخل حجرة ست الملك، وأحنى رأسه لها محيياً، فقالت له :

"-مرحبا بالقائد المخلص بن القائد العظيم، الذي فتح مصر، وجاء بنا من أقصى بلاد المغرب، لنتمتع بفيئها وخيرها، مضى زمن دون أن تفكر في زيارتنا أيها القائد، رغم انك تعرف قَدرِكَ في نفوسنا."

"-إنها الحروب يا مولاتي، القرامطة كحية بألف رأس، كلما قطعنا لهم رأس، نبت لهم رأس آخر في مكان جديد، والطامعون في هيبة الدولة، لا يكفون عن الشغب."

"-لكنك تتنصر في كل مرة كما عهدناك، والناس في بر مصر تهتف بحياتك، مثلما هتفت بحياة أبيك من قبل."

" -الناس تحيا بفضل مولاي الخليفة، الحاكم بأمر الله، ولا تهتف إلا له يا مولاتي، ما نحن الا عبيده !"

رمقته بإعجاب وهي تبتسم، مازال يجيد فنون الدهاء، والردود المنمقة، ولا يتحدث بالكلمة إلا بعد أن ينتقي حروفها بتأن، أشارت له بالجلوس، ثم جلست قبالته وقالت:

" -الناس تهتف لأخي لأنها تخافه وتخشاه، الناس تنظر إلى سيفه وسوطه، أكثر مما تنظر إليه. "



نظر اليها في حذر، محاولا استنطاق وجهها، وما يداريه خلف ذاك القناع الهادئ. هل تكون ثَورة غضبٍ جديدةٍ من الأخت الكبيرة على الأخ الأصغر؟ فلأعوامٍ كثيرةٍ، كان هورجل الخليفة الأول، وأكثر من يعرف طباع الحاكم بأمر الله وأخته ست الملك، ولهذا كان يدرك أن أي محاولة لذم الخليفة أمامها، مهما بالغت هي في قدحه، لحماقة لن تغتفر. لا أحد في هذا العالم يحب الخليفة مثلما تحبه ست الملك، ولا أحد يهتم لأمره أكثر منها، لقد كان حاضراً تلك السنوات الأولى، التي تولى فيها الخليفة الحكم، وهو بعد صغير، وكانت ست الملك هي الحاكم الحقيقي، وقد نجحت بحنكة ودهاء في الحفاظ على ذلك الملك الواسع، حتى بلغ الخليفة الرشد وأمسك بالحكم. إن خبرته الطويلة في هذا القصر الكبير، علمته أن يسمع أكثر مما ينطق، فلا شيء في هذا القصر الكبير يحفظ الرؤوس فوق الأعناق ، مثل أذن كبيرة ولسان أخرس!

ولهذا لم يجبها، وكانت ست الملك تتوقع هذا، فصبت له شراب باردا من ماء الورد المحلى بالعسل، ومدت الكأس نحوه، وقالت :

"-والأن أيها القائد أخبرني، ما الذي يقوله الناس عن الخليفة؟ "

"-لا شيء ذا بال مولاتي، الناس لا تتحدث عن الخليفة إلا بالخير. "

ضحكت في غير تصديق، وقالت بتهكم:

" -أجل، إنهم يتغنون بعدله، ويسألون الله أن يمد في عمره، ويطيل حكمة، أجل ! لا شك أن الناس تلهج بالدعاء له، ولا شك أن الشنق والسلخ والصلب والجلد والضرائب الباهظة، من الأمور التي ينتظرها الرعية بشغف من الحاكم، أليس كذلك؟ "

لم يرد حسين بن جوهر الصقلي، وابعد بعينيه عن عينيها اللوزيتين الواسعتين، لكنها اتجهت حيث ينظر لتواجه عينيه واستطردت في حنق:



" -هلا تخليت عن ترددك وخوفك لمرة واحدة، يا بن جوهر الصقلي، أخبرني بصدق ما يقوله الناس عن أخي، أم تراك لا تعلم، وترغب في أن أخبرك أنا بما يقولونه؟ "

ارتشف القائد بعض شرابه، وأجاب بهدوء:

" -مولاتي كما عهدتها، تعرف دائما ما يجهله الأخرون ".

"-أجل، ولهذا أرسلت إليك، هل تعلم أن الرعاع يتهمون أخي بالجنون؟ "

"-وهل يجرؤ أحدهم على قول هذا، أخبريني بمن قال هذا، وسآتي لك برأسه، قبل أن تفارقي مجلسك هذا."

رفعت كاسها نحو شفتيها، وشربت بعض شرابه، هي الأخرى، قبل أن تقول :

"-لن تكفى سيوف جيشك كلها لتذبح كل من يتحدث، لقد أضحى الخليفة هو من يدفعهم إلى قول هذا، ولا يتحمل وزر هذا أحدٌ غيره، لا أدرى ماذا يدور في رأس أخي، ليصدر كل يوم قانوناً عجيبا، يُضيق به الناس معاشهم، أويثير به سخريتهم وحنقهم، لقد منعهم عن العمل نهاراً، ثم عاد ومنعهم من العمل ليلاً بعدها بأيام، والأن يأتي ويبدل في الآذان، ويمنعهم من اطعمتهم التي يحبونها ويهين النصارى واليهود ويلزمهم بلباس سخيف، كثياب المهرجين، ويأمرهم ألا يمتطوا الدواب كالآخرين، بل عليهم لو ركبوها، أن تكون وجوهم للخلف نحو اذناب الخيول والحمير، يا لرب علي وفاطمة! هذه قسوة ما أقدم عليها أحدٌ من الغابرين، ولعمرى لم يكن أبونا ليقوم بواحدة من تلك الحماقات"

مرة أخرى لم يعقب، رغم علمه بصدق كل حرف مما قالته، فما فعله الخليفة كان عجيبا بحق. ولو اتهمه الناس بالخبال فمعهم كل الحق. الرجل منعهم من أكل الملوخية، ومنعهم من تناول الحلوى، ثم أرسل الرجل مناديه في كل البلاد يأمرهم ألا يبيعوا الأسماك ولا يشتروها، ثم عاد ليأمرهم بالامتناع عن



أكل البطيخ، أما عن اليهود والنصارى فما قام به لم يفعله خليفة قبله، ففقد الزمهم بلون اسود وزي موحد غريب، وأن يضعوا الطراطير فوق رؤوسهم، وألا يركبوا البغال أو الحمير إلا ووجوههم نحو أعقابها، ثم ضيق عليهم في الرزق، ومنعهم من الاحتفال بأعيادهم، ومنع كنائسهم ومعابدهم من دق أجراسها، كما منعهم من الاشتغال في وظائف كثيرة، وكل من خالف أمراً من تلك الأوامر، كان مصيره التجريس والحبس والغرامة والجلد، بل وحتى القتل والصلب .

"أجل يا سيدتي، أنا خيرمن يعلم أن الخليفة مجنون، لكن سيفه أقرب من عقله حين يغضب، ولهذا تطير الرؤوس في هذا البلد كل صباح، أكثرمما تطير غربانه"

حدث القائد حسين نفسه بهذا، قبل أن يقول لست الملك:

" -ربما يقوم بتلك الأشياء لحكمة نجهلها. "

"-بل يقوم بتلك الأمور لفساد في عقله، ماذا بك يا رجل، ولماذا تخاف؟ أنا أخته وأكثرمن يعرفه، وأنا أخبرك أن أخي قد أصابه الخبال. "

كانت تصرخ في غضب، وكان هذا أكبرخطأ قد يقوم به أحد في القصرالكبير، فالخليفة وغيره لا ينقصهم الجواسيس، والبصاصين والمتلصصين في المكان، وكل همسة تتجاوز الحلق تبلغ أذنه بسهوله، وهو لا يحب بالطبع، أن يصل لأذن الخليفة، أن اخته قد اتهمته بالجنون في حضرة قائد جيوشه دون أن يرد عليها، ولهذا هب من مكانه، وقال :

"-هل هناك ما ترغب مولاتي في قوله أم انصرف؟"

"-هل عملت بما يزعمه الخليفة أيها القائد، الخليفة يرى نفسه إلها، ويأمر أتباعه بالسجود له، ألم يصل اليك الخبر بعد، أم وصل اليك، ولم تجد في نفسك غضاضة مما يفعله؟ "

بالطبع قد علم منذ اللحظة الأولى بهذا، وبالطبع كان في قرارة نفسه يَعُد هذا كفرا وشركا بالله. لن يسجد له أبداً، وفي نفس الوقت لن يعارضه في العلن، ليعبده من يحب، وليصدقه كل أحمق يهوى هذا، لكنه لن يفعل. ومرة أخرى لاذ بالصمت، فنظرت ست الملك الي عينيه وقالت :

"-أخشى أنني قد أخطأت في طلب الرجل، الذي كنت انتظر أن يكون في صفي في تلك الأيام العصيبة، ظننتك ستكون ذراعي أيها القائد."

"-ضد من يا مولاتي، ضد الخليفة؟"

"-بل ضد الهراء الذي يملأ عقل الخليفة، إن وظيفتك الأولى ليست محاربة الجيوش الخارجية قد ما هي الحفاظ على بقاء الخلافة، الحاكم بأمر الله تخطى كل حدود العقل، والأن يتحدى الناس في معتقداتهم، ويطالبهم بعبادته، هل تعتقد أن هذا الشعب الذي استقبلنا بحفاوة، لأننا من آل البيت، سيصبرعلينا حين نطالبه أن يدع ايمانه بالله، ويعبد حاكمه؟ "

بالطبع سيتبعه البعض، لكن الغالبية لن يفعلوا وسوف ينقلبون عليه، بل وقد يثورون. كما أن هناك الخليفة العباسي في بغداد، الذي لن يسعده خبر في هذا العالم، أكثر من خبر كهذا، ليرسل الخبر في كل بلدٍ، أن الخليفة الفاطمي قد أشرك بالله، وأن الفاطميين يدعون الناس لعبادتهم. حينها لن يكون بحاجة لجيوشه للتغلب على الفاطميين، فالمصريين بأنفسهم سيتكفلون بهذا الأمر قبل أن يسلموه أبواب القاهرة بنفوس راضية، إن ست الملك محقة بالطبع، لقد صار الخليفة هو الخطر الأول على الدولة الفاطمية كلها.

نظر القائد اليها بتردد ثم قال:



" -أنا مع مولاتي بالطبع في سعيها للحفاظ على هذه الدولة، التي ساهم أجدادي في بنائها والحفاظ عليها، المشكلة أن البلاد تجابه خطر جديد، هل سمعت مولاتي ب(أبو ركوه)

"-ومن في البلاد بأكملها لم يسمع عنه، إنه مجرد أحمق، يعتقد أنه بقادر على هزعرش الخليفة."

"-لكن اتباعه يتكاثرون من حوله في كل لحظة كجيش من النمل حول تل من السكر، ومدن الشمال كلها صارت في قبضته."

"- لكنك ستقضي عليه بلا شك، أنا متأكدة من هذا"

"-ليس الامر بتلك السهولة يا مولاتي، الرجل خطير وأتباعه من حوله كالجراد، ومولانا الخليفة مازال يستخف بأمرهم، ويتجاهلهم حتى هذه اللحظة "

"-لن يهدم الدولة رجل واحد كأبو ركوه هذا أو غيره، لكن الخليفة سيفعل بما يقوم به."

"-إذاً ماذا تريد مولاتي، مريني وسأفعل."

تنهدت ست الملك بارتياح، وقد أدركت أنها قد بلغت مأربها، فقالت :

"-علينا في البداية أن نتخلص من الشيطان الذي يوسوس له "

"-هل تقصدين ..."

قالها في تردد، فأجابت مقاطعة إياه:

"-أجل! إنه مفرج بن دغل الحراج، الشيطان الذي يدعو نفسه، بالشيخ الأسود"



نظر اليها في تردد للحظة، قبل أن يقول لها في صوت خافت :

"-لكن قبل هذا، هناك سر أرغب في أن أخبر مولاتي به "!

(21)

اضطرب الفرس أسفل حسام الدين، وبالكاد نجح حسام الدين في السيطرة عليه، ملأ الرعب قلب حسام الدين وهو يستعيد ما رآه في القرافة، الاشباح الثلاث المتشحة بالظلام والرداء الأسود، والجثث الثلاث التي اشتعلت فيها النار، ثم دبت فيها الحياة ثانية. تساءل في فزع ماذا لو أدركونا؟ وهل يمكنك أن تقاتل رجل ميت، أو حتى شيطان حل محله؟ انهم موتى بالفعل، فكيف يمكنك أن تقتلهم؟

نظر للخلف فرأى الفرسان الستة، وهم يشقون الظلام فوق خيول ستة سوداء كالفحم، وهي تقترب منه في سرعة، فصرخ في نجم الدين الذي كان يسبقه:

"-سوف يبلغونا، إنهم أسرع منا، وخيولهم أقوى من خيولنا "

أجابه نجم الدين دون أن يلتفت، وقد انحني نحو عنق فرسه، وثبت جثمان القاضي بإحكام بجسده، فوق ظهر الحصان:

"-بالطبع سيصلون إليك، لأنك تنظر للخلف طوال الوقت، دع عنك خوفك، وانظر أمامك يا أحمق وأسرع، هذا هو طريق الخلاص الوحيد أمامك. "

حث حسام الدين فرسه كي يسرع وهو ينحني نحو أذنه:



"-أسرع بالله عليك يا صديقي، هؤلاء ليسوا كرجال الشرطة. إنهم ملاعين! "

لكن الفرس كان يعدو بأقصى سرعة ممكنة، بينما شق صفحة السماء المظلمة لسان من البرق، بدا وكأنه أتى من العدم قبل أن يهوى نحو الأرض كشواظ من نارليضرب الأرض على يمين حصان حسام الدين. هنا رفع الفرس قائميه الأماميين بغتة في الهواء، وهويصهل في اضطراب، فسقط حسام الدين من فوقه على الأرض، ورغم الألم العنيف الذي يشعر به في قدمه المصابة والكدمات الكثيرة التي انتشرت في جسده، الا أنه نهض بسرعة، ونظرللخلف في جزع. كان فرسان الظلام الستة يعدون نحوه بلا هوادة، وقد صار بلوغهم إياه مسألة وقت لا يتعدى الدقيقة. بينما واصل نجم الدين الابتعاد عنه بفرسه دون أن يلتفت إليه وكأنما قرر ألا يتدخل مرة أخرى لإنقاذه.

رمق السيوف المشتعلة التي بين أيديهم، فأدرك أنه الموت لا محالة. نظر حوله في يأس، وهو يفتش عن مهرب، لكن أقرب البيوت إليه، يبعد نحو ثلاثين متراً كاملةً، وبقدمه المهشمة هذه يحتاج لجهد هائل كي يعتمد عليها، وفي الناحية الأخرى كان هناك منحدراً ترابياً حاداً، لم يفكر طويلا وزحف بسرعه نحو المنحدر، والقى بجسده من فوقه، في نفس اللحظة التي بلغه فيها أول الفرسان، وهويضرب الهواء بسيفه المشتعل فوق رأسه. شعرحسام الدين بلفحة النيران تحرق جلده، رغم أنها لم تلمسه، فزفرفي فزع، وهمس:

"سيوف من نيران حقيقة، سيوف شيطانية "

، ثم راح جسده ينزلق ويتدحرج في المنحدر الترابي، وعشرات الحصى والحجارة تصطدم به في عنف، وقدمه المكسورة تلتوي أسفل منه ليتجدد الألم العنيف، فراح يصرخ بأعلى صوته، شعر أن وقت طويل مضى وهو يتدحرج



ويهوى دون أن يبلغ نهايته، لكنه في النهاية بلغ الأرض ثانية حين شعر برأسه ترتطم بصخرة حادة ليتفجر الدم منها، ويسيل فوق عينيه ووجهه. مسح الدماء بكفه، وهويحاول الوقوف. لكن قدمه المصابة لم تطاوعه هذه المرة، فالألم كان مريعا. زحف ببطء ويأس وهوينظر لأعلى المنحدر، كان هناك فارسين من فرسان الظلام هناك، وقد وارهما الظلام، لكن سيفيهما الناريين اخبراه بمكانهما، فتساءل في هلع :

"-هل يهبطان المنحدر، أم لا يقدران على هذا وأين ذهب الباقون؟"

كان المنحدرزلقاً وحاداً، ومن المستحيل أن يهبطه فرس عادي، لكن هؤلاء شياطين، وربما كانت خيولهم شيطانية مثلهم. لو فعلوها ووصلوا اليه فهي النهاية، هذه المرة لن يقاوم أويحاول الهرب. نظرحوله في فزع فلم يرى شيئا في الظلام المحيط به، وإن اشتم رائحة عطنه من حوله. فكرفي أن يزحف ويبحث عن ملاذ ما، لكن الي أين يذهب وهولا يرى أي شيء، في تلك العتمة المحيطة به؟ مسح الدم عن عينيه ثانية، ونظرلأعلى فلم يرى الفارسين.

ثم فكرللحظة في سلمى، تمنى أن تكون قد نجحت في الهرب. وفي اللحظة التالية، رأي من بعيد سيفين يتوهجان في الظلام وصاحبيهما يتقدمان نحوه. إذاً فقد وجدا فرسان الظلام، سبيلا للوصول اليه. هب من مكانه رغم الألم ورفع سيفه وانتظر، لو مات فعليه أن يموت واقفا، لا مذعورا كالجرذان. فكر في كل تلك الاحلام التي حلم بها من قبل. أن يتزوج سلمى في يوم ما، وأن يعلم من يكون أبوه وأمه. أن يعلم هل هوولد زنا أم أنه بالفعل أميرأبعدوه عن مملكته؟

كل تلك الأشياء لن تتحقق أبدا بعد الأن، ببساطة لأنه حتما سيموت بعد دقائق قليلة.



خيل اليه أن يسمع نباح كلاب من خلفه يقترب منه، دار حول نفسه محاولا اختراق الظلام بعينه في قلق، قبل أن تظهر الكلاب. كانوا ثلاثة كلاب ضخمة، يعدون بقوة نحوه، وقد كشروا عن أنياب طويلة مخيفة!

"يا الهي، ليس الكلاب!"

اشتعل الخوف في صدره، وتمنى لو يصل اليه هؤلاء الشياطين قبل الكلاب، الموت بحد السيف أهون الف مرة من الموت بأنياب الكلاب. لوح بالسيف نحو الكلاب لكنهم داروا حوله ثم واصلوا طريقهم دون أن يهتموا به، إذاً لم يكن هو هدفهم، ومن قبل الظلام تناهى اليه الصوت الذي تعرفه على الفور :

"-لا تخف يا حسام الدين، الكلاب ليسوا من أجلك، إنهم هنا لنجدتك."

ثم ظهر الشيخ محفوظ، وهو يمتطي فرساً ضخماً. رمقه حسام الدين في حيرة ثم نظر للخلف، حيث راحت الكلاب تبح في عنف وشراسة، وهي تهاجم الفارسين الشيطانين، وكم كان عجيباً أن الفارسين الشيطانين تراجعا امام الكلاب، وكأنما يخشياها. عاد ببصره إلى الشيخ الذي مد ذراعه إليه، وقال له :

"-هل ستظل بمكانك هكذا للأبد يا بني؟ دع عنك ذهولك وتمسك بذراعي واصعد، الكلاب ستعطل هؤلاء الملاعين، لكن ليس لوقت طويل "

قبض حسام الدين على الذراع الممتدة نحوه، ولدهشته جذبته في قوة غريبة، من المستحيل أن يحظى بها عجوز في عمر هذا الرجل، وجد الذراع ترفعه لأعلى في سهولة، وكأنه طفل صغير، ثم ركب خلف الشيخ، الذي قال له :

"-تمسك بي جيداً، ولا تسقط."

لف ذراعيه حول الشيخ الذي استدار بالفرس ثم انطلق. تحركا في الظلام لبعض الوقت، قبل أن يعودوا للطريق ثانية، لم يكن الطريق خاليا، ففي

مواجهتهما كان هناك فارسين اخرين من فرسان الظلام يسدان الطريق علهما، لم يتوقف الشيخ، وصاح فيه وهو يمسك باللجام بذراع، ويخرج سيفه من جرابه باليد الأخرى:

" -قاتل يا فتى من أجل حياتك! "

رفع حسام الدين سيفه بيمناه، وتمسك بجسد الشيخ باليد الأخرى، اقتربا من الفارسين ورأي الشيخ يخفض رأسه كي لا يصيبه سيف الأول، ثم ضرب قوائم فرسه الأسود بسيفة فقطعها، في نفس اللحظة التي صَدّ فيها حسام الدين ضربة من الفارس الأخر بسيفه، كادت تخلع ذراعه، واصل الشيخ اندفاعه للحظة، ثم استدار بالحصان، نحو الفارسين ثانية، فصرخ فيه حسام :

-لماذا لا تهرب؟ "

أجابه الشيخ وهو يضرب بطن فرسه، ليسرع :

"-لا سبيل للهرب من فرسان الظلام، المواجهة هي الحل الوحيد كي لا تموت !"

رأى حسام الدين كيف وقع الفرس الذي قطع العجوز قوائمه على الأرض فوق فارسه، الغريب ان ما راح يخرج من قدم الفرس كان مجرد دخان اسود كثيف وليس دماء، أما الفارس الثاني فقد رفع سيفه المتوهج بالنار، واندفع هو الآخر نحوهما، تمنى حسام ألا يلتقى سيفه بسيف هذا الفارس مرة أخرى، لن يحتمل ذراعه ضربة جديدة منه، وقد يتمزق كتفه أو يخلع، رفع الشيخ محفوظ سيفه ودفعه نحو صدر الفارس، لكن الفارس نجح في التصدي له واطاح بسيف الشيخ محفوظ ببساطة، هنا لاحت لحسام الدين الفرصة فضرب بسيفه عنق الفارس فتدحرج رأسه على الأرض مصدرا رنينا غريباً، وحين استدار الشيخ



بالفرس، وجد حسام الدين الفارس وهو يلوح بسيفه في الهواء من فوق حصانه، رغم العنق المبتور، فهتف حسام الدين :

"-هل قتلته؟ "

"-إنهم لا يموتون بتلك البساطة، أقصى ما يمكنك أن تفعله يا بني هو أن تعطلهم لبعض الوقت حتى تبتعد وتهرب، لكنهم سرعان ما يعودون بعدها "

قالها العجوز ومن جيبه اخرج جرابا فك خيطه الذي يغلقه، ثم نثر محتواه في الهواء حوله، وهو يتمتم بشيء ما، فانتشر دخان رمادي كثيف كالضباب من حوله، وحين اندفع مبتعدا ظل الدخان في مكانه كعائق بينه وبين الفرسان يقطع عليهم الطريق. في الواقع كان تلك التعويذة لتضليل فرسان الظلام كي لا يتعقبوهم ويعلموا أين يذهبون.

وبينما راح الشيخ يبتعد بالحصان، ظل حسام الدين ينظر للخلف طوال الوقت، وهو يخشى ان يظهر الفرسان مرة أخرى.

وفي الخلف ظهر فرس يعدو كالسهم، قبل أن يتوقف بجوار فارس الظلام مقطوع الرأس، ترجل راكبه وأزاح غطاء الراس عن وجهه، كان الشيخ الأسود، تحرك بهدوء نحو الرأس المقطوع داخل خوذته المعدنية، وحمله بكفيه ثم عاد الي الفارس مقطوع الرأس، وناوله إياه، رفع الفارس الرأس وألصقه بعنقه ببساطة، فعاد كما كان. بينما تحرك الشيخ الأسود نحو الضباب وتشمم الهواء من حوله، قبل أن يغمغم :

"-دخان زئبق وتعويذة تضليل وسحر قديم؟! "

ثم نظر الي الطريق المظلم حيث اختفى حسام والشيخ محفوظ، وأكمل :



"-اعرف واحد في هذا العالم يصنع تلك الأشياء، لكنه قد مات كما يقولون، أم تراه يخدعنا كما يفعل دوما؟"

(22)

ظهر التوتر على ابن عبدون النصراني الوزير، فكل شيء من حوله أصابه الجنون، الأسواق قد شحت فيها السلع، حتى صار الرغيف يباع بربع درهم. وتجرأ المجرمون واللصوص وقطاع الطرق، فصاروا يهاجمون الناس في قلب النهار، حتى أضحى معتادا سماع نبأ اختطاف الناس من الأسواق والبيوت من اجل طلب فدية، والمصيبة أن هيبة الشرطة قد ذهبت، ولا يكاد يمضى يوم الا وأحد رجال الشرطة قد قُتل أو أصيب في عراكٍ مع عصابات المجرمين .

كانت الناس تضج بالشكوى، والخليفة هائم في ضلالاته، يتوهم الألوهية، ويبحث عن الأتباع، والأن هناك تلك الهمسات التي يرددها خدم القصر بشأن اختفاء العبيد والحراس والجواري والخدم، مع ما يُقال عن أفعال شيطانية، وسحر أسود يمارسه الخليفة، بمعاونة رجله المقرب المخيف مفرج بن دغل، وكأن هذا ما ينقص.

قبض رجال الشرطة قبل أيام على مجموعة من الشيوخ والوعاظ وهم يجوبون الشوارع، ويؤلبون الرعية على الخليفة، ويتهمونه بالكفر والهرطقة، وأخبره صاحب الشرطة محمد بن نزال أن هناك الكثير غيرهم ممن يجاهرون



بتكفير الخليفة، بل ويستبيحون دماءه، ثم أضاف بن نزال هامسا، وكأنه يخشى أن يسمعه متلصصي الجدران والوشاة :

"-المشكلة أن السجون لن تكفي كل هؤلاء، والتعذيب لا يرهبهم، والقتل في شأن كهذا يجلونه ويشتهوه، انهم يعدونها شهادة في سبيل الله، أو احدى الغزوات ضد الكفر "

كان غريبا أن يتحدث صاحب الشرطة، بمثل تلك الجرأة عن الخليفة، وهو ذراعة التي يفتك بها، نظر ابن عبدون الوزير إلى عينيه، محاولا سبر أغوارها، ليرى ان كان ما يتحدث به الرجل محاولة للإيقاع به، لكنه لم يرى غير الخوف والاضطراب.

ابن نزال خائف؟! انها عجيبة من عجائب الدهر!

وقال ابن عبدون :

"-وماذا عنك يا بن نزال، هل ترى ما يراه الناس في الخليفة؟"

زفر صاحب الشرطة في حنق وغمغم:

" -من المستحيل أن تقنع الناس بأنك إله، هذا اكبر من خيالهم وتحملهم أيها الوزير، هذه المرة أنت تحاربهم في ربهم، ودينهم، ومعتقداتهم، أنت هنا تسلب منهم الجنة التي ينتظروها يوم القيامة، لتعوضهم كل هذا الشقاء الذي يحيونه في دنياهم، يا سيدي الوزير الناس تحتمل بطشنا وحكمنا وتحيا في خضوع، لأنهم يؤمنون أن هناك إله أعلى عادل، قسم الحياة إلى قسمين، للحكام والمتجبرين الدنيا، وللفقراء والضعاف والمخذولين الأخرة، إنهم يعبدون الله ولا يسألونه إلا الأخرة لتكون عوضا لهم عن شقائهم في الدنيا، والأن تسألهم أن يتركوا ربهم الرحيم، ويقبلون بالطاغية كإله بديل، وكأنك تطالبهم أن يفقدوا ديناهم وآخرتهم، هذا كثير!"



"-وكأنك غير خائف يا ابن نزال، هل صرت لا تخشى الخليفة"

قالها الوزير مذهولا.

"-أنا اخشى سيف الخليفة ، لكن السيف لن يمنع الحقيقة يا سيدي الوزير، الخليفة يقودنا لهلاكنا ولا أحد يردعه أو يرده. "

"-وهل هناك ما نفعله؟ هل تعتقد أنه قد يسمع منا؟ "

"-عليه أن يسمع، البلد في فوضى، والناس تعلمت ألا تهابنا، رغم كل الرؤوس التي نقطفها من الأعناق كل صباح، وأبو ركيه قادم من الشمال نحو القاهرة، والناس قد تتبعه وتلفظنا "

"- إذاً اذهب اليه وحدثه، أخبره بكل هذا عله يسمع!"

"-ولماذا لا تفعلها أنت؟ أنت وزيره والرجل الثاني في البلاد. "

"-لأنى مثلك يا بن نزال أخشى سيف الخليفة، لأنني لم أسئم بعد هذه الحياة، ومازلت ألتمس المزيد من الليالي الدافئة، والشراب الحلو والجواري الحسان، يا بن نزال. أتراك تنسى كيف بطش مولانا الخليفة بكل وزير له وقتله"

"-المشكلة هنا أن على أحدهم أن يتكلم معه، وعليه أن يستمع، وإلا هلكنا!"

والآن ها هو ابن عبدون في القصر ليتكلم، بحث عن الخليفة فلم يجده، أخبره الحاجب أنه غادر مجلسه بصحبة رجله مفرج بن دغل. ولما طال انتظاره بالديوان دون أن يظهر الخليفة، كان عليه إما أن يعود أدراجه، ويأتي في وقت آخر، وإما أن يتجه إليه حيث يعتقد أن هناك. راح صوت ملح في عقله يسأله أن يذهب، بل وأن ينسى كل ما أتى من أجله، ظل الصوت يؤكد له أن الله يرعاه، لأن الخليفة غير موجود، وحتى لو كان موجوداً، فهل تراه يصغى للنصيحة ويفيق



من أوهامه، ويلتفت للبلد الذي يتسرب حكمه من بين أنامله كالرمال؟ كان هذا احتمالٌ بعيد، وكان الاحتمال الأقرب أن يسخر منه، أو يبطش به .

غالب تردده وكشر الفضول عن أنيابه في نفسه، فاتجه نحو سراديب القصر، كان يرغب في أن يعرف، لماذا صار الخليفة يذهب اليها كل يوم؟ وماذا يفعل هناك، ولماذا لا يعود أبدا أي من عبيده، وخدمه، أو حتى معارضيه، الذين يذهبون معه إلى هناك؟. هل الهمسات التي ترددها جدران القصر الكبير حقيقية؟ وهل يطعم الخليفة غيلان يحسبها أسفل القصر، بهؤلاء البشر كما يزعم بعض الخدم؟

بلغ البوابة التي تفضى إلى الأنفاق أسفل القصر، وهناك كان أحد الحراس الذين يدينون له بالولاء بانتظاره. همس الحارس وهو يدس المفاتيح في أقفال الباب الخشبي، ويفتحه :

"-الخليفة ليس في حجرات السجون يا مولاي، انه في السرداب المظلم، اتبع المشاعل وأحذر أن تتوه."

هبط الوزير الدرجات الحجرية، ونظر للأنفاق المظلمة أمامه، قبل أن يصلى للمسيح كي يحفظه. ثم تقدم نحو السرداب الذي تضيئه المشاعل الزيتية. تردد صوت خطواته بين الجدران بصورة مرعبة، وراحت دقات قلبه تتعالي، حتى شعر بأنها صارت مسموعة كالطبول. شق طريقه بحذر وهو يرمق متاهة الأنفاق الجانبية المظلمة. وطال سيره دون أن تلوح أمامه نهاية للسرداب المتوهج بضوء المشاعل.

من المستحيل أن يكون لمثل هذا النفق كل هذا الطول؟ شعر أن هذا النفق يمتد أسفل القاهرة والفسطاط بأكملهما، متى حُفر مثل هذا النفق وكيف، ولماذا؟





هذا لغزأخر!

لكنه وبعد أن طال الوقت، توقف وقد أدرك شيء مخيف، لقد مر بتلك البقعة من السراديب منذ قليل، فمازال يذكر جيدا شكل هذا المشعل الغريب المختلف عن باقي المشاعل، حيث تم تصميمه ليكون على شكل رجل مصلوب تخرج النار من رأسه، كما أن الجدار الحجري من خلفه، كان ممتلئا بنقوش تظهر رجال طوال يرتدون عباءات سوداء تغطي كل جسدهم، وهم يحيطون برجل مقطوع الرأس يجلس فوق قائم حجري، ورأسه إلى جواره، وقد خلا وجهه من أي ملامح.

كان متأكداً انه يرى نفس المشعل، ونفس الجدار، ونفس النقوش، إنه يرى كل هذا للمرة الثالثة. لقد لفتت انتباهه واثارت فزعه في المرة الأولى، وحين مر بها ثانية، قرر أن يترك علامة على الجدار كي يعرفها، لو مر على نفس الجدار مرة أخرى، خدش بظفره الجدار بجوار الراس المقطوع ليحفر صليباً صغيراً، والأن ها هو يقف أمام الجدار، وهو ينظر إلى الصليب الذي رسمه بجوار الرأس.

نظر حوله في توتر، وهو يصلى بسرعة للعذراء كي تحفظه وترشده في هذا الظلام، ثم نظر برعب حوله، حيث تمتد الكثير من الأنفاق الجانبية المظلمة كالشر نفسه، قبل أن يشعر بالخطوات القادمة من الظلام ناحيته. نظر حيث أتي الصوت ليرى تلك العيون الحمراء الكثيرة، التي تنظر نحوه من قلب الظلام. كانت عيون شياطين بلا شك. شهق في فزع وراح يعدو، ومن كل نفق جانبي يمر عليه، كانت الهمسات تلاحقه، لم يجرؤ على الوقوف، أو النظر الي أي نفق يمر به، وظل يعدو حتى تمرد عليه قلبه، وآلمه صدره، فتوقف رغماً عنه ليلتقط بعض أنفاسه، هنا سمع صوتاً كالهسيس، قادماً من أحد الأنفاق المظلمة بجواره، فنظر في اعياءٍ ويأسٍ، ليرى زوجين من العيون الحمراء يرمقانه بثبات، تراجع بظهره في رعب، ليسمع من خلفه صوتا بارداً مخيفاً:



" -هل يخشى الوزير الظلام؟ "

التفت في سرعة ليجد نفسه بين ذراعي مفرج بن دغل، الذي راح لهب المشعل يتراقص في عينيه، شديدة السواد، بينما ظهرت على شفتيه ابتسامة مميته، شعر الوزير بألم عنيف في صدره، وبدوار رهيب يكتنف رأسه، راح يعب الهواء إلى صدره، وهو ينظر للشيخ الأسود، قبل أن يبتعد عنه لخطوتين فقط. ووجد الرجل المخيف يقول ثانية:

" -يلوح لي أن الوزير القوى، قد فقد كل بأسه وشجاعته، حتى لأخشى أن يبلل سرواله الداخلي من الفزع، يا للأسف، هل أفزعك ضيوفي المستترين بالظلام؟ "

حاول الوزير التماسك والتحدث، وبالكاد خرجت من حنجرته الكلمات:

" -أي شيء أنت؟ "

أطلق الشيخ الأسود ضحكة مخيفة، تردد صداها في الأنفاق، قبل أن يميل نحوه، ويجيب:

" -ألا تعرفني يا وزير الخليفة وذراعه الأيمن، ألا تعرف يا ابن عبدون النصراني، مفرج بن دغل، أو الشيخ الأسود كما يقولون؟ لقد التقينا غير مرة يا رجل، فهل نسيت أم تدّعي النسيان؟ "

" -وأين مولاي الخليفة؟ ماذا فعلت به، وأين أخفيته؟ "

أشار الشيخ الأسود للأنفاق المظلمة، وهو يجيب :

" -إنه في مكان ما في هذه المتاهة أيها الوزير، وصدقني لن يسرك أن تراه في هذه اللحظة، أو تشاهد بعينك ما يفعله، لا أعتقد أنك قد تحتمل شيء كهذا! "



تراجع ابن عبدون ثانية ليرى أمراً مفزعاً آخر. فالخيال الذي ارتسم للشيخ الأسود على الجدار من خلفه كان لا يشبه جسده أو هيئته. رأس الظل على الجدار كانت أضخم، والأنامل تنتهي بمخالب طويلة معقوفة. كما كان هناك القرنان الصغيران فوق الرأس. نظر للظل في رعب. قبل أن يقول ثانية ،

"-من أنت يا هذا؟ أنت شيطان بلا شك."

هنا شعر الوزير بأنامل الرجل الباردة كالجليد فوق ذراعه. وهو يجيب :

"-من المؤسف أن شرفا كهذا. لم أنله. أو أدعيه أيها الوزير. لست شيطاناً لسوء حظي! "

شعر بيده وهي تتجمد أسفل يد الرجل. فنزعها من كف الشيخ الأسود في ألم وهلع. وصرخ وهو يدلكها ليدفئها:

"-من انت يا هذا؟ "

"-تكرر نفس السؤال أيها الفاني بلا مللٍ والأولى بك أن تفكر في حالك. ألم تدرك أنك قد فقدت الطريق. ولا سبيل للعودة. ألم تلحظ أنك لن تعود ثانية أيها الوزير ؟"

نظر ابن عبدون حوله. فرأي عشرات العيون الحمراء في ظلام الأنفاق وهي تنظر إليه في ثبات. أدرك أن ما يقوله هذا اللعين صحيح. لقد انتهي امره وحتما لن تتركه تلك الشيطان يعود أدراجه وقد رآها. هنا استجمع شجاعته وقرر أن يكون ثمن موته كبيرا. سوف يقتل هذا الشيطان الرجيم. قبل أن يموت. استل بسرعة السيف المعلق في حزامه. ورفع نصله نحو عنق الشيخ الأسود وهو يقول :

"-ربما كان الموت مصيري. لكنك ستموت قبلها أيها الملعون. "



ثم هوى في اللحظة التالية بالسيف على عنق الشيخ الأسود فتدحرج الرأس على الأرض في نفس الوقت، الذي خبت كل أضواء المشاعل في النفق فجأة، لتغرق السراديب في الظلام الذي لم يقطعه إلا العيون الحمراء. دار الوزير حول نفسه في توجس، وهو يضرب بسيفه الفراغ، وكأنما يحارب عدواً خفياً، قبل أن يرتفع في الظلام، صوت الشيخ الأسود وهو يقول:

" -مغرور كباقي البشريا بن عبدون، حين تظن أن سيفك قادر على اهلاك الشيخ الأسود، يؤسفني أن تعلم أنني لن أموت قبلك ".

أدرك الوزير النصراني النهاية القادمة، ودون سبب واضح تذكر ذلك الوعيد الذي أطلقه في وجهه قسٌّ هزيل قادم من دير بعيد في الصحراء، ولا شيء يغطي جسده إلا ثوبا مهترئا من الصوف:

" -لا مكان لك في ملكوت السماء أيها الوزير، لن يقبلك الرب مهما فعلت "

كان يدرك سبب الوعيد ومناسبته، لقد نفذ أمر الخليفة ومنع النصارى من أبناء ملته من إقامة عيدهم وطقوسهم، ثم بطش بكل من أظهر مراسم الإحتفال منهم. وفي اضطراب تساءل، هل يبطش به الرب في السماء مثلما سوف تبطش به الشياطين في الأرض بعد قليل؟

وفي اللحظة التالية أحاطت مخالب قوية بذراعه القابضة على السيف ونزعته من يده رغما عنه، قبل أن تحيط به عشرات الحيوانات الصغيرة وهي تنهش لحمه بأنيابها الحادة.

أدرك في اللحظة الأخيرة أن ما يهاجمه في الظلام هي جرذان ملعونة، في أعداد ضخمة، وحين حاول ان يلتقط نفسا أخيرا لم يستطع، فقد كانت هناك يد داخل صدره في تلك اللحظة تنتزع قلبه !



(23)

قبع فرسان الظلام الستة في الظلام أمام أحد الجدران في سُكونٍ وجُمودٍ كالعادة، بينما راح الشيخ الأسود، يتحرك داخل الحجرة المظلمة الواسعة في شرود، كان يفكر في كل ما يحدث، وكان أكثر ما يقلقه تلك المواجهة التي تمت منذ قليل بين فرسان الظلام، وأولئك المجهولين الذين يحمون حسام الدين، حتماً قادهم حسام الدين للمكان، كي ينقذوا الفتاة، ابنة القاضي المقتول، وإن كان قد أدهشه، إصرارهم على الحصول على جثمان القاضي، رغم ما يحمله هذا الأمر من مخاطرة كبيرة.

"-تتمتع بحظ وافر يا حسام الدين، لكن، هل يلازمك هذا الحظ حتى النهاية؟ "

غمغم في صوت هامس، قبل أن يُردِف :

"-لكن السؤال، من هؤلاء الذين استعنت بهم، ويحموك يا حسام الدين؟ "

كان الإجابة حاضرة، لكن عقله ظل يرفضها بإلحاح، هل يكون الشيخ محفوظ وجماعته؟ لكن هذا مستحيل، فذلك العدو اللدود قد اختفى منذ سنين، وانتشر الخبر أنه قد مات، ولو لم يكن ميتاً، فلماذا لم يظهر حين بحث عنه رجال الخليفة كي يقضى على شر القرافة ثانية. فقد ظل الشيخ محفوظ، هو العقبة الكبيرة والوحيدة، التي تمنعه من استدعاء أسلافه، فرسان الظلام الستة.

كانت هذه هي المرة الثالثة التي يحاول فيها بعث فرسان الظلام واستدعائهم من عالمهم البعيد. المرة الأولى كانت في خلافة المعزلدين الله والثانية كانت في عهد العزيز بأمر الله. وفي كلا المرتين فشل بسببه. لم يصدق في المرة الأولى أن الأرض



مازال بها رجلاً يملك كل هذا السحر والقوة، وفي المرة الثانية كان مستعدا له بسحره، بل ونجح في قتل ابنه، لكن الشيخ محفوظ كان أقوى مما يعتقده، ونجح في منعه من استدعاء الفرسان ثانية. هذه المرة كان مستعدا له، بأعوان من الجان، ومردة، وطلاسمٍ لا تقهر، لكن الرجل لم يظهر، ولم يعترضهُ حتى أحداً غيره. هل هناك دليل أقوى من هذا، على أنه قد مات، أو حتى أصابه الضعف والعجز، فلم يعد قادرا على القتال .

لكن ماذا عن دخان الزئبق، الذي أعاق فرسان الظلام في القرافة حتى هرب حسام، وماذا عن تلك الكلاب، التي هاجمت فرسان الظلام؟ من غيره يعرف، أن الكلاب هي الحيوان الوحيد، الذي لا يخشى فرسان الظلام، ويقدم على مهاجمتها بلا خوف كباقي الحيوانات. هذا أمر لا يعلمه أحدٌ، غير ذلك المشعوذ العجوز.

كان الاحتمال الثاني، أن من يقوم بهذا ساحر أخر من أعوانه. أمر محتمل ! ففي النهاية يهتم كل ساحرٍ، بنقل تعاليمه إلى ساحر أصغر، كي لا تذهب مهاراته مع موته. فهل أورث الشيخ محفوظ ساحرهُ الجديد مهاراته فقط، أم منحه علمه، وكُرهُه للشيخ الأسود، وفرسان الظلام، وما يخطط له؟

رفع سبابته في الفراغ، فتوهجت النيران على الجدران، وهو يهتف:

"-علينا أن نَعلمَ أيها السادة من يكون هذا العدو، مثلما علينا أن نقبض على حسام الدين، فبدونه لن يتم الأمر!"

لم يجب الفرسان، واتجه الشيخ الأسود نحو وعاءٍ به ماء رائق، دار بإصبعه فيه فاشتعل الماء، دون أن يخرج إصبعه منه. راح ينظر فيه ويبحث، أين حسام الدين، وأين الشيخ محفوظ، أو حتى أين تختفي تلك الجماعة السرية؟ لم يرى



في اللهب المستعرشيء، بل راحت غيوم رمادية تتكاثف وسط النار، حتى همدت النيران، وعاد الماء لصفائه .

"-سحر مضاد قوي، وسيلة فعالة للتخفي!"

غمغم في احباط، واستطرد:

"-قلبي يحدثني، أنه أنت أيها العجوز اللئيم، وعقلي يرفض، يبدو أنه لا مفر من اللجوء للطرق القديمة !"

ثم رفع ذراعيه عاليا، وهتف بصوت قوى والدخان يخرج من وعاء الماء الذي أمامه :

"باسم الأرواح القديمة، والعهود الموثقة بالدماء، آمركم أن تدعوا جحوركم وأوكاركم وأن تأتوني من فوركم"

ردد الفرسان الستة، النداء خلفه، ومن بعيد ارتفع، وقع خفقان أجنحة، ودبيب أقدام، وبعد لحظات دخل الحجرة، المئات من الجرذان والغربان والصقور والعقبان، لم يعد هناك موقع قدم في الحجرة فارغ في تلك اللحظة، رمقهم الشيخ الأسود جيشه الصغير في رضاً، ثم هتف فيهم :

"-تعرفون ما عليكم فعله، ابحثوا عن هؤلاء، فتشوا عنهم في الصحاري وقمم الجبال وقاع الوديان وقلب المغارات، أريد خبراً عنهم قريباً !"

وفي الفراغ تجسد شبحان يحملان وجه حسام الدين والشيخ محفوظ، تعلقت عيون الجرذان والطيور بها للحظة، وحين اختفى الشبحان، انطلق الجيش الصغير لتنفيذ المهمة. مضت لحظات حتى عاد الهدوء للحجرة، وفي اللحظة التالية توهج الجدار الشمالي للحجرة بأكمله، وقد اشتعلت فيه النار بغتة، التفتت كل الرؤوس إليه، وحين صارت النيران فيه مضطرمة كالجحيم،



ركع الشيخ الأسود فركع فرسان الظلام خلفه، ومن قلب اللهب خرج ذراع من نار أشارت بسبابته نحو الشيخ الأسود، وهتف صوت رهيب:

"-أقترب الوقت أيها الشيخ الأسود"

"-أجل يا سيد الظلام، نعلم هذا، ونتجهز له ليل نهار. "

"-وماذا عن الفتى؟ "

"-سنجده قبل اكتمال القمر "

"-لا أخطاء هذه المرة أيها الشيخ الأسود، والا انتهى السبعة. "

"-لا أخطاء يا سيد الظلام ."

ومن خلف الشيخ الأسود، ردد الفرسان الستة في صوت واحد :

"-لا أخطاء يا سيد الظلام."

ران الصمت للحظات، وبدا وكأن الزمن نفسه، قد تجمد، ومازالت اليد النارية ممتدة خارج الجدار الذي يتلظى باللهب، ومازال الشيخ الأسود وفرسان الظلام من خلفه راكعين لا يرفعون رؤوسهم، وبعد لحظة تجسد داخل الجدار الناري جسدا ضخما من نار لصاحب الذراع، ثم تحرك نحو الغرفة، وتجسد للحظة خارج الجدار، وقال منذرا :

"-لقد حان عهدي، فلا تنسوا أيها السبعة، لقد سئمت الانتظار!"

ثم تراجع الجسد نحو الجدار، وانحسرت النيران في غمضة عين، قبل أن تعود الغرفة لظلامها، ظل الشيخ الأسود راكعا رغم هذا في احترام لبرهة، ثم نهض، وردد في شرود :



"-لا أخطاء هذه المرة، ولن ينتهي السبعة لأي سبب، حتى لو فنيت الأرض بأكملها."

هنا دق باب الحجرة، فاتجه الشيخ الأسود نحوه، وهو يردد :

"-الخليفة ما عاد بقادر على قضاء حاجته، دون طلب الشيخ الأسود "

ثم فتح الباب ليطالعه وجهٌ شاحبٌ لحارسٍ في مُقتبل العمر، رأى الخوف في عين الحارس الزائغتين، وهو يختلس النظر للغرفة الحالكة السواد خلف ظهر الشيخ الأسود قبل أن يقول، بصوت مرتجف :

"-مولاي الخليفة يأمرك بالمثول بين يديه، يا سيدي "

اظلم وجه الشيخ الأسود وهتف في وجه الحارس الشاب، في غضب :

"-لم يعد خليفة أيها الأحمق، انه إلهك الأن "

ارتجف الشاب، وتسرب البلل الي سرواله الداخلي، وهو يجيب في رعب :

"-أجل يا سيدي، إنه مولاي الإله، اعتذر بشدة، لقد نسيت "

ابتسم الشيخ الأسود في رضا وهتف :

"-أحسنت أيها الشاب !"

(24)

من قبل، لم يكن يعتقد، أن هناك ما هو أكثر عذوبة من القوة والبطش، والأن يتعلم بعد كل هذا العُمر، أن المعرفة أكثر حلاوة وإثارةً، وتمنحه من النشوة أكثر مما يمنحه صراخ المعذبين، وآهات المحتضرين، وذل الخاضعين.



المَعرفةُ كالسحر في النفوس، حقيقة تجلت له مع قدوم الشيخ الأسود، ليدرك أنه ضيع السنوات الماضية من عمره، في هراء .

كان الحاكم بأمر الله، يجلس في حجرته الجديدة، التي اتخذها لنفسه في قبو القصر الكبير. فما يقوم به من أعمال رهيبةٍ، لا يجب أن يشعر بها أحدٌ ما. إنه عمل يحتاج للهدوء، والعزلة. وتلك الحجرة الحجرية المظلمة، توفر له كل ما يحتاج اليه .

الغرفة مظلمة، لا يبدد سوادها، إلا شمعتان حمراوين، وبالكاد أظهر ضوئها الشاحب، النقوش المرسومة على الجدران والأرض، بينما غطت الدماء كل بقعة في المكان، والحاكم بأمر الله الذي يحتضن جثة جارية رومية يستنطقها .

أخبره الشيخ الأسود، وهو يعلمه هذا العلم الجديد، أنه فن استجواب الأبدان. الألسنة قد تكذب، والعقول قد تنسى، لكن الجسد لا يكذب ولا ينسى. فقط عليك أن تلقي تعاويذك في الظلام، وتخط بالدم الطلاسم اللازمة. ثم تنتظر شراب المعرفة المُقدم في قعر جمجمة بشرية، من يد شيطانٍ، يأتيه من قلب خاتمه الذي يرتديه، بينما حذره الشيخ الأسود من النظر إلى ذلك الشيطان مهما حدث .

وهكذا صار يُتقن هذا العلم. صار يأتي بالجارية أو العبد، ويُدخله الغرفة ثم يقوم بالطقوس، ويرشف الشراب الدموي، لتستيقظ فيه رغبة عارمة في تذوق الدماء، واشتهاء غير عادي للحم البشري، ينقض على الضحية المذعورة حينها، وينهش عنقها حيث يرتشف منه الدماء بنهم الوحوش، ومعه تنساب ذكريات الضحية إلى عقله، يرى حياتها السابقة كلها. طفولتها ومرحها وحزنها وعشقها الأول، الأب الذي كان يبطش، والحروب التي تَذل وتقهر، وتاجر الرقيق الذي ينهش البدن ويقتل الحياة في الروح، قبل أن يبيعها في السوق كالبهائم .



رأى بعينه قصص الحب الخفية التي كانت، ويشعر بالمشاعر الحلوة والسيئة وكأنها حدثت له، يبتلع الالسنة، فيعلم كل ما نطقته من قبل، ويرتشف المخ فيرى ما توارى فيه من أسرار. رأى أماكن لم يسمع عنها يوما، وذهب بعقله في رحلات كثيرة إلى الأحراش والغابات، وهو يستجوب جثمان عبد افريقي. رأى أسواق الخمر والنبيذ، وتشمم رائحة العذبة، وتذوق طعمه الحلو، وهو يرتوي من جسد تلك الجارية الرومية التي قتلها قبل قليل. يا لتفاهة البشر حين يعتقدون أن الجنس هو اقصى ما يمكن أن يحصلوا عليه من أجساد النساء، لو جربوا طقوس النكرومانسي تلك، لعلموا أن الحياة تخبئ في جعبتها دوما الكثير من الأسرار التي تستحق أن يقاتل المرء من أجلها .

أحضر له الشيخ الأسود في المرة الأخيرة مومياء متحللة، تنتمي لملكٍ قديم حكم مصر قبل آلاف من الأعوام، أرقدها في منتصف الحجرة، ثم فك أربطة الكتان من فوقها حتى ظهر الجسد الضامر المتحلل المتشبع بالروائح العطرية الزيتية، التي لم يختفي أثرها بعد، وقال الشيخ الأسود :

"-أرى أنه قد حان الوقت ليتعلم مولاي الأسرار القديمة، جاء الوقت ليستجوب مولاي الموتى."

يومها رمق الجثمان في تأفف، وغمغم بلا رغبة :

"-لا تعتقد أنني قد أقترب من هذا الجثمان المتعفن، هذا محال!:

أجابه الشيخ الأسود بهدوء :

"-هذا الجسد المتعفن يحوى من العلوم والأسرار، أكثر مما تعرفه مدينة كاملة من الأحياء، إنه من الفراعنة، ملوك مصر القدامى. وهؤلاء الملوك القدامى كانوا أول من حكم الأرض كآلهة يا مولاي، إنهم آلهة الأرض الأوائل. "

"-لو كانوا آلهة ما ماتوا "!



"-كانوا آلهة، لكنهم لم يتعلموا كيف يحافظون على هبتهم هذه، لينالوا الخلود "

"-وماذا عني؟ هل سأعرف الخلود؟ "

"-ولهذا أنا هنا يا مولاي، حان الوقت لتعرف الأرض إله لا يموت، لكن لكي تنال الخلود عليك ان تعرف الأسرار القديمة، عليك أن تتقن فنون السحر والشعوذة، وعليك أن تستدعي فنون الموتى، عليك يا مولاي، أن تعرف كيف تَكشف كل تلك الأسرار، صدقني يا مولاي مازال هناك الكثير مما يجب أن تتعلمه، لتنال الخلود. "

"-وهل تنطق جثث الموتى، وقد تعفنت؟ "

"-الموتى لا يعرفون الكلام يا مولاي، لكن الرجل العليم بالفنون المناسبة يمكنه دفع الجثث للغناء"!

ثم انحنى الشيخ الأسود نحو الجثمان البالي، وفتح فمه الضامر، وباليد الأخرى التي تحمل خنجره العجيب، قطع اللسان المتحجر، ثم رفعه نحو الحاكم بأمر الله، وقال وعيناه تتسعان:

" -تناول هذا يا مولاي، وانظر ماذا ترى؟"

ورغم كل النفور الذي يحس به، وجد الحاكم بأمر الله نفسه، يمد يده نحو اللسان المتعفن ويلتقطه ويضعه في فمه، تجاهل المرارة الهائلة وخشونة سطحه وصلابته الشبيهة بالحجر، وراح يمضغه في بطء. هنا غلت الدماء في رأسه، وارتفعت حرارة الخاتم في اصبعه، وراحت النقوش تتلوى، وتتشكل في هيئة جديدة، ثم راحت الرؤى تتسلل لخياله، رأى بعقله ملك قوى حليق الرأس يحكم من فوق عرش من الذهب الخالص، رأى أسرى يسجدون أمامه، قبل أن



تلتهمهم الأسود، أو يلقون في البحيرات لتأكلهم التماسيح. رأى جواري عاريات الخصر يرقصن في افنية المعابد، وشاهد الكهنة وهم يمسحون جسده بالزيت ويأمرون الأتباع بعبادته. رأى سحرة ومشعوذين، يرفعون الأحجار العظيمة بعيونهم، و ينقلون الجبال من أماكنها بعصيهم، ورأى الكهنة وهم يطيرون في الهواء، ويسيرون فوق الماء.

ثم رأى ذلك الملك بتاج مزدوج من اللونين الأبيض والأحمر، وهو يصرخ في وجه الحشود العظيمة امام القصر، ويقول بلغته القديمة :

"-أنا ربكم الأعلى "!

رفع الحاكم رأسه، نحو الشيخ الأسود فقابلته، ابتسامته الواسعة الدائمة، ووجده يقول بنفس اللغة القديمة التي ترددت في عقله منذ لحظة:

"أنا ربكم الأعلى "!

كانت نفس الكلمة التي كان الملك يقولها. وعاد الشيخ الأسود ليقول بالعربية ثانية:

"- إنها اللغة القديمة يا مولاي، لغة هذا البلد الأولى، والتي كانت لغة السحر الأولى، لقد عرف هذا البلد السحر الحقيقي في زمنه الأول، كما لم تعرفه الأرض بعدها في أي زمن، واتصل هؤلاء الملوك، بالكيانات القديمة، والشياطين العظيمة والعوالم الأخرى، وما نقوم به الأن هو أن نستنطقهم لنتلقى منهم أسرارهم القديمة. "

"-وهل فعلتها من قبل يا مفرج بن دغل؟ هل أخذت سحرك ومهاراتك عنهم؟"

"-منهم ومن غيرهم يا مولاي، طوال الوقت كنت استنطق الأحياء الموتى، واتعلم. لم يعد عالم البشر، يحوى الكثير من السحرة العظام، إنهم يطلقون



على ما أفعله، فنون الظلام أو السحر الأسود. وفي أرض أخرى بعيدة، حيث ما زال البشر يعيشون في الغابات والأكواخ، ويرتدون جلود الحيوانات، ويحيون بين الوحوش، يطلقون على هذا العلم بالنكرومانسي أوفن استجواب الموتى "

ثم دار حول الحاكم بأمر الله، وقال :

"-من يتقن تلك الفنون، يمتلك قوى لا قبل لأحدٍ بها يا مولاي، قوى قادرة على قهر الجيوش، وترويض البشر والوحوش ".

فرغ الحاكم بأمر الله، من جثة الجارية الرومية، فمسح الدماء عن وجهه ويديه، وخلع حذائه وملابسه، وارتدى أخرى جديدة. ثم غادر الغرفة، فدخلها عَبدٌ أسودٌ، مقطوع اللسان، كي ينظف المكان. تحرك الحاكم بأمر الله في ظلام القبو دون أن يكون بحاجة كي يستعمل مشعلا، فقد صارت عيناه اكثر حدة فصار يرى في الظلام بسهولة .

ارتقى الدرجات الصخرية، وهو شارد الذهن، ويفكر كيف بدأت حكايته تلك! عاد بعقله، لذلك اليوم الذي غرق فيه في بركة الماء، ذلك الحدث العظيم الذي تبدلت فيه حياته للأبد .

لقد قص عليه الحارس الثاني، الذي بقى على قيد الحياة، ما شاهده يومها، فبعد أن ارتفعت جثته فوق سطح الماء، تبادل الحارسان المكلفين بحراسته، نظرة جزع ورعب هائلة وقد هوى قلبيهما في قدميهما، وفى اللحظة التالية، ألقيا بسلاحيهما واندفعا نحو الماء، ليخرجا جسد الخليفة الغارق من بركة الماء.

لكنهم، وما أن بلغوا حافة البركة المبلطة بالجرانيت، حتى تجمدا في مكانيهما في خوف ورهبةٍ، فمن أسفل الماء كان هناك رجل أخر، غير الخليفة الغارق.



كان هناك رجل يرتدى عباءة سوداء هائلة يخرج من الماء، وهو يحمل جسد الخليفة على ذراعيه بسلاسة، وكأنه يحمل طفلا صغيرا .

من هذا الرجل، ومن أين أتى، وهل يكون من أغرق الخليفة؟

أسرعا نحو سيفيهما والتقطاه في سرعة، ثم عاد للرجل الذي كان يرقد جسد الخليفة، على الأرض بجوار البركة، في تلك اللحظة. وقال أحدهما في صوت مرتجف وهو يلوح بسيفه في وجهه :

"- ابتعد يا هذا عن مولانا الخليفة والا " ..

نظر اليهما الرجل، بوجهه النحيل المخيف ، وعينيه السوداء الواسعة، وابتسم ابتسامة مخيفة تجمد الدماء، وقال بسخرية:

"- وإلا ماذا؟ هل تقتلاني مثلا؟ "

تراجعا للخلف، في توتر ورهبة منه. شعرا في آن واحدٍ، أن هذا الرجل ليس مِمَن قد يجدى السيف معه، كانت هناك لمسة شيطانية في ملامحه، بثت الرعب في نفسيهما، وازداد رعبهما حين لاحظا أن ملابس الرجل غير مبتلة، ولا تقطر بالماء، رغم أنه قد خرج بها من بركة الماء منذ لحظات. كان الرجل يضغط بكفه على صدر الخليفة بقوة في تلك اللحظة، فاستجمع الحارس الثاني بعض الشجاعة، وقال، وهو يتقدم نحو الرجل ثانية:

"- ماذا تفعل يا هذا في مولاي الخليفة؟ "

واصل الرجل الضغط على صدر الخليفة الهامد تماما، وهو يجيب دون أن تفارق الابتسامة وجهه:

"-أحاول انقاذ الخليفة، بينما تعطلاني بأسئلتكما الحمقاء تلك. والأن، هل من أسئلة سخيفة أخرى، أم تدعاني أحاول انقاذه؟ "



هنا لاذا بالصمت في عجز، بينما راح الرجل يضرب صدر الخليفة بقوة، وهو يتمتم:

"- هيا استيقظ أيها الخليفة، أطرد الماء من صدرك وافق، هيا قاوم الموت. "

لكن الخليفة لم يستجب لمحاولات الرجل المخيف، مضى الوقت ببطء، والحارسان يراقبان ما يفعله، دون أن يبدو على جسد الخليفة، أي أثر.

وفى النهاية صرخ الحارس الأول وقد فقد كل رباطة جأشه:

"- دع جسد الخليفة يا رجل، وابتعد. أنت من قتله؟!"

واندفع نحوه في اللحظة التالية بالسيف، غابت ابتسامة الرجل عن وجهه، ورفع كفه في اللحظة التالية، نحو الحارس المندفع نحوه، فتوقف الحارس على الفور، وكأنما وقع أسير قبضة خفية هائلة، قيدته في مكانه، وقال الشيخ الأسود: " يلوح لي أن خليفتكم بحاجة لروح بشرية ليفيق، ومن حسن حظة أن تلك الروح البشرية موجودة بجواره. "

وفي اللحظة التالية، ارتفع جسد الحارس في الهواء، وأفلت السيف من يده، لكن السيف لم يسقط على الأرض، بل ظل معلقا في الهواء، بينما سبح جسد الحارس في الهواء، حتى صار جسده معلقا فوق جسد الخليفة تماما، فحجب أشعة الشمس عنه. جحظت عينا الحارس في رعب، وهو يرى سيفه يندفع نحو عنقه دون أن تمسه يَدٌ، وسمع صوت الرجل المخيف يدمدم:

" حياة مقابل حياة وروح بروح !"

ثم شق السيف عنق الحارس البائس، فاندفعت الدماء، لتغرق جسد الخليفة العاري، تجمد الحارس الثاني، وقد شحب وجهه، بينما فتح الرجل المخيف، فم الخليفة، لتتساقط بعض دماء الحارس الذبيح داخله، وهو يغمغم بينما يضع كفه الأخر فوق قلب الحاكم بأمر الله:



"-تشرب الحياة مع الدماء أيها الخليفة، إنه أكسير الحياة الدائم"

ثم اخرج قنينة زجاجية صغيرة من جيبه، ورفع سدادتها الخشبية، ثم سكب ما فيها داخل فم الخليفة، فتصاعد بخار كثيف من الفم المفتوح. ابتعد الرجل عن جسد الخليفة بعدها، ووقف أمامه ثم رفع كفيه في الهواء وهو يتمتم بتعاويذ غامضة. وبعد لحظات سعل الخليفة، فابتسم الرجل المخيف في رضا.

سعل الخليفة ثانية، ثم فتح عينيه. لم يرى شيئا في البداية، وكأنما حجبت سحابة ما، الرؤية من بصره، وبدا عقله، وكأنما يغلفه ضباب غامض، لكنه، وفي اللحظة التالية استعاد ذاكرته كلها وذهب التشوش من عقله، فتذكر غرقه في الماء، ورأى جسد الحارس الذبيح المعلق في الهواء فوق جسده، ودمائه التي مازالت تسيل على رأسه، فهب من نومه في ذعر، ونظر حوله في حيرة، قبل أن يرى الرجل الواقف فوق رأسه، ويعرفه. إنه الرجل الذي أغرقه !

هنا نظر الي الحارس الثاني، وأشار نحو الرجل المبتسم باستخفاف، وغمغم في إعياء:

" اقبض على هذا الرجل أيها الحارس، لقد حاول قتلي! "

لكن الحارس لم يتحرك، وبدا وكأنما غاب عقله في عالم آخر. بينما انحنى الرجل نحو الخليفة العاري وقال:

"- ربما يعتقد يا مولاي أنني حاولت إغراقك، لكنني في النهاية، مَن أنقذك من موت محققٍ، لو كنت لا تصدقني، يمكنك سؤال هذا الحارس ليخبرك بالحقيقة."

رمقه الخليفة في خوف حقيقي، وراح قلبه يدق في جنون للحظات، وهو عاجز عن الكلام، قبل أن يقول بصوت مرتجف:

"-من أنت يا هذا؟ "



انحنى الرجل في تلك اللحظة، وابتسامته تتسع حتى ملأت وجهه كله، وأجاب:

" -خادمك مفرج بن دغل الخراج، أو كما يدعونني، الشيخ الأسود. في خدمتك يا مولاي."

بلغ الخليفة قاعة الحكم في تلك اللحظة، فأفاق من ذكرياته، نادى على حاجبه، فهرع إليه، وسجد بين يديه، كما يفعل الجميع داخل القصر الآن، ثم رفع رأسه، وقال:

" -مولاي الإله !"

"-هل بعثت في طلب الشيخ الأسود؟ "

"-إنه في الطريق يا مولاي. "

أشار له الخليفة، فانصرف. ثم امتدت يد الخليفة نحو طبق يمتلئ بالفاكهة، التقط تفاحة خضراء، وسكين صغير، وشرع في تقشيرها في شرود، قبل أن يفيق على السكين وقد جرح جلده، فسال الدم. ألقى السكين والتفاحة على الأرض، ونظر الي الجرح العميق في دهشة. لم يكن هناك أي ألم في يده، ثم ارتفعت حرارة الخاتم في إصبعه، وتغيرت نقوشه، وبعد برهة توقف النزيف من تلقاء نفسه، وراح الجلد يلتئم في سرعة، حتى اختفى الجرح في لحظات من كفه. وعاد ليفكر ثانية في تساؤله الدائم :

" هل صار إلهاً حقا ، أم أنه ضحية خدعة كبيرة؟"

كل ما يحدث لجسده يوحى إليه، أنه لم يعد الشخص نفسه، الذي كانه قبل غرقه، وكل ما اكتسبه من قدرات وقوى، يؤكد له أن جسده ليس بشريا أبدا. لا ينكر أن فكرة ألوهيته قد راقت له. من هذا الرجل الذي يرفض أن يسجد الأتباع له في خشوع، ويصلون من أجله؟



لقد فسر له الشيخ الأسود في ذلك اليوم البعيد حقيقة غرقه، ولماذا فعل هذا. اخبره أن ما محدث كان لازماً، كان على جسده البشري ان يتذوق الموت ليفسح الطريق للإله في داخله، ليستيقظ ويكتسب قدراته الكبيرة. زعم الشيخ الأسود، أنه قد مات بالفعل في ذلك اليوم، وأنه بسحره قد أحياه ثانية.

هل هذا ما حدث بالفعل، أم أن الأمر خدعة؟ إنه نفس السؤال الذي لا إجابة له !

هبط من فوق عرشه، وراح يتحرك في المكان ويفكر، ماذا عن الطقوس الباقية، ليتكمل تحوله إلى إله خالد، تلك الطقوس الذي ذكرها الشيخ الأسود من قبل، واخبره أنها لازمة ليفارق ما بقى من ضعفه البشري، ويكتسب قوى لم يعرفها بشري من قبل؟!

وحين سأل الشيخ الأسود عن ماهية تلك الطقوس أجابه في غموض:

"- لم يحن وقتها بعد، ليتحلى مولاي بالصبر، ويثق في عبده الضعيف. "

دخل حاجبه في تلك اللحظة، معلنا مجيء الشيخ الأسود، الذي تقدم بابتسامته المعهودة، وانحنى برأسه قليلا، وقال:

"- هل طلبني مولاي؟ "

عاد الحاكم بأمرالله إلى عرشه، واتكأ على مسنده المعدني البارد، وقال:

"-هناك ما أريد أن أتحدث إليك بشأنه، يا بن دغل. "

لم يعقب الشيخ الأسود، واكتفى بهزرأسه، فواصل الحاكم حديثه:

"- الوزيرابن عبدون النصراني غائب منذ الأمس، ولم يذهب إلى ديوانه، أو داره، اعتقدت أنك ربما كنت تعلم بشأنه."

"لقد خان الوزيرمولاي، وتآمرعليه، فنال عقابه ".



"أقتلته؟ "!

"وهل قتلت أحداً قبله يا مولاي؟! لقد قتلته خيانته وخداعه، وأرجوا ألا يُحِزنُ هذا مولاي !"

نظر اليه الحاكم بأمر الله، بلا تعبير على وجهه لبرهة، ثم أطلق ضحكة طويلة ، وقهقه قائلا:

"- ربما كان ما يحزنني أني لم أشهد موته. لكن دعك من هذا، إن مقعد الوزارة بانتظار من يجلس عليه الأن، وأرى أن تكون انت وزيري. "

اتسعت ابتسامة الشيخ الأسود، وقال بمكر:

"- وهل أغضبت مولاي ليعرض علي هذا المنصب، لقد هلك كل وزير استخدمه مولاي بسيفه، ومازلت أرغب في الاحتفاظ بعنقي لأعوام أخرى. "

عاد الحاكم ليقهقه في نشوة وقال:

"- أنت محق يا بن مفرج، كما أنى مازلت بحاجة لرأسك. حسناً، لنبحث عن أحمق آخر، ليكون الوزير."

ثم صمت برهة، قبل أن ينهض من مكانه، ويهبط العرش ويقول:

"- أنبأني صاحب الشرطة، أنه لا أحد خارج القصر يؤمن أني إله. "

"سيفعلون يا مولاي، سيفعلون."

"أراك متأكدا من الأمر. "

"لأن ما يحتاجه مولاي هو دعاة يأمرون الناس بعبادته، ، ومعجزات عظيمة تبث الخوف في النفوس، وتدفع المتشككين للإيمان بلا تردد. "

"لست أفهم حديثك أيها الشيخ الأسود، هلا فسرت كلامك؟"



"لا أحتاج إلا لثقة مولاي، وسيرى بعينه ما أعده به. "

"وماذا عن أبو ركوه؟ يزعجني القائد، الحسين بن جوهر الصقلي بشأنه، كما أخبرني أنه قد انتصر على حملتين عسكريتين، أرسلهما قائد الجيوش، للقضاء عليه."

"انه خائن آخريا مولاي، والخونة مصيرهم معروف."

فهم الحاكم بأمر الله ما يقصده فقال:

"- هل ستقتله؟"

"الشيخ الأسود لا يقتل، ما يقتل هؤلاء هو خيانة مولاي!"

(25)

كانت سلمى تبكي طوال الوقت، وقد تقوقعت حول نفسها في وضع جنيني، وهي تشعر بذعر غريب من كل شيء حولها. منحها هؤلاء الغرباء الذين أنقذوها، كوخاً خشبياً من حجرة واحدة، وفراش كبير واحد، تقاسمته مع فتاة في مثل عمرها، تدعى جميلة، وإن كان وجهها لا يحمل أي شيء من اسمها. كانت الفتاة كثيرة الكلام، لا تعرف الصمت، وراحت تصب في أذنها الكثير من الحكايات والقصص، أخبرتها أنها يتيمة الأب والأم، وأن الشيخ محفوظ هو من أتى بها هنا وهي طفلة، لتعيش وسط تلك الجماعة الغريبة من البشر. كما أخبرتها أن حسام الدين، قد أتى أكثر من مرة، للكوخ ليطمئن عليها، لكنها كانت نائمة.

لم تعقب سلمى، فتنهدت جميلة، وقالت في لؤم :



"-أرى أنه يهتم بك، لكنك لا تملين إليه، وربما، لن يغضبك لو جربت حظي معه، إنه شاب جميل."

ورغم دبيب الغيرة في صدرها، إلا أن سلمى لم ترد عليها. ثم جاء صوت حسام الدين، من الخارج، وهو يهتف :

"-سلمى، هل استيقظت؟ "

نظرت جميله اليها بنظرة ثاقبة، وقد التمعت عينيها، وهتفت في إثارة:

"-يبدو أن فتاك الوسم قد أتى ثانية، سوف اخرج له. "

أشاحت سلمى بوجهها بعيدا عين عينيها، وتمتمت:

"-أخبريه أن يذهب، لا أريد رؤية أي أحد."

"-ولماذا لا تخبريه بهذا بنفسك؟ سوف أدعوه للدخول، وقولي له ما شئتِ. "

ارتفع صوت حسام الدين ثانية، وهو يصيح:

"-سلمى، هل أنت هنا؟ ردي علي من فضلك."

فخرجت إليه جميله، وتطلعت إليه، في جرأة، وقالت وهي تتنهد:

"-مرحبا بك ثانية، أيها الفتى الوسيم."

أجابها حسام الدين في ارتباك من جرأتها، وهو يتحاشى عينيها:

"-هل استيقظت سلمى؟ "

"-أجل، لكنها مازالت تبكي!"

"-أريد أن أراها."

"-وهل منعتك، لكن تذكر، أن هناك من ينتظر إشارةً منك، لو صَدتك "



قالتها وهى تتنهد للمرة الثانية، فدخل حسام الدين بسرعة، ليفر من ملاحقتها، بينما ظلت عينا جميلة معلقة به حتى اختفى بالداخل، قبل أن تتحرك مبتعدة عن الكوخ، وهي تردد:

"-يا لحظ الفتاة، لا تفتقد للفتنة، وهناك فتى وسيم كالأمراء يعشقها، يا للحظ!! "

وفى الداخل، توقف حسام الدين أمام الفراش، وهتف منادياً سلمى، التي دفنت وجهها بين كفيها:

"-حبيبتي، هل أنت بخير؟ "

رفعت سلمى وجهها، ونظرت إليه بعين دامية، وردت:

"-وأين هذا الخير يا حسام الدين؟ هل تراه في أي مكان حولك، وقد قتل أبي، وخرجت من داري؟ "

" -لكنني معك يا سلمى!"

ضحكت في مرارة، ضحكة لا يعرفها حسام الدين، وصاحت:

"-وأين كنت حين قتل القاضي، يا حسام الدين، بل، وأين كنت حين هاجموني في البيت؟ كنت هناك بمفردي، وكنت أنت بعيدا. "

أدار حسام الدين ظهره لها في أسف وحزن، وقال وهو يغالب دموعه:

"-مازلت أتمنى لو مت أنا وعاش القاضي، لو كنت أعلم أن هذا ما سوف يحدث، لسلمت نفسي للمغاربة، وما فكرت لحظة في الهرب."

"-وهل تجدي الحسرة الأن؟ أم تراها تعوضني خسارتي؟ "



كانت تحدثه بجفاءٍ وحِدةٍ، لم يعتدها. أين تراها ذهبت سلمى الرقيقة، التي لا يعرف وجهها غير البسمة الجميلة، والكلمة الحلوة؟

استدار اليها ثانية، ونظر إلى دموعها الغزيرة، ثم اقترب من الفراش، وهمس:

"-سلمى، هل تتزوجيني؟"

ضحكت بعد أن رفعت حاجبها الأيمن، قبل أن تجيب متهكمة:

"-الأن تقولها يا حسام الدين؟ الأن وبعد أن مات القاضي؟ "

أدمى قلبه تعليقها الأخير، وكأنها قذفته بخنجر حاد، هل تعتقد أنه يستغل ظروفها وموت أبيها، ليظفر بها؟ أم هل تشكك في حبه وعشقه لها؟ ليت كان بإمكانه أن يبوح لها بما في صدره من ألم دفين، لم ينقطع عنه ليومٍ واحدٍ في عمره. كان أكثر ما يرغب فيه، هو أن يعرف من يكون أبواه؟ كان كثيرا ما يسأل القاضي، وكان القاضي في كل مرة يجيبه بنفس الجواب:

"-أنت ابني الذي لم أنجبه، ألا يكفيك هذا؟ "

"-وماذا عن أبي و أمي يا سيدي القاضي، ماذا عن أهلي؟ من حقي أن أعرف. "

"- ربما كان الخير في ألا تعرف من هم! "

"-وما هو الخير في أن أجهل من أكون، ما هو الخير في أرى العيون وهي تنظر نحوي، في نفور وكأنها تتهمني أني قد ولدت سفاحاً، وانني ابن زنى؟ "

هنا غضب القاضي، واحتقن وجهه، ثم صرخ:

"-لا تقل هذا عن أمك، ألا تعرف شرع الله؟ أربعة شهود أو الجلد أيها الفتى التعيس، هذا جزاء قذف المحصنات، وأنت قد اتهمت أمك بالزنا بلا دليل "



"-وأين هي أمي يا سيدي القاضي؟ "

كان يرى التردد في عين القاضي، حينها ويرى كيف يتحاشى عيناه، وهو يجيب في اقتضاب:

"-لا أدرى يا بني، لكن من يعرف ماذا يحدث بالغد؟ ربما حمل الينا الإجابات!"

لكنه كان متأكداً أن القاضي يعرف من يكون، لكنه يرفض إخباره لسبب ما. وكان هذا أكثر ما يحنقه، ويشعره بالعجز. من حقه أن يعلم هل هو ابن شرعي، أم ابن زنا؟ وهل هو كريم المنشأ، أم مجرد فتى وضيع. من حقه أن يعرف، هل هو أهلا لطلب الزواج من ابنة القاضي الوحيدة، أم أن هذا الشرف لا يستحقه؟

ليت القاضي يفصح ويتكلم .

كان هناك خاطرٌ عجيبٌ ألح عليه في سنواته الأولى، ماذا لو كان ابن القاضي نفسه، وأن أمه زوجة مجهولة للقاضي لا يود أن يعرفها أحد؟ وقتها أحس أن هذا احتمال مقبول، فالقاضي يعامله كابنه تماما، وقد رباه مع ابنته دون تحفظ، ولا يذهب الي أي مكان إلا وهو معه. شغله ذلك الخاطر لشهور طويلة، ثم أصابه بالفزع، فلو كان هذا الاحتمال صحيحاً، فإن سلمى هي أخته، وهذا يعني أنه لا يمكنه الزواج بها. لكن القاضي كان يرى بلا شك كيف ينظر الي سلمى، وحتما يدرك ما يكنه في صدره نحوها من عشق، والعاشق تفضحه العيون. كما أن القاضي لم يبد يوما انزعاجاً من تلك المشاعر، ولم يمنعه عن سلمى، وكأنما يبارك مشاعرهما وحبهما. ضاق صدره بذلك الخاطر، ووجد نفسه يذهب للقاضي، ويطرح عليه هواجسه. يومها ضحك القاضي كثيراً،



وحين رأى الضيق في عينيه توقف، وربت على رأسه في إشفاق، ثم وضع كفه فوق مصحفه الذي يقرأ فيه القرآن، وقال:

"-أقسم برب هذا الكتاب، أني لست أباك يا حسام الدين، هل يكفيك هذا لتنسى ذلك الخاطر السخيف؟ لو كنت اباك ما منعني أي شيء من إخبار العالم كله بهذا، ولو كان الأمر بيدي لمنحتك اسمي وأعلنتك ابني، لكن الله حرم هذا "

وكم أسعده هذا الخبر يومها، وقد أعاد له الأمل ثانية في الزواج من سلمى، لكنه اعاده ثانية لحيرته، من يكون؟ كان الاحتمال العجيب الأخر، هو ست الملك، الأميرة الفاطمية، وأخت الخليفة الكبرى. كان القاضي كثيرا ما يذهب به اليها، وكانت تعامله بودٍ كبير، كما كانت تمنحه الدنانير الكثيرة كلما رأته، كان يرى في عينيها ما هو أكثر، لكنه في الواقع لم يجرؤ على طرح مثل هذا السؤال، هل تكون ست الملك هي الأم الغامضة؟ نزعته من شجونه وافكاره سلمى، وهي تقول في حزم:

"-أنا أوافق يا حسام الدين، سوف أتزوجك، لكن هناك شرط واحد! "

"-سوف انفذه يا سلمى مهما كان، لو كان هذا يرضيك. "

"- دعنا نرحل عن هذا المكان، ونبتعد ".

وقبل ان يجيب ظهرت ،جميلة، وقالت وهي ترمقهما في بعض الحسد:

"-يؤسفني أن أقاطع خلوتكما الحلوة، لكن الشيخ محفوظ يريدك أيها الشاب."



(26)

اتجه حسام الدين إلى مغارة الشيخ محفوظ. وهناك لم يكن الشيخ العجوز بمفرده، كان هناك عمرونجم الدين، وبدا وكأن الثلاثة بانتظاره، كان الشيخ يقف في تلك اللحظة أمام قفص خشبي بداخله صقر. وكان الشيخ يلقى إليه بقطع صغيرة من اللحم، يلتقطها الصقربمنقاره وهي في الهواء.

حياهم حسام الدين، وأجابه نجم الدين في تهكم :

"-عجيب أن تظل هنا، ولا تهرب من بر مصر كلها، بعد أن واجهت فرسان الظلام مرتين في يومين، في يومين. يبدو أنك تتحلى بشجاعة أكثر مما يبدو على وجهك."

لم يشعر حسام الدين بالراحة، وقد اشتم رائحة السخرية في كلمات نجم الدين، فقال ببرود:

"-من يدري؟ ربما تختبرشجاعتي يوما ما. "

ضحك نجم الدين في استخفاف، وقال:

"-سيكون من سوء حظك يا فتى، لا شك في هذا."

"-اسمي حسام الدين، ولا احب أن تنعتي بالفتى في كل مرة. "

"-سأحاول تذكرهذا في المرة القادمة ."

أراد حسام الدين أن يرد عليه، وقد احتقن وجهه، لكن الشيخ محفوظ استدارنحوهما، ومازالت يده تقبض على قطع اللحم النيء ، وقال:

"-توقف عن مهاجمة ضيفنا يا نجم الدين، الشاب لم يرتكب أي خطأ لتحدثه هكذا."

ضحك نجم الدين ساخراً، وأجابه::



"-الشاب لا يكف عن ارتكاب الحماقات، إنه يسعى خلف موته وهلاكه بحماس كبير."

"-ليس من حقك أن تنعتني بالحماقة، أو حتى تحدثني هكذا."

"-حسنا، لن أفعل، لكن أمنحني تفسيراً مقنعاً لذهابك للقرافة، وأنت تعلم أنها مكان ملعون ومأوى للملاعين والشياطين، ثم فسر لي رغبتك في إنقاذ جسد القاضي الميت، رغم مطاردة فرسان الظلام لك حتى كدت تهلك. أنت متهور أيها الشاب، ولولا رحمة الله، للحقت بسيدك القاضي."

"-كان هذا واجبي نحو الرجل الذي رباني، ونشأت في بيته. "

"-وهل من واجبك أن تلقى حتفك لتنقذ جثمانه؟ "

"-أجل، ولو تكرر الأمر ألف مرة ما ترددت في فعلها. "

"-إذاً لا تتذمر حين أتهمك بالحمق أو الجنون، حتى القاضي نفسه لن يرضيه ما قمت به لو كان حيا. "

"-لا شأن لك بالقاضي، ولا تتحدث بلسانه، ولا تنعتني بالحماقة ثانية. "

هنا لم يتمالك الشيخ نفسه، فهتف فيهما في حدة:

"-كفى، ألا تملان من الشجار؟ "

ثم التفت الي نجم الدين، وقال له:

"-لا تهاجم الفتى أو تسخر منه، ابتلع لسانك أو اذهب من هنا الأن."

هز نجم الدين رأسه في لا مبالاة ، بينما قال عمر محاولا تهدئة الموقف:

"-حسنا أيها السادة، دعونا نتكلم في ما اجتمعنا من أجله "

ثم نظر الجميع الي الشيخ محفوظ، الذي قال:



"-أننا هنا يا حسام الدين، لتخبرنا ماذا تنوي أن تفعل؟ "

"-سوف ابقى هنا لأنتقم للقاضي."

رد عليه نجم الدين باستخفاف:

"-يا للذكاء! هذا يعني أنك ستلحق به قريبا. "

وقال الشيخ، متجاهلاً تعقيب نجم الدين:

"-وممن سوف تنتقم، هل ستنتقم من رجال الشرطة الذين قتلوه، أم ستنتقم من الخليفة الذي أمرهم بقتله؟ "

قاوم حسام الدين دموعه قبل أن يقول، في عجز:

"-سوف انتقم من الجميع يا سيدي، لقد قتلوا الرجل الصالح الذي نشأت في بيته وعاملني كابن له، قتلوه بسببي، وأقل ما اقدمه له هو، أن اثأر له من قاتليه."

غمغم عمر في رفق:

"-وهل ستحارب دولة كاملة بمفردك يا حسام الدين، لتنال ثأرك؟ "

نظر اليه حسام الدين وقد أدرك صدق كلماته فلم يرد. لكن النار في جوفه ظلت مستعرة، كان يرغب في القيام بأي شيء، ليشعر انه رد الجميل لمولاه القاضي. وسمع الشيخ محفوظ يقول له:

"-اسمع يا بني، لكل منا قدراته التي لا يتخطاها. وهناك دوما من يظلموننا، دون أن نقدر على رد الظلم لهم، ولهذا فالله موجود في السماء وانتظار عدله في الدنيا أو الأخرة، هو ما يعيننا على تحمل مرارة الظلم لتستمر الحياة. يا بني، مهما حاولت فلن تصل إلى الخليفة، ولن تقدر على تحقيق انتقامك منه. فمن ظلمك



أقوى منك، وابعد عن أن تناله، فاستعن بالله، واساله فضله وعدله، وأصرف تلك الفكرة الحمقاء عن رأسك، وفكر في مستقبلك."

شعر حسام الدين وكأن القاضي أبو الفضل هو من يحدثه، فما يقوله الشيخ رغم قسوته صحيح تماما. لن يصل إلى الخليفة أوحتى لمن حمل السيف، وقطع رأس القاضي، لكنه يرفض الاستسلام لمثل هذا العجز، اتجه عمر إليه، ووضع يده على كتفه، وقال:

"-اسمع يا حسام الدين، لقد فكر الشيخ محفوظ في أمرك، وقد رأى أن تذهب الى الجنوب برفقة ابنة القاضي، يمكنك أن تتزوجها لو ارتضت هذا، كما أن هناك قافلة متجهة إلى النوبة، ويمكننا أن نجد لكما مكانا فيها، لا تنس أن المغاربة مازالوا يفتشون عنك، ولم ينسوا بعد أنك قد قتلت أحدهم، ولن يتوقفوا عن البحث عنك حتى يظفروا بك. "

تذكر حسام الدين شرط سلمى لقبول الزواج منه، لقد طلبت منه أن يرحل معها بعيدا عن هذا البلد كله، وها هو الشيخ ورفاقه يعرضون عليه مساعدته في هذا الأمر، إن الامريسير للغاية كما يبدو، لكن رغبة دفينة في نفسه، كانت تدفعه للبقاء في تلك الأرض. لن يرحل قبل أن يحصل على إجابات لتساؤلاته، من يكون، ومن يكون أباه وأمه؟ وقال حسام الدين في عناد:

"-يمكنني أن ابقى معكم، أنتم تقاتلون الحليفة، وأنا أجيد استعمال السيف، ويمكنني أن أكون مفيدا. "

لم يتمالك نجم الدين نفسه، وصرخ في وجهه:

"-ثم تغضب حين أتهمك بالحمق، ألا تستمع لما تقوله يا فتى، ما الذي تعرفه عنا لتبقى معنا؟ "

أجابه حسام الدين:



"-يكفيني أنكم قد انقذتم حياتي مرتين، وساعدتموني في انقاذ سلمى وجثمان أبيها. "

"-هذا لا يعني أن تقدم حياتك لنا، من أجل هذا، إرحل يا فتى مع تلك الفتاة الجميلة، واستمتع بجمالها، وانس كل شيء عنا، وعن هذا البلد. "

"-وماذا عنكم، أرى أنك وعمر في نفس عمري، ومع هذا لا تفكر في الهرب، ولا تفكر في الاستمتاع بامرأة ما."

ضحك نجم الدين في مرارة، وهو يرد عليه:

"-ومن قال لك أننا لا نفكر في هذا ليل نهار، لكن ما يقيدنا لهذا المكان أكبر منا، ولو كان الأمربيدي لهربت قبل أعوام، وبحثت عن فتاة جميلة وانجبت منها عشرة أبناء. "

بينما قال عمر في اشفاق:

"-لا تجعل عاطفتك تدفعك للتورط في شأن تجهل عواقبه، لقد تورطنا في هذا الأمر برغبتنا، أو حتى رغما عنا، والأن لا سبيل أمامنا للتراجع، لكنك مازالت خارج الأمر، ويمكنك أن تذهب يا صديقي بلا قيدٍ، وصدقني لو أخبرتك أن هذا هو خير ما تفعله، نحن وكل من تراهم خارج المكان ينتظرون الموت في أي لحظة، وبأبشع صورة قد تتخيلها، لكنهم لا يملكون رفاهية الهرب. "

نقل حسام الدين نظره بينهم، قبل ان يتوقف عند الشيخ محفوظ، الذي جلس على مقعد خشبي، فمال نحوه وسأله :

"-من أنتم يا سيدي، وأي أمر هذا الذي تخشون أن أشارككم فيه؟ "

وقبل أن يجيب الشيخ، تكلم نجم الدين في حدة :

"-ما نحن فيه ليس من شأنك، وليس من حقك أن تسألنا عن سرنا. "



"-لكني لم أسألك، أنا أسال الشيخ محفوظ."

"-وقد أجبتك بدلاً عنه، ارحل يا فتى، ولا تسأل عن أسرار لن تطيق حملها."

"-لا أدرى لماذا تحدثني هكذا، ولماذا أشعر أنك تكرهني منذ رأيتني؟"

"-أكرهك؟ وهل أعرفك يا هذا لأحبك أو اكرهك؟ فقط أنا لا أحب أن أراك ميتا، بسبب عنادك وجهلك."

اربكته إجابة نجم الدين، فقد كانت آخر ما يتوقعه، وقبل أن يرد، وجد الشيخ محفوظ يقول:

"-اسمع يا حسام الدين، سأخبرك بكل شيء عنا، ومن حقك أن تقرر بعدها ماذا تريد، طالما ترغب في هذا."

"-كلا يا جدي، لا تخبره عن شأننا أرجوك."

هتف بها نجم الدين محتداً، لكن الشيخ محفوظ لم يهتم باعتراضه، وقال:

"-لقد تورط الفتى بالفعل معنا وطالما يرغب في معرفه الحقيقة فليحصل عليها."

هنا تحرك نجم الدين نحو الخارج في غضبٍ، مغادرا المغارة، وهو يهتف:

"-يبدو أن الجنون قد أصاب الجميع في هذا المكان، وسأكون أحدهم حتما لو ظللت هنا أكثر من هذا."

انتظر الشيخ محفوظ حتى رحل نجم الدين، ثم تنهد في ارتياح، وهو يردد:

"-هذا أفضل، والأن استمع إلي يا حسام الدين، وانتبه لما أقوله. فما سأخبرك به خطير، وبعد أن تستمع، يمكنك أن تقرر إن كنت ستبقى معنا أم تذهب."

(27)

"-حكايتنا قديمة، ويمكن أن نقول أن عمرها هو عمر الانسان نفسه على الأرض أو ربما تمتد لزمنٍ سبق هبوط أدم إلى الأرض. "

قالها الشيخ محفوظ، وهو يغمض عينيه ويذهب بعقله بعيداً، نحو زمن بعيد، ثم صمت للحظة قبل أن يستطرد :

"-ما يذكره الأجداد أن الأرض لم تكم في البداية أرض البشر، بل عاش فيها لملايين الأعوام أجناس وكائنات أخرى، أكثر قوة وأشد بأسا من الانسان الضعيف، الذي هبط عليها في النهاية. كان هناك (الجان) بقبائلهم الكثيرة، وكانوا حينها أضعف تلك الأجناس، وكان هناك (المَنّ) وهم كائنات خلقت من النار مثل الجان، لكنها كانت اقوي منهم حتى أنها استعبدتهم. كان هناك جنس ثالث أشدُ بأساً وإن كان أقل عدداً. جنس خلق من مزيج من نور ونار ومعدن مصهور. امتلك هذا الجنس، قوى الملائكة وشرور الشياطين، كما كانوا أول من عرف أسرار السحر، وأول من إمتلك فنون الظلام، وأتقن قواه الغامضة. كانوا أكثر الاجناس شراً وبأساً. دعاهم البعض بالأوائل، وسماهم البعض الأخر بالقدماء، او الكيانات القديمة.

ما يهمنا ان تلك اجناس لم تعرف السلام يوما، وتمردت على كل قُوىً حتى بلغ بها التكبر والصلف فتمردت على خالقها نفسه. دارت بينها الحروب التي



أفنت أكثرهم، حتى امتلئت الأرض والسماء بالظلم والدماء. بدا وكأن الكون كله في فوضى تنذربفنائه، هنا كان لا مفرمن تدخل الخالق لضبط الامر، أنذرتلك الأجناس بالرسل والملائكة، فلم يستمعوا، اصابهم بالأوبئة والأمراض والجوع، فلم يرتدعوا. في النهاية قرر الله هلاكهم، فارسل ملائكته تحت قيادة أول الجان وسيدهم ابليس، ليحاربوهم ويشتتوهم في جزائر الأرض. نجحت الملائكة في مهمتها، وخلصت الأرض من شرورتلك الكائنات ومن بقى منهم هرب إلى الجزائر البعيدة أو اختفى في باطن الأرض ."

غمغم حسام الدين، وقد عرف القصة:

"-اعرف تلك الحكاية بالطبع، لقد قرأتها من قبل في مخطوطات في مكتبة، سيدي القاضي، بل وناقشته فيها، أذكر أن ابليس كان يدعى حينها، عزازيل أو سيد الضياء، وأنه كان من ذوات الأجنحة الأربعة، ككبار الملائكة قبل أن يفقد نعمته، ويلعنه الله. كما أنه لم يكن من الملائكة، بل كان من الجان وقد خُلق مثلهم من نار، لكنه كان أكثرمن العبادة، حتى صيره الله رئيسا للملائكة "

ابتسم الشيخ محفوظ وقال:

"-هذا ما يقال والحقيقة عند الله، فبينما يرى البعض أنه كان رئيسا للملائكة، وأنه من قادهم لكسر شوكة تلك الأجناس الجبارة، هناك قلة ترى أن ابليس لم يكن يوما من الملائكة، بل كان واحداً من الجان أُخذ أسيراً الي السماء، حيث راح يستغفر الله، ويكثرمن العبادة، حتى عفى الله عنه، وقربه إليه . "

أكمل عمر الحكاية، قائلا:

"-حتى خلق الله الانسان."

وافقه الشيخ محفوظ قائلا:



"-أجل، حتى خلق الله الانسان. هنا دبت الغيرة في نَفس ابليس، ويبدو أنه انتظر أن يهبه الله ملك الأرض، فلما خلق الله أدم ليصير خليفته فيها، اشتعل الغضب في قلبه، فتكبروعصى، وجرى ما كان من الحكاية التي يحفظها كل طفل صغير. "

غمغم حسام الدين:

"-بالطبع اعرف ما جرى، لقد مسخه الله شيطانا، وطرده من السماء ولعنه، هذا معروف يا سيدي، لكن ما شأن كل هذا بكم؟ "

ابتسم الشيخ محفوظ وقال بهدوء:

"-لا تتعجل الحكم يا ولدي، وتحلى بالصبر، الحكاية لم تنتهى هكذا، بل كانت البداية هنا، فإبليس حيث هبط للأرض لم ينس هذا لأدم، أو نسله من البشر، ولم يكتف بالوسوسة بالشر لأتباعه من البشر، بل ظل دوما يفكر في حلمه القديم وتحقيقه، ظل يحلم بحكم الأرض، بعد أن يبيد البشر منها، او يستعبدهم فيها. ولأنه وحده لا يكفى لتنفيذ مخططه، فقد راح يبحث عن المزيد من الاعوان ."

"-هل تقصد المردة والشياطين من الجان، يا سيدي؟ "

"-انهم من بنى جنسه وحتما سيتبعونه، لكنهم رغم هذا لا يمتلكون من القوى ما يمكنهم من القضاء على البشروإبادتهم، لقد كان ابليس في حاجة لمن هم أقوى من جنس الجان، في حربه ضد البشر. "

"-هل تقصد أنه فكرفي الاستعانة بتلك الكيانات القديمة مثلا؟"

"-لا أعتقد هذا، فرغم قلة عددهم، ورغم ما حاق بهم من بطش وهزيمة نكراء، ظلوا أكثر عناداً وكبراً من أن ينصاعوا له هم أقوى وأقدم منه، لهذا لم



يبق أمامه إلا من تبقى من قبائل (المن) المشتتة في جزائر البحار، فهم في النهاية خلقوا من نارٍ مثله، بحث عنهم حتى نجح في الوصول اليهم، كانوا ثلاثة فقط، لكن قواهم تعادل قوى الجان والبشر معاً، نجح ابليس في استمالهم إليه، حتى صاروا من مؤيديه واتباعه."

"-يا الهي، هذا يعني انه قد امتلك قوى هائلة "

"-هذا صحيح، لكن من فضل الله أن تلك المخلوقات الرهيبة لم يعد متاحا لها العودة الي الأرض نفسها من منفاها، فقد قيدتهم الملائكة بقوى رهيبة من السحر والطلاسم. وكي يعودوا للأرض ثانية كانوا بحاجة لسحر أقوى. سحر عظيم لا تعرفه حتى الشياطين، وحتى مع هذا السحر الأسود الرهيب كان لابد من الاستعانة بالأتباع من البشر وبدمائهم، كي ينجح عمله. "

"-لا تقل لي، أن هناك من يعمل على اعادتهم الي الأرض."

"-بالفعل كان هناك من تمكن، من تعلم هذا السحر وبرع في فنونه. "

"-وهل تعرف من يكونون؟ "

إجابة عمر هذه المرة :

"-لقد كانوا السبعة، وأخرهم رجل يدعى الأن مفرج بن دغل، أو الشيخ الأسود، كما نطلق عليه."

"- السبعة؟ ومن يكون هؤلاء؟"

عاد الشيخ محفوظ ليكمل الحكاية، قائلا:

"- انهم الباقون من جنس مجهول لم تذكره المخطوطات القديمة، يتميزون بقواهم الهائلة، وأعمارهم الطويلة التي تتجاوز مئات الأعوام من السنين، إن عملهم في هذه الحياة هو استدعاء شياطين (المن) الثلاثة. "



"-وماذا يمنع هؤلاء السبعة من فعل هذا، طالما يتقنون هذا السحر؟ "

"-أولا هم بحاجة لدماء نسل معين من البشر، نسل نقي يعود إلى قابيل ابن أدم نفسه، والعثور علي مثل هذا الدم النقي عسير، وقد تزاوج البشرواختلطت الدماء. كما أننا كنا نراقبهم طوال الوقت."

"-أنتم؟ هل تعني أنكم تحاربوا هؤلاء السبعة؟ "

ابتسم عمر، وأجاب:

"-وهذا هوعملنا يا حسام الدين وسرنا. "

جال بخاطرحسام الدين خاطرمفزع، فهمس بصوت مرتجف:

"-وهل أنتم كهؤلاء السبعة، لستم من البشر؟"

ضحك الاثنان لطرافة قوله، وقال الشيخ محفوظ:

"-اطمئن، جميعنا من البشر، لكننا تعلمنا فنون السحر لنتمكن من التصدي لهم ومحاربتهم بنفس سلاحهم، إننا أقدم جماعة سرية عرفتها هذه الأرض يا حسام الدين، اننا نسمى انفسنا ب (الفانون)، وستصاب بالذهول حين أخبرك أننا اكثرمما تتخيل، وأن أعواننا في كل مكان في الأرض، يراقبون ومتى عثروا على أثرلواحد من السبعة ابلغوا الباقين، ليستعدوا "

"-وهل يمكنكم مواجهتهم؟ "

-حين نكون مستعدين فقط، أما غيرذلك، فنحن نتخفى لأننا مطاردون، من العسيرأن يموت احد منا على فراشه ميتة طبيعية، فكما نلاحق هؤلاء الملاعين فانهم يلاحقونا للقضاء علينا."

وابتسم عمر، وهويردف:



"ولهذا نسمى ب(الفانون)، ربما لأن أعمارنا قصيرة في الجماعة."

رمقهما حسام الدين في شيء من الشك، شعر وكأن تلك الحكاية بها الكثير من الخيال، أجناس عاشت قبل البشر، وكيانات قديمة، وشياطين، وابليس ثم جماعة سرية؟ ما كل هذا الجنون؟ هز رأسه في غير تصديق وإن لم يجرؤ على اخبارهم بما يفكر فيه. لكن الشيخ محفوظ قرأ ما يدور برأسه، فابتسم وقال:

"-لا تصدق شيئا مما سمعته يا حسام الدين، أليس كذلك "

"-أنا لا أكذبك يا سيدي. فقط الأمر... الأمر عسير! "

"-وأنا لا الومك، الأمر عسير التصديق بحق، لكن ما رأيك لو أخبرتك، أنك قد واجهت بعض السبعة من قبل؟"

اتسعت عينا حسام الدين في ذهول وهو يفكر، متى حدث هذا، قبل أن يتذكر في هؤلاء الفرسان السود، الذين واجههم مرتين، فابتلع ريقه بصعوبة وهتف:

"-هل تقصد.. "

"-أجل، إنهم فرسان الظلام، ستة فرسان فنت أجسادهم منذ قرون، وسابعهم والحي الوحيد، الشيخ الأسود. والأن هل تصدق؟ "

وهل يملك غير هذا؟ نظر اليهم في تردد، قبل أن يحسم أمره.

"-مازلت أرغب في الانضمام لكم."

قال الشيخ في هدوء:

"-أرى أن تنتظر قليلا وتفكر، متى دخلت الجماعة، فلا سبيل للتراجع حتى لو رغبت."



"-أنني مُصر. "

"-حسناً، ما دامت تلك هي رغبتك، مرحبا بك يا حسام الدين في " الفانون"، عليك في البادية أن تؤدي قسم الولاء، أمسك بهذا المصحف، وردد خلفي."

أمسك حسام الدين بالمصحف الكبير، ورفعه نحو صدره، ثم نهض الشيخ من مقعده ووقف أمامه ونظر في عينه، وقال:

"أقسم برب العرش العظيم، الأحد الصمد، القادر القاهر، أن أخدم الفانون بدمائي، وأن اطيعهم في كل ما يعهد إلى من أعمال، حتى لو كان في هذا هلاكي، وألا أخون أخوتي في الجماعة، وألا أفشي أسرارهم، أو أتبع أعداءهم، كلنا في الجماعة أخ واحد، كلنا عقل واحد، كلنا جسد واحد، كلنا مصير واحد، ولتحترق روحي في الجحيم لو نكثت بعهدي."

وحين انتهى من أداء القسم، اندفع نحوه عمر، واحتضنه في سرور وهو يقول:

"-مرحبا أيها الأخ."

لكن الشيخ محفوظ، تحرك نحو منضدته التي تحوي الكثير من القوارير الزجاجية، والآلات التي يستخدمها في أبحاثه وسحره، وحمل منها مدية حادة وقارورة صغيرة، ثم عاد لحسام الدين وقال :

"-لم ينتهى القسم بعد يا حسام الدين، مازلت بحاجة لدمائك "

رمقه عمر في دهشة، بينما مد حسام الدين ذراعه نحوه في استسلام، وبلا تردد مرر الشيخ الشفرة الحادة على باطن كفه، فاغمض عينيه في ألم، بينما

سال الدم نحو القنينة التي يحملها الشيخ، اكتفى الشيخ بالقليل من الدماء، ثم ترك كفه، وقال وهو يغلق القنينة بسدادة من الخشب:

"-الأن انتهى الأمر وصرت واحدا منا، أتمنى ألا تندم يوما على هذا "!

غادر حسام الدين المكان، فقال عمر للشيخ في دهشة، ومازال يرمق القنينة الزجاجية التي تحمل دماء حسام الدين:

"-لماذا طلبت منه الدماء، لا أذكر أن قسم الولاء نمارس فيه طقوس الدم، هذا من اعمال السحر الأسود."

"-لا تقلق يا عمر، الدماء للتيقن من أمر آخر، والأن استعد فانا بحاجة اليك لأننا سنلتقي بشخص مهم، قد يساعدنا في معركتنا ضد الشيخ الأسود."

(28)

صار النهار أكثر أمناً من الليل، ففرصة التخفي تحت بصر الشمس ممكنة من محاولة التستر بظلام الليل الحالك. فعيون الخليفة أو الإله الجديد -كما يرى نفسه- ووشاته لا ترى إلا في الظلمة، وشيطانيه تهاب حرارة الشمس وتهوى صقيع الظلام

إنه زمن الحاكم بأمر الله!

قبل زمن انطلق في المدن المنادون يأمرون الناس بالعمل في النهار واغلاق كافة الحوانيت والبيوت فور أن يجن الليل. واليوم ينطلق المنادون، ينادون في الرعية أن ينام الناس في النهار، وأن يعملوا في الليل، وقد توعد الخليفة من يخالف هذا بالضرب والجلد والقتل. بالطبع لم يفكر أحد في مخالفة هذا الأمر



العجيب الجديد، وهم يعرفون جيدا مدى جنون حاكمهم، وكيف ينفذ وعيده بلا تردد .

وحين انطلقت ست الملك في شوارع القاهرة وقت الظهيرة، لم تتخيل أن تراها هكذا. كانت شوارع المدينة بأكملها خاوية من الناس. وكانت الأسواق كلها مغلقة بلا باعة أو مشترين. كانت على علم بالأمر الملكي الذي أصدره الحاكم بأمر الله قبل أيام، لكنها لم تتخيل أن يكون الأمر هكذا، بدت القاهرة، ومن بعدها الفسطاط كمدينتي اشباح أو موتى، وعادت لتتذكر المواكب العظيمة القديمة التي كانت تمر في الشوارع في المناسبات والأعياد وهي طفلة، برفقة أبيها العزيز بالله، ثم بجوار أخيها الحاكم بأمر الله، وهي فوق هودجها أو محفتها، والناس من حولها، يهتفون بحياتها وحياة الخليفة في ابتهاج، والذهب والفضة يهوى كالمطر فوق الرؤوس .

أين ذهبت تلك الذكريات الحلوة القديمة؟ ولماذا اختفت البهجة التي نشرها أجدادها في هذا البلد فور أن حكموه؟

كانت الإجابة حاضرة، إنه أخيها وجنونه!

كانت برفقة حارس واحد من حراسها الذين تثق فيهم لتأمينها، وقد ارتدت ملابس الحراس، وامتطت فرساً، مثل فرس حارسها، كي لا يعرفها أحد في القصر أو خارجه.

تحركوا ناحية الشرق من الفسطاط حيث كان مكان اللقاء بالقرب من جبل المقطم، وكان من العجيب أن رحلتها هذه مضت بلا متاعب، فلا واجهت العامة اللذين اختفوا في البيوت، ولا رأت أحداً من الحراس والعسكر، حتى أنها فكرت في خوف في أبو ركوه، لو فكر في اجتياح المدينة في وضح النهار، فسيملكها حتما بلا مشقة تذكر، وسيفيق الناس من سباتهم النهاري، والبلد عليها حاكم آخر .



همست لنفسها في حنق:

"-هذا غباء!"

لم يعقب حارسها، ومضى أمامها في صمت، لا يقطعه إلا حوافر الخيل فوق صخور الجبل، سلكوا طريقا صاعدا، وخلف أحد القمم توقفوا، وقال الحارس:

"-هذا هو المكان يا مولاتي. "

نظرت حولها في تشكك، وهى لا ترى أي بشري في الأفق، ثم غمغمت:

"-هل أنت واثق؟ "

"-إنه المكان الذي أخبرني به سيدي القائد الحسين بن جوهر الصقلي "

"-إذا أين هو؟ ولماذا ليس بانتظارنا؟ "

هز الفارس كتفيه معلنا عدم علمه بالسبب، فرمقت ست الملك، المدينة الرابضة أسفل الجبل في سكون، وهي تهمس لنفسها:

"-إذا لننتظره نحن. "

جالت بعينها في نواحي الجبل الممتدة حتى الأفق، ثم فكرت في خاطر، هذا مكان بعيد يصلح لبناء قصر منيع والحكم من داخله، فهنا سيكون الحاكم أعلى البلد حيث يمكنه أن يراقبها وتحكمها بيسر، كما يمكنه التحصن بقصره، إذا ما بلغ الأعداء بابه يوماً. لماذا لم يفكر أحد من قبل في هذا المكان؟

تذكرت حديثها مع القائد حسين بن جوهر الصقلي في القصر، لقد أخبرها أنه يرغب في تعريفها برجل ما، لكن ليس في القصر' وليس تحت ابصار رجال أخيها، سألته من يكون، فلم يخبرها، وقال لها :



"-إنه رجل وثق فيه أبيك وجدك من قبله، كما وثق فيه أبي، ولهذا هو أهل لثقتك، إنه يرغب في لقائك، فإنظري ماذا تفعلين."

"-وهو يريد لقائي ليحدثني في أمر أخي، أليس كذلك؟"

" -هذا أمرٌ مؤكد."

تنبهت في تلك اللحظة لوقع أقدام، تقترب من خلف تلٍ ضخم، تحفز حارسها وقبض بكفه على سيفه، ثم ظهر عجوز طاعن السن، وهو يتكأ على عصاه، وبجواره شاب في مقتبل العمر. بدا أنه لا خطر منهما، فابعد الحارس يده عن السيف، وإن لم يفارق حذره. تقدم الشيخ والشاب منهما، ثم توقف الشيخ وأحنى رأسه محيياً، وهو يتجه بوجهه نحو الأميرة وليس الحارس الأخر، رغم انها ترتدي ملابس الحرس، وتخفى وجهها مثله خلف لثام، وقال:

"-مولاتي الأميرة ست الملك، أعتذر إليك، لأننا سببنا لك الانتظار. "

ضيقت ست الملك من عينيها، وهى تفحص وجه الشيخ الطاعن في السن وقد أصابه الضمور وامتلأ بالتجاعيد، بدا مألوفا، لها وإن عجز عقلها عن تذكره، ثم نظرت للشاب الذي احنى رأسه لها محييا في صمت، لم تعرف وجهه، أماطت اللثام عن وجهها وقالت :

"-هل اعرفك أيها العجوز؟ "

ابتسم الشيخ محفوظ وهو يجيب:

"-ربما لا تذكرين الأن متى التقينا، لكنك تعرفين جيدا هذا الوجه، مضت أعوام كثيرة منذ رأيتك أخر مرة يا مولاتي، كنت يومها في الخامسة أو العاشرة من عمرك كما أتذكر، وكنت تلهين في حديقة القصر، أمام أبصار أبيك مولانا العزيز بالله "

كان هذا قبل نيف وثلاثين عاماً بلا شك. هزت رأسها محاولة التَذَكّر بلا جدوى. شعر الشيخ محفوظ بحيرتها فاكمل:

"-ربما بدلت السنون والشيخوخة من ملامحي، ولهذا لم تعرفيني، لكنك حتما تعرفين هذا الوجه."

قالها وجذب بكفه طرف عباءته، وغطى بها وجهه للحظة، وحين ترك العباءة تسقط ظهر وجه أخر قديم للشيخ محفوظ، ذهبت التجاعيد وامتلأ الوجه الضامر بالشحوم، ولمعت العينان المطفأتان، بينما ازداد الشعر في رأسه كثافة، وقد استعاد لونه الأسود الفاحم، كان هذا وجهه قبل ثلاثين عاما. تعرفته على الفور، فاتسعت عيناها في دهشة، بينما توتر حارسها وعادت كفه لتبحث عن سيفه.

وصاحت ست الملك، وهي لا تصدق:

"أنت الشيخ محفوظ، أجل، إنني أذكرك."

ابتسم العجوز وهو يرد عليها:

"-هو بنفسه يا مولاتي "

"-وكيف فعلت هذا؟ كيف بدلت ملامحك هكذا؟ "

"-أنسيتي أنني ساحر؟ "

لم تنس بالطبع، بل كان أعظم ساحر، كما أطلق عليه ابوها أمامها وهو يمتدحه وقد خلص القرافة من الشياطين الذين كانوا يتخطفون الناس منها، بعد أن فشل جنوده وسحرته ومشعوذيه في هذا. نفس الشيء الذي كان قد فعله من قبل مع جدها. تذكرت أمراً آخراً، فقالت:

"-لكننا قد بحثنا عنك وقد اختفيت، وقيل أنك قد مُت."



"-وهل أبدو أمامك كرجل مَيت!، مازلت حياً أرزق لسوء حظي، وإن كنت مسرورا للقائك مرة أخرى يا مولاتي."

ظهر في تلك اللحظة، القائد الحسين بن جوهر الصقلي فوق فرسه، وفي لحظات كان أمامهم، حيث ترجل وحياهم، ثم نظر إلى الشيخ، وقال:

"-هل مارست بعض سحرك أيها العجوز أمام مولاتي، أرى أنك قد استعدت بعض شبابك."

"-شباب زائف يا سيدي القائد، انه مجرد قناع يستر خلفه عظام واهنة نخرة، وسقم لا شفاء منه."

نقلت ست الملك نظرها، بينهما ثم قالت في حزم:

"-ماذا تريد مني يا شيخ محفوظ؟ ولماذا طلبت لقائي؟ "

"-ربما أرغب في تقديم مساعدة أخيرة لعائلتكم "!

نظرت اليه محاولة سبر أغواره، ثم غمغمت:

"-وكيف ترغب في مساعدتنا، وكيف ستفعل؟ "

"-ربما ترك الشر القرافة هذه المرة وذهب مباشرة ليعيش في جنبات قصركم منذ البداية، الخطر هذه المرة ليس في القرافة، بل داخل جدران القصر نفسه. لقد ساعدت مولاي المعزومن بعده العزيز، أباك، والأن حان دورك. "

"-دوري؟! ربما تقصد الخليفة، الحاكم بأمر الله، إنه الخليفة الشرعي وابن العزيز يا رجل، هل نسيت؟ "

هز العجوز رأسه نافياً، وتقدم نحوها، وقال:



"-لم أنس يا مولاتي، لكن كيف أقدم المساعدة، وقد أعلن نفسه إلها، وإختار كبير الشياطين كمستشار له؟ لا أظن أن هناك من يقدر على مساعدة الخليفة الأن حتى لو شاء."

بدت كلماته مخيفة، وان كانت حقيقة بلا شك، وقالت ست الملك :

"-هل جئتني لتتآمر على الخليفة؟ أنسيت أنه أخي أيها العجوز. "

هنا تدخل القائد الحسين بن جوهر الصقلي، وقال:

"-لسنا هنا يا مولاتي لنتآمر على مولاي الخليفة، أنظري حولك وستدركين أن كل من حولك أصدقاء، وطالما نصروا دولتكم، أنا قائد الجيوش، والشيخ محفوظ قد خدم جدك وأباك."

كانت لا تشك في حديثه، إنهم بالفعل رجال أبيها المخلصون للخلافة، أولتهما ظهرها مفكرة، ثم سألت الشيخ محفوظ :

"-من تقصد برسول الشر، هل هو مفرج بن دغل؟ "

"-مفرج بن دغل، كعب بن مخذوم، موسى بن الأغلب العجلي، وغيرها من الأسماء، التي يبدلها كل وقت كما يبدل ثيابه، إنه هو نفس الشخص في كل مرة، إنه الشر الذي سكن القرافة غير مرة، وراح يقتل الاحياء لبعث أسلافه واستدعائهم من عالمهم المظلم، يا مولاتي، إنه الشيخ الأسود ! "

"-إنه شيطان! لقد صار أخي رجل أخر لا أعرفه مذ ظهر في القصر، لم يعد الخليفة نفس الأخ الذي أشرفت على تربيته، وتعليمه بنفسي "

"-وقربما سيكون رجلاً أخراً لا تعرفيه ولا يعرفك، طالما ظل الشيخ الأسود بجواره. "

سأله القائد حسين:



"-من يكون هذا الرجل يا شيخ محفوظ؟ "

"-ليس مهما من يكون، لكن المهم ماذا يريد؟"

قالت ست الملك في اهتمام:

"-اذا ماذا يريد، هل تعرف؟ "

رمقها الشيخ محفوظ، وهو رأسه مؤكداً، ثم قال:

"-هل تحدثتي إليه يا مولاتي من قبل؟ "

اقشعر جلدها وهي تذكر تلك المرة التي ظهر فيها في حجرتها، كان مخيفا، حتى وهي المرأة القوية، التي لا تخاف أحد، خافت منه يومها. نظرت إلى الشيخ محفوظ وأومأت برأسها مؤكدة .

"-وهل طلب منك شيء ما؟ "

"-فقط أن أتبع أخي وأن أصدق أنه قد صار إلها. "

"-وبالطبع لا تؤمنين بما قاله."

"-ما كنت لأكون هنا لو آمنت بهذا الكفر، الله واحد في السماء يا شيخ محفوظ. "

"-بالطبع يا مولاتي، الله واحد أحد. لكن هل طلب منك شيئا أخر؟ "

بالطبع كان هناك الطلب الغريب، ظهر التردد على وجهها، فأشاحت به بعيدا عن نظر العجوز، وطال الصمت ثم قالت:

"-أراد أن أخبره بمكان أحدهم. "

"-ومن يكون هذا الشخص؟ "



صمتت للحظة ثم تنهدت، قبل أن تجيب ببطء، محاولة التحكم في نبرة صوتها:

"-يدعى حسام الدين، إنه شاب رباه القاضي (أبو الفضل محمد بن منصور البقلي) وكنت أنفق عليه، يقولون أنه قد قتل أحد المغاربة وأنهم يبحثون عنه من أجل هذا "

ظهرت الدهشة على وجه الشيخ محفوظ وتبادل النظر مع عمر، ثم غمغم:

"-وهل أخبرته عن مكانه؟"

"-وكيف أفعل وأنا لا اعلم أين يختبأ؟ "

هز الشيخ محفوظ رأسه متفهما، ثم تحرك نحوها، وقال فور أن صار أمامها تماماً، وهو يمد يده نحوها:

"-هل تسمح لي مولاتي بيدها؟. "

نظرت إليه في حيرة ودهشة من طلبه، ثم مدت يدها إليه بعد أن أشار لها الحسين بن جوهر الصقلي بأن تفعل.. كانت يدها باردة رطبة رغم حرارة الجو من حولهم. قبض الشيخ محفوظ على الكف في شيء من القوة، وفي اللحظة التالية غرس إظفر سبابته الطويل في لحم الكف. أطلقت ست الملك صرخة ألم قصيرة بها من الدهشة، أكثر مما بها من ألم، وصرخ حارسها وهو يخرج سيفه ويندفع نحوها:

"-دعها يا رجل أو تموت."

لكن القائد حسين بن جوهر الصقلي قبض على كفه الممسكة بالسيف بقوة فأوقفه، وهو يقول مهدئا:

"-اهدأ أيها الحارس، مولاتك بخير. "



أما ست الملك، فقد نظرت إلى كفها الذي سالت منه قطرات من الدماء، ومازال العجوز يقبض عليه بقوة. وقالت:

"-لماذا فعلت هذا؟"

"-إنها بضع قطرات لن تضير مولاتي."

وباليد الأخرى اخرج من جيب عباءته قنينة زجاجية صغيرة تحوى سائلا أحمر، قرب الشيخ محفوظ سدادتها من فمه وجذبها ثم وضع فوهة القنينة أسفل كف الاميرة حتى سقطت فيه بعض قطرات الدماء، ثم أطلق بعدها كفها، ورفع القنينة نحو عينيه، وأغلق فوهتها بإصبعه ثم ضمها لصدره وأغلق عينيه وهو يردد في سره طلاسم غامضة.

راقبه الجميع قبل أن يلحظوا كيف تألقت القنينة وامتلأت فوهتها بالدخان الضبابي، رفع الشيخ محفوظ القنينة أمام عينيه للحظة، ثم نظر الي الاميرة وقال:

"-إنه ابنك! حسام الدين هو أبنك، أليس كذلك؟"

(29)

لم يسترح أحدٌ في مسجد (التبر) بناحية المطرية، لذلك الرجل الفارسي ذو اللسان المعوج، والذي ظهر فجأة منذ أسابيع، وبدأ يجمع حوله الأتباع الذين راح ينتقيهم بعناية من أهالي الناحية. كان يدعى (حمزة بن علي الزوزني)، واختار ناحية في المسجد بعيدة، راح يجتمع فيها مع أتباعه. سرت همهمات بين المصلين انه من جواسيس الخليفة، وظهرت أقول ترجح أن يكون داعية فاطمي أرسله



الخليفة لحشد الاتباع من أجل ترك مذهب السنة والجماعة، واتباع منهج الإمامة الفاطمية. كان الرجل يصمت إذا اقترب منه أحد من غير أتباعه، وكأنما يداري سرا لا يرغب في افشاءه، وكان يعتزل الجماعة فلا يصلى وأتباعه مع المصلين، بل ينتظر أن ينتهى المصلون من صلاتهم ويغادرون المسجد، ثم يغلقه عليه وعلى أتباعه ليقيموا صلاتهم المجهولة .

ضاق الشيخ (محمود بن مصباح) إمام المسجد بذلك الرجل، وخاصة حين حاول التحدث إليه لسبر أغواره، ومعرفة مقصده مما يفعله، ولم يظفر منه بشيء. ولولا خشيته من رجال الشرطة السفلية الذين يحيطون بالمسجد في تلك الأوقات، التي يكون هذا الرجل الفارسي داخله، لأمر بطرده ولأهاج المصلين عليه. بينما ازداد مكوث الرجل بالمسجد، وكثر أعوانه حتى صاروا يملئون فناء المسجد من حوله كلما حضر، فلم يعد هناك أي مكان لباقي المصلين. ولاحظ الشيخ محمود بن مصباح أنهم كفوا عن تظاهرهم بالصلاة حينها، حتى أنه لم يعد يرى أي أحد منهم يرتاد الحمام الخلفي للمسجد ليتوضأ .

وحين مر الخليفة يوما بالمسجد في موكبه، وقد انتهت صلاة العشاء، فوجئ المصلون بالرجل وأتباعه يهرعون نحو الموكب، قبل أن يلقى الرجل بجسده أمام فرس الخليفة، ذو السرج المذهب، ويسجد ثم رفع رأسه، وهو يرفع كفيه نحو الخليفة في ابتهال، وتضرع، ويصرخ:

"-إلهنا الأحد الصمد، هؤلاء عبيدك قد أتوا ليقدموا لك الصلوات التي تليق بمقامك "

ثم رأى الناس كيف نظر الي أتباعه وصرخ فيهم:

"-هذا إلهكم أيها (المستجيبين)، فاسجدوا بين يديه. "



وهوى اتباعه ساجدين. كان (المستجيبين) هو اللقب الذي أطلقه عليهم حمزة الزوزني، وبطرف عينيه نظر إلى الخليفة الذي بدت السعادة في محياه، وأشرق وجهه، فأشار للشيخ الأسود الذي كان يصحبه، فتقدم بفرسه ودنا منه وقال الحاكم بأمر الله:

"-من يكون الرجل يا بن دغل؟

" -أحد رسلك المبشرين يا مولاي، يجمع الأتباع ويبشر بعبادة مولاي "

هز الحاكم بأمر الله رأسه في رضا وقال محدثا الرجل، وهو ينثر ذهبه فوق رأسه ورأس أتباعه:

"-احسنت يا رجل !"

ثم حول وجهه نحو الوجوه المذهولة، التي غالبها الغضب والامتعاض مما يحدث، وقال لهم في حزم:

"-اسمعوا للرجل وأطيعوه، واياكم أن تمسوه بسوء، هو أو اتباعه، وإلا حل عليكم سخطي وعذابي. "

وانصرف الخليفة ليتبدل حال الرجل، صار لا يخشى أحد، وبدأ يجهر بدعوته، حيث راح يعتلي المنبر، ويدعو الناس إلى عبادة الحاكم بأمر الله، راح يردد أن روح الإله الأول تجسدت في آدم أول البشر، وأن تلك الروح القدسية لازمت آدم في قبره إلى أن ظهر على بن طالب فانتقلت إليه ، وأن تلك الروح ظلت تنتقل في نسله إلى أن حان وقت ظهور الإله الثالث، وهو الحاكم بأمر بالله. منع الرجل إقامة الآذان في المسجد وراح يؤكد للناس أن الصلاة قد سقطت عنهم، وأنها لم تعد مفروضة عليهم، راح يؤكد لهم أن الحياة الدنيا هي الحياة الوحيدة، وأن عليهم اغتنامها والاستمتاع بملذاتها وطيباتها قبل الموت. وفي النهاية اخبرهم أنه لا اثم في إتيان محارمهم والزنا بأمهاتهم واخواتهم وبناتهم .



ورغم نفور الكثيرين منه، وغضبهم عليه، إلا أن الخوف من سيف الخليفة كان أقوى من غضبهم، كان الأمر الغريب أن أتباع ازدادوا فجأة، وصاروا ألوفا، وفي المسجد وتلك الساحة الخالية من حوله، راحوا يقيمون شعائرهم، حيث يصلون ويسبحون باسم الههم، الحاكم بأمر الله، قبل أن يقيموا احتفالات ماجنة يشربون فيها الخمر، ويواقعون النساء .

علم الشيخ محمود بن مصباح أن الرجل ليس الوحيد في الفسطاط، الذي يدعوا إلى عبادة الحاكم بأمر الله، فقد كان هناك (إسماعيل بن محمد التميمي)، وقد كان يدعى بين أتباعه ب (سفير القُدرة). اتخذ الرجل المسجد الكبير مستقرا له، بجوار قصر الخليفة، وراح يجمع الأتباع وهو يدعوهم لعبادة الخليفة.

وفي المسجد العتيق ظهر رجل فارسي ثالث يدعى (حسن بن حيدرة الفرغاني)، وكان أتباعه ينادونه ب(الأخرم). راح الرجل يجادل القضاة هناك في الكثير من المسائل الفقهية، وكان غريبا أنه كان ذو علم وافر في الفقه والحديث والتاريخ، حتى أنه تغلّب على كل قضاة المسجد وشيوخه الكبار في كل مسألة فقهية عرضت عليهم، فراح الأتباع يحتشدون حوله، للتبرك به والنهل من علمه، هنا بدأ الرجل في التبشير بدعوته، حيث راح يحدث الناس عن تناسخ الأرواح والروح القدسية الإلهية التي تنتقي صفوة البشر، والتي كانت لأدم ثم انتقلت لعلي بن ابي طالب قبل ان تذهب إلى الحاكم بأمر الله.

كان الأخرم خبيرا بالمجادلات، فلم يقدر القضاة على دحض ادعاءاته أمام أتباعه الذين صاروا ألوفا، وحين منع إقامة الآذان في صحن المسجد وطردهم منه، لم يقدروا على منعه أو التصدي له .



بدت القاهرة كلها في جنون، وظهر عشرات الدعاة في كل مسجد ومكان، ولم يجرؤ أحد على التصدي لهم أو منعهم، وخاصة حين رأى الناس كيف حاول أحد القضاة الحنابلة، وقد كان رجلا مسنا البطش بأحد هؤلاء المهرطقين، ليجد رجال الشرطة أمامه، حيث صلبوه في منتصف الطريق، وصلبوا معه زوجته وابناءه، قبل ان يشعلوا النار في أجسادهم وهم أحياء .وفي القصر الكبير ارتشف الحاكم بأمر الله بعض النبيذ البارد من كأسه، وقال للشيخ الأسود:

"-يقولون أن مصر بأكملها آمنت بي وصارت تعبدني"

"-هذا ما سوف يراه مولاي بعينيه حين يطوف بها الليلة في موكبه، دعاتنا بين الناس يبشرون بعبادة مولاي ليل نهار، ولا يجرؤ أحدٌ على التصدي لهم. "

ظهرت السعادة على وجه الحاكم بأمر الله، فسأله:

"- وهل هؤلاء الرسل من رجالك؟ "

ضحك الشيخ الأسود وهو يجيب:

"-بل هم اتباع مولاي!"

وفي المساء سار الحاكم بأمر الله في موكب عظيم، لم تشهد القاهرة أو الفسطاط مثله. هنا راح أتباع الحاكم بأمر الله يتكالبون في الشوارع، وكلما مر بجماعة منهم كانوا يسجدون أمامه، وهم يصرخون في نشوة وجنون:

" السلام عليك يا أحد.. يا محي .. يا مميت.. أنت إلهنا نعبدك.. أنت إلهنا فاغفر لنا ! "

راح الكل يسجد للحاكم بأمر الله ، وحتى من كان يرفض تلك الدعوات، وينفر منها سجد هو الأخر، إما خوفا من رجال الخليفة أو اتباعاً لما يفعله هؤلاء. مر



الخليفة بمسجد (تبر) واتجه للجامع العتيق حيث (الأخرم) قبل أن يعود أدراجه لينتهي موكبه بالجامع الكبير في القاهرة .

شعر الخليفة بقوة ونشوة لم يشعر بها من قبل، ولأول مرة راح عقله، يؤمن بتلك الفكرة، إنه بالفعل إله. وبرضا شديد هبط الحاكم بأمر الله من فوق فرسه، واتجه الي الشيخ الأسود الذي أسرع بالنزول من فرسه هو الأخر، ثم خلع الخليفة عباءته ووضعها على كتف الشيخ الأسود، وقال له :

"-تمن علي يا رجل أي شيء، تناله. "

عدل الشيخ الأسود من العباءة فوق كتفيه وهو يجيب في

"-لا شيء أريده غير رضا مولاي "!

وفي منزله منع الغضب الشيخ محمود بن مصباح من النوم، لقد جن الخليفة، وجن الناس، وهلكوا، أيعبدون هذا الرجل المجنون، ويتركون الإسلام. هذا كفر لن يرضى الله عنه، ولن يتأخر سخطه، وحتما سينال هذا البلد، نفس المصير الذي مُنيت به عاد وثمود وقوم لوط، وباقي القوم الكافرين .

خشي أن يلقى الله وهو صامت على هذا الكفر، وراح يحدث نفسه. ماذا سيقول لله حين يسأله، لماذا لم يمنع الناس عن هذا الضلال؟ لماذا لم يغير المنكر بيده أو حتى بلسانه؟ ولماذا اكتفى برفضه في قلبه؟ هل يخشى عذاب الخليفة؟ وماذا عن نار الآخرة؟ أم تُرى لأن ما يَحدُث اختبار رهيب من الله، ليرى من يتمسك بدينه ومن ينكص على عقبيه ويُدبر كافراً؟ هل هو اختبار ليعلم الله من ينصر دينه، ومن يخذله؟

إن كان اختباراً فقد رسب فيه القوم كلهم، وهذا الضلال ينتشر بين الناس كالنار في الهشيم. كان يعلم أنه واحدٌ، ولن يكون بمقدوره أن يقف أمام كل هؤلاء الناس والحراس وزبانية الخليفة من خلفهم، لكن يمكنه أن يكون الشعلة



الأولى، التي قد تعيد للناس عقولهم، فيعودون لدينهم ودين آبائهم وأجدادهم. إن أفضل الجهادَ هو كلمة حق عند سلطان جائر، وهو اليوم قد عد نفسه للجهاد واستعد للشهادة.

لن ينقضي عليه الليل إلا وهو عند الله ! .

انتظر حتى جن الليل ثم تحرك إلى مسجد تبر. وهناك حاول الدخول لكن (المستجيبين) من أتباع حمزة بن على الزوزني منعوه، فوقف غير بعيد من الحشود ثم رفع صوته مؤذنا:

"الله أكبر.. الله أكبر.. أشهد أن لا أله الا الله.. أشهد أن لا اله الله .. أشهد ان محمدا رسول الله .. أشهد أن محمدا رسول الله .. حي على الصلاة .. حي على الصلاة "..

ومن الدور المحيطة بالمسجد ظهر بعض الناس واتجهوا نحوه. انتظر حتى كثر عددهم، ثم صلى بهم. وحين فرغ من صلاته وقف بين الناس خطيبا وقال:

"-أما، وكل هؤلاء على ضلال وكُفر، وأنهم في النار، ومن امتنع في الجنة، وأما، وقد قال رسول الله صلي الله عليه وسلم" من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإني أشهدكم أمام الله أني أول من يحاول تغيره، فاشهدوا "!

ثم رفع حجرا كان قد وضعه بجواره، وألقاه نحو (حمزة بن علي الزوزني)، لم يصب الحجر حمزة. لكن الناس الملتفين حول الشيخ (محمود بن مصباح) اشتعلوا حماسة حينها، فراحوا يلقون الأحجار على حمزة بن على وجماعته .

هنا بدأت ثورة اجتاحت الفسطاط والقاهرة، حيث راح الناس يهاجمون الرسل المبشرين بألوهية الحاكم بأمر الله، واتباعه في كل مكان، قُتل حمزة وقُتل إسماعيل بن محمد التميمي ثم قتل مُحمد بن إسماعيل الدرزي، بينما نجح الأخرم في الفرار. ومن بين الحشد الهائل الغاضب، هتف صوت قوي :



"-الي قصر الخليفة.. لنقتل الخليفة الكافر "

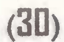
ثم اتجهوا نحو القاهرة، وبينما هم كذلك، غطت السماء غُيومٌ بدا وكأنها تأتي من العدم، ثم راحت ألسنة البرق تشق الفضاء، قبل أن يدوي صوت رعد هائل. اضطرب الناس ورياح عاصفة تضرب وجوهم، وتطفأ مشاعلهم وقناديلهم، قبل أن تسقط فوق رؤوسهم من جوف السماء، رؤوس آدمية مبتورة يقطر الدم منها. بدت السماء وكأنها تمطر عشرات الرؤوس المقطوعة، ثم شق السماء لسان عظيم من البرق أضاء الكون كله للحظة، فوقعت القلوب في الاقدام، وبدلاً من هبوط المطر، راحت حجارة كثيرة تهوى من السماء فوق رؤوسهم، لتسحق معها الكثير من الرؤوس والأبدان.

راحت الناس تعدو في كل مكان بلا هدف لتتقي هذا الجحيم، ومن بعيد راحت خيول ستة يركبها فرسان ضخام متشحين بالسواد، ويمتشقون سيوفاً من نار تندفع نحو الثائرين، تراجع الناس أمام الفرسان في فزع، وحاول أحد الثائرين منع الناس من الفرار صارخا :

"-اثبتوا أيها المسلمين ولا تفروا أمام ... "

لكنه لم يكمل كلامه، فقد هوى أحد الفرسان بسيفه نحو عنقه فشقه، راحت السيوف النارية تحصد رؤوس الناس بلا رحمة، ومن الجحور التي اختبأوا فيها وقت الثورة، ظهر اتباع الخليفة ثانية، وقال أحدهم في شماته:

"-هذا غضب الاله على عصيانه والكفر به، اذا ليذوقوا العذاب ! "



(30)

وذكر المقريزي في كتابة (إتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء)

"ومما جرى في سنة ست وتسعين وثلثمائة..

فيها ذكر المسبحي خبر أبي ركوه، الوليد بن هشام بن عبد الملك بن عبد الرحمن الأموي، ولد بالأندلس وقدم القيروان، فانتصب يعلم الصبيان بها القرآن، ثم دخل إلى مصر فأقام بها وبأريافها يعلم الصبيان مدة، ثم خرج إلى الإسكندرية وقد أكثر الحاكم من الإيقاع ببني قرة، وأكثر من قتلهم وتحريقهم بالنار، فخلعوا طاعته. وسبب ذلك أن بني قرة كان شيخهم مختار بن القاسم، فلما بعث الحاكم يحيى بن علي الأندلسي خرج فلفول بن سعيد بن خزرون على صنهاجة وساروا معه إلى طرابلس، وجرت الهزيمة عليه ورجعوا إلى برقة. فتنكر لهم الحاكم، فامتنعوا عليه، فبعث لهم بالأمان؛ فقدم وفدهم إلى الإسكندرية فقتلهم عن آخرهم سنة أربع وتسعين. وكان عندهم معلم القرآن واسمه الوليد بن هشام، ينسب إلى المغيرة بن عبد الرحمن من بني أمية؛ وكان يزعم أن له أثارة من علم، ويخبر بأنه سيملك ما ملكه آباؤه، وكان يقال له أبو ركوة. فدعاهم إلى نفسه فبايعوه، وتلقب بأمير المؤمنين الناصر لدين الله.

ثم بعث إلى لواتة ومزانة وزناتة فاستجابوا له: ورحل إلى برقة، والناس يباركونه في كل يوم فيسلمون عليه بالخلافة ويقبلون له الأرض، فيجلس في وسطهم ويقول: أنا واحد منكم وما أريد شيئا من هذه الدنيا: ولا أطلبها إلا لكم، وليس معي مال أعطيكم

وإنما لي عليكم طاعة، وإن نصرتموني نصرتم أنفسكم، وإن قاتلتم معي أخذتم حقكم بأيديكم فيقولون له: يا أمير المؤمنين نحن مبايعون لأمرك مطيعون لك، فمرنا بأمرك.



فلم يزل معهم يطوف قرى برقة ويأخذ البيعة، إلى أن عظم أمره وهو فيما بين الإسكندرية وبرقة. فبعث إليه الحاكم جيشا عليه (ينال الطويل التركي) في نصف شعبان سنة خمس وتسعين، فواقعه أبو ركوة وقتله ومعظم عسكره، وظفر من الأموال والخيل والسلاح والنعم الجليلة بما قوى به، واشتد بأسه.

وكان في ظهور أبي ركوة طلع كوكب الذؤابة، فكان يضئ كالقمر وله بريق ولمعان، ويقوى ويكثر نوره وأمر أبي ركوة يشتد ويعظم. فأقام هذا الكوكب شهورا، ثم اضمحل نوره وضعف لمعانه وأخذ أمر أبي ركوة ينقص ويضعف إلى أن أخذ أسيراً، فغاب الكوكب ولم ير بعد ذلك؛ فكان شأن هذا الكوكب في دلالته على أبي ركوة من أعجب العجب.

وابتدأ الحاكم في تجريد العساكر شيئا بعد شيء، ونزل أبو ركوة بعد ظفره على برقة فحاصرها، وصندل الحاكم أميرها يقاتله، حتى اشتد الحصار ومنع أهل برقة من الميرة، ففر صندل، ومعه شيوخ البلد، إلى الحاكم، وحثه على بعث الجيوش، وأعلمه بقوة أبي ركوة واستفحال أمره .

ودخل أبو ركوه إلى مدينة برقة واستخرج الأموال، وأقطع بني قرة أعمال مصر، مثل دمياط وتنيس والمحلة وغيرها، وكتب خطه بذلك؛ وأقطع دور القواد والأكابر التي بالقاهرة ومصر؛ وجدد البيعة لنفسه. فندب الحاكم لقتاله القائد (أبا الفتوح فضل بن صالح) في ربيع الأول سنة ست وتسعين، وأتبعه بالعساكر فاجتمعت بالإسكندرية، وسار بها، فلقيه أبو ركوة بذات الحمام. وكانت بينهما حروب آلت إلى هزيمة العسكر والاحتواء على ما فيه من مال وسلاح؛ فعظم شأن أبي ركوه.

ووردت الجند على الحاكم بذلك للنصف من رمضان، فكان من تدبير الحاكم أن دعا بوجوه رجاله وقواده، فأمرهم أن يكاتبوا أبا ركوة ويعرفوه أنهم



على مذهبه ورأيه، وانه إن توجه إليهم وقرب منهم صاروا في جملته وقاتلوا معه؛ وذكروا ما يقاسونه من قتل وجوههم وأكابرهم، وأنهم لا يأمنون في ليلهم ولا نهارهم، مع ما يسمعونه من انتقاص الشرف ونحو هذا. فكتبوا بذلك وأنفذوا إليه عدة كتب من كل واحد منهم كتابا مع رسوله.

فلما تواتر ذلك عليه وثق به ولم يشك فيه، وحشد جموعه ووعدهم بأموال مصر ونعمها، وسار. فخلع الحاكم على أبي الحسن علي بن فلاح، وسيره إلى ضبط بركة الحبش في عسكر، فأقام بها أياما؛ ثم عدى إلى الجيزة، وتلاحقت به العساكر براً وبحراً .

واضطربت الأسعار بمصر، وعدم الخبز وبيع مبلولاً ستة أرطال بدرهم، وكان يباع عشرة أرطال بدرهم، وأنفق في العساكر المتوجهة لكل واحد أربعةً وعشرين دينارا.

وكوتب على بن صفوح بن دغفل بن الجراح الطائي، فحضر في سابع عشر شوال، وخلع عليه، وطرق بطوق من ذهب، وحمل.

وتزايد سعر الدقيق والخبز وروايا الماء، وازدحم الناس عليها.

وخلع على القائد فضل بن صالح ثوب ديباج مثقل طميم أحمر ومنديل ذهب، وقلد بسيف وحمل على فرس بمركب ذهب، وبين يديه تسعة من الخيل وثلاثون بندا مذهبة وأربعة عشر سفطا فيها أنواع الثياب. وسار إلى الجيزة، وأكمل لكل واحد من العساكر السائرة خمسون دينارا. ونزلت إليه خزانة السلاح.

وورد الخبر بنهب الفيوم؛ فجهزت إليها سرية، فأوقعوا بأصحاب أبي ركوة وبعثوا إلى القاهرة بعدة رؤوس طيف بها.



وسار القائد فضل من الجيزة في رابع ذي القعدة والغلاء بالعسكر، فبيعت الويبة من الشعير بخمسة دراهم والخبز ثلاثة أرطال بدرهم. وأقام على بن فلاح في مضاربه بالجيزة، وحمل إليه خيمة وخمسة أفراس بمراكبها، وسيف، وألفا دينار وثلاثون ثوبا، فأنفق في أصحابه.

فلما كان في ثامن عشر ذي القعدة وقع في الناس خوف في الليل وضجيج، فنزلت العساكر طائفة بعد طائفة، والناس جلوس في الشوارع وعلى أبواب الدور ليلهم كله، يبتهلون بالدعاء بالنصر، فلحقت هذه العساكر بابن فلاح وهو بالجيزة؛ فسير عسكراً إلى الفيوم، وأقام على خوف ووجل. فبلغ أبا ركوة إقامة علي بن فلاح بالجيزة، فأسرع إليه وكبس عسكره ونهب سواده؛ وأخذت خزائن السلاح؛ ووقع القتال الشديد فقتل خلق كثير من أصحابه وجرح خلق لا يحصى .

ولما نزلت خزائن السلاح من عند الحاكم مع قائد القواد، وعظم البكاء والضجيج على شاطئ النيل لكثرة القتلى في العسكر، منع ابن فلاح من حمل الموتى إلى مصر، وأمر بدفنهم في الجيزة. وافتقد كثير من العسكر فلم يعلم لهم خبر، ولم يسلم من العسكر إلا القليل؛ فغلقت الأسواق، وجلس الناس بالشوارع غما لما جرى على العسكر؛ وتزايد البكاء من الناس على فقد آبائهم ومعارفهم. وباتوا وأصبحوا يوم السبت العشرين منه، فورد الخبر بدخول أبي ركوة في جموعه إلى الفيوم؛ "



(31)

جاهد القائد الحسين بن جوهر الصقلي، ليتمالك نفسه، وألا يبدى أي أثر لما يدور في نفسه، من توجس وخيفة، وهو ينتظر الخليفة الحاكم بأمر الله في ديوانه. كان الخليفة قد أرسل في طلبه فجاء من فوره، وبالطبع كان يعلم سبب استدعائه، إنه أبوركوه وانتصاره الأخير .

الخليفة غاضب وناقم عليه، وربما يُحمله كل أسباب هزيمة الجيوش المتلاحقة، التي أرسلها لدحر أبوركوه، وإلا لماذا منعه الحراس من الجلوس، حين دخل الديوان ينتظر الخليفة وأخبروه أن الحاكم بأمر الله أمر بألا يدعوا قائد جيوشه يجلس ويستريح إذا أراد ذلك .

حاول أن يستدعي كل حنكته ورباطة جأشه، قبل تلك المواجهة المرتقبة، والتي يعلم أن فرصه بقاء رأسه فوق جسده بعدها ضئيلة للغاية. طال غياب الخليفة عليه، فأدرك أنه يرغب في إرباكه وتحطيم تماسكه وصبره. الخليفة يحمل الشر له، راح يحدث نفسه بصوت هامس ليذكر نفسه قائلا:

" إنه سبب كل هذا، إنه من أرعب الناس وضيق عليهم حالهم حتى كرهوا بقاءه، إنه من استباح دماء العشائر والقبائل حتى اشتهوا الخروج عليه وقتاله، إنه من ارتد عن دين الناس، وتنكر لعقيدة أسلافه وادعى الألوهية، وطالب الناس بعبادته، وماذا ينتظر بعد كل هذا؟ هل ينتظر أن يُقبل عسكره على المعارك التي يخوضها من أجله بحماس كبير؟ هذا محال! العسكر مهزومون من قبل أن تبدا المعركة، وما انتصارات أبو ركوه المتتالية لأنه ماهر في القتال، أو قائد عظيم، بل لأن جنود الحاكم تلقاه وهي تنتظر الهزيمة "



سمع وقع اقدام الخليفة قادمة من بعيد فاخذ نفسا عميقا وحبسه في صدره للحظات ليهدئ من روعه، ثم زفره وتمتم:

"-رحماك يا الله "

ثم ظهر الخليفة بوجه مسود، يتبعه الشيخ الأسود الذي رمقه باستخفاف، انحنى القائد حسين، وانتظر لبعض الوقت حتى اطمئن إلى جلوس الخليفة على عرشه، ثم استقام، ووقف أمام الخليفة منتظرا أن يتحدث. رمقه الحاكم بأمر الله في غضب، وقال :

"-مرحبا بقائد الجيوش الذي تلاحقه الهزائم طوال الوقت. "

"-ان هي الا وقائع صغيرة في حرب كبيرة، والنتيجة النهائية محسومة تماما، لن يصل أبوركوه إلى أي مكان. "

اتجه الشيخ الأسود إلى القائد حسين، ووقف إلى جواه ومد عنقه نحو اذنه وقال بمكر:

"-وماذا عن هيبة الدولة والخليفة، أتريد أن يقول الناس أن الخليفة يخسر طوال الوقت أمام متمرد لا يجيد استعمال السيف. انتصارات كتلك التي يحققها أبوركوه، قد تشجع غيره من المتآمرين والخونة والأعداء للسير حذوه، وهنا سنصبح كل يوم، وهناك متمرد يجمع الرعاع حوله ويعلن الخروج على الخليفة، ألا تؤمن بهذا يا قائد جيوش الخليفة؟ "

لم يعقب القائد حسين ولاذ بالصمت، فقال الخليفة :

"-يبدو أن قائدنا استطاب افخاذ الجواري وظلال القصور فلم يعد يطيق غبار المعارك ومشاقها، وربما كان هذا يعني أن الدولة بحاجة لقائد جديد. "

نضح جبين القائد حسين بالعرق واسرع يقول:



"-أنا خادمك الأمين مثلما كان أبي خادم مولاي المعزومولاي العزيز، اسمح لي بفرصة أخيرة وسأخرج بنفسي لملاقاة هذا المارق، وأقسم أن آتيك برأسه ورؤوس الخونة من أتباعه. "

ضحك الحاكم بأمر الله وقال :

"-هل تخشى على مكانك، أم تخشى على رأسك "

"- رأسي وحياتي كلها طوع بنان مولاي، فقد أريد أن أثبت ولائي وبأسي لمولاي، وأن أقدم رأس أبو ركوه كاعتذار لتقصيري السابق. "

هدأت ثورة الغضب على وجه الحاكم بأمر الله، وبدت تلك الكلمات وكأنها محت الكثير من حنقه، فقال بهدوء للشيخ الأسود:

"-ما رأيك في حديث القائد يا مفرج بن دغل؟ هل ترى أن نمنحه الفرصة؟ "

"-القائد حسين بن جوهر الصقلي أكبر من أن ندفع به لملاقاة مارق كهذا، أرى أن ندفع بمن دونه من القادة كي لا نعظم من شأن أبو ركوه في نفوس أتباعه "

أراد القائد حسين أن يعترض. فقد رأى أن خروجه على رأس جيش كبير لملاقاة أبو ركوه وهزيمته هو أكبر ضمان للحفاظ على حياته والبقاء على رأس الجيش، لقد تحدث الخليفة بصورة مباشرة في أمر استبداله بقائد آخر. والحاكم بأمر الله لا يعزل أحد عماله، إلا وقتله بعدها. إن عزله من قيادة الجيش تساوي قتله على الفور والتنكيل بأبنائه. وأي قائد غيره يفوز بالحرب مع أبو ركوه سيعلو شأنه وقد يأخذ مكانه، لذا أسرع قائلا :



"-أرى أن اخرج بنفسي مع الجنود يا مولاي، هذا كفيل ببث الحماسة في نفوسهم، كما أنني لن أعدم الحيلة في الانتصارعلى الخونة، وقطع سبل الفرار أمامهم، هذا لوأذن لي مولاي بهذا"

"-كلا يا حسين بن جوهرالصقلي، إنني أميل لرأي ابن دغل، أرى أن يتقدم الجيوش قائد آخر، هل تقترح أحد ما يا بن دغل؟ "

"-انه بالخارج يا مولاي، وينتظرالإشارة بالدخول "

وجد القائد الحسين بن جوهرالصقلي نفسه يلتفت بتلقائية نحو الباب، وينظرمن يكون هذا القائد، وهل هو من رجاله أم وجه جديد لا يعرفه؟ وقد علم أن الأمرمدبرمنذ البداية .

وقال الحاكم بأمرالله :

"-ولماذا ينتظر؟ دعه يدخل. "

دخل رجل في منتصف العمر، قوى البنية يلوح الكثيرمن المكرفي عينيه، القى بنفسه على الأرض وسجد للخليفة، وهتف:

"-إلهى وربي الحاكم بأمرالله "

تعرفه القائد حسن على الفور، وأدرك أي مأزق هو فيه، إنه الفضل بن صالح، أحد كبارقوداه، وقد كان مملوكا أُسرصغيرا، وتربى في قصرالخليفة وترقى حتى صارأحد قادة الجيش، اشتهروسط الجنود بالقسوة والصلابة والدهاء والمكر، ولم يخف يوما مطامعه في أن يكون قائد الجيوش نفسها. هل يكون هذا اليوم هويوم سعده، وينجح هذا اللئيم في الظفربمكانه الذي ورثه عن أباه؟

أشارالحاكم للقائد لفضل بن صالح، فنهض وقال له:



"-ما اسمك أيها القائد؟"

"-عبدك وخادمك القائد الفضل بن صالح "

"-وهل تعلم لماذا أنت هنا اليوم؟ "

"-أنا طوع أمر إلهي فيما يأمرني به، لكنني أرى أن مولاي ربما يرغب في استعمالي لقطف رؤوس بعض الخونة "

"-أجل، إفعلها، وستنال فوق ما تتخيله. "

ابتهج الرجل وقد تراقصت الأحلام أمام عينيه في تلك اللحظة، فأسرع يقول:

"-لن يتأخر خبر النصر على أذن مولاي، أقسم بحياتي على هذا. "

ربت الشيخ الأسود على كتفه وقال :

"-ستفعل أيها القائد الفضل بن صالح، لكنك لن تقاتل بمفردك، سأكون معك !"

شعر الحاكم بأمر الله بالدهشة، هذه المرة، فقال:

"-ولماذا تفعلها يا بن دغل، ألم تقل أنك تثق في قدرته على جلب النصر "

"-ومازلت مُصراً على هذا، لكنني أفكر في واقعة عظيمة تتناقلها الألسنة طوال الدهر، اريد نصرا عظيما يبث الرعب في النفوس فلا يجسر أي خائن في الخروج على مولاي مرة أخرى. "



(32)

عسكر أبو ركوه بعسكره قرب الفيوم في انتظار الجيش القادم من القاهرة بقيادة الفضل بن صالح. وقرب منتصف الليل خرج أبو ركوه من خيمته، ونظر بقلق إلى الحشود الهائلة التي يتكون منها جيشه، عربان، وقبائل، ومماليك، ومغاربة، ومصريون، وغيرهم. آلاف انضموا إليه، إما حنقا من خليفة اشتد جنونه، وأعلن كفره، أو أملاً في مكانة منتظرة لخليفة جديد نجمه يعلو، وانتصاراته تتوالي .

اقترب منه أحد رجاله، وقال :

"-هناك من يسأل عنك ويرغب في لقائك يا سيدي بإلحاح. "

اعتاد هذا منذ بدأ تمرده على الحاكم بأمر الله، الكل يرغب في رؤيته، والكل يريد أن يعلن ولاءه، أوربما كان مظلوما يرغب في بث شكايته له .

همس في إرهاق ومعركة الغد تشغل باله، وتؤرق نومه:

"-لو كان مظلوما فأسمع شكايته، ولو كان جائعاً أو محتاجاً فأطعمه، وإن كان مؤيداً، فلينتظر المعركة ويرينا بأسه فيها، ثم نراه بعدها. "

"-إنه ليس كل هذا يا أبو ركوه!"

نظر إليه أبو ركوه في عجب، وسأل:

"-إذاً من يكون، وماذا يريد مني؟"

"-عجوز بلغ نهاية عمره ومعه شاب يقول أنه حفيده، ويقول أنك بحاجة لأن تستمع إليه قبل معركة الغد. "



كان الإرهاق قد بلغ منه مبلغا عظيماً، وقد ظل طوال اليوم ينظم الصفوف ويرسم الخطط مع قادته. فكر للحظة أن يأمر رجله بصرف الرجل، قبل أن يغلبه فضوله، فيقول في هدوء وهو يتحرك نحو خيمته:

"-حسنا، سأنتظره بالخيمة، لكن تأكد من نزع سلاحهما، وكن مستعدا لأي مفاجأة. لا أحد يدري من يكونان، وربما تكون مكيدة دبرها رجال الحاكم بأمر الله."

ابتعد الحارس، ثم عاد بعد حينٍ، برفقة العجوز والشاب. دخلوا الخيمة وتقدم العجوز قائلا:

"-لابد أنك تتساءل من نكون، ولماذا نرغب في لقائك في ذلك الوقت؟ "

رمقه أبو ركوه في شك وحذر، وقال:

"-وأنت هنا لتخبرني بإجابات تلك التساؤلات، وما هو أكثر، تحدث أيها العجوز، إنني أسمع. "

"-في البداية دعني أقدم نفسي يا أبو ركوه، أنا الشيخ محفوظ، وهذا حفيدي نجم الدين. "

ثم مضت وقت غير طويل، قبل أن يخرج الشيخ محفوظ ونجم الدين، حيث رافقهما رجل أبو ركوه حتى بلغا نهاية المعسكر، وراقبهما وهما يركبان فرسيهما حتى ابتعدا. ومن فوق الفرسين اللذان يشقان الظلام في سرعة، قال نجم الدين في إحباط:

"-أخبرتك أنه لن يصدق يا جدي، كلهم هكذا لا يؤمنون إلا بسيوفهم وخناجرهم. "

أجابه الشيخ محفوظ في هدوء:



"-كان الأمير يستحق المحاولة، في النهاية هو لا يدرك أي حظر سيلقاه بالغد، وكان لابد من تحذيره. "

"-وها هو لم يستمع، والأن ماذا سنفعل؟"

"-سننتظر ونرى ما تسفر عنه المعركة، ثم نقوم بما جئنا من أجله. "

"-وهل تظن أن هناك أي أملٍ في أن ننجح؟ "

"-الغد وحده يا ولدي من يحمل لنا الإجابات. ليس أمامنا إلا أن ننتظر. "

وفي الثالث من ذي الحجة التقي الجيشان قرب العصر، وقد طال انتظار أبو ركوه ورجاله للجيش القادم لقتالهم، حتى انتصف النهار دون أن يظهر، لكن ومع اقتراب صلاة العصر، ظهرت مقدمة الجيش العظيم .

التحم الجيشان، وبدا جليا أن النصر سيكون حليفاً لأبو ركوه. فجنوده كانوا بكامل قواهم لم يرهقهم السفر مثل جيش القائد الفضل بن صالح، كما أنهم قد تحصنوا جيدا في المكان ونظموا صفوفهم قبل يومٍ كامل، أضف لهذا أنهم كانوا أكثر حماسا وأكثر عددا .

مَاتَ الكثيرُ من المقاتلين من الجانبين، وحين حَلّ الظلام، انتظرَ أبو ركوه أن يتراجع الجيش القادم لقتاله، ليستعدا للقتال نهار اليوم التالي، وخاصة أنه لا أحد منهما قد حصد نصرا مؤكداً على خصمه. لكن جيش الخليفة لم يأبه بالظلام وظل يقاتل، فراح يصرخ في رجاله ألا يتراجعوا، وأن يواصلوا القتال حتى النصر. ظل القتال محتدما حتى إقترب الليل من منتصفه، وإذا برياح قوية تنبثق فجأة من العدم، وهي تضرب المقاتلين، وتسقط الفرسان عن جيادهم. تراجع الجيشان رغما عنهما، وقد فزعت الجياد قبل أن يشتعل غضب السماء، فراحت ترسل إلى الأرض ألسنة من اللهب، تضرب الشجر والجياد والخيام بلا رحمة .



ومن بعيد رأى فرسان أبوركوه، كيف أفسح الأعداء، الطريق لفرسان سِتةً، يندفعون نحوهم كالبرق، بسيوف من نار، دون أن تؤثر عليهم العاصفة القوية التي كانت تطيح الرجال، أو ترهبهم ألسنة البرق التي لا تنقطع. اخترق فرسان الظلام الستة صفوف جيش أبو ركوه، وراحوا بسيوفهم يمزقون صفوفه، ويقتلون رجاله بلا رحمةٍ، دون أن تنجح السيوف أو الرماح أو السهام، التي أصابتهم في إيقافهم .

حاول جنود أبوركوه التماسك في وجه هؤلاء الشياطين، فلم يفلحوا، وبعد حينٍ لاحت الهزيمة، فراح الكل يسعى للفرار، بلا تنظيم، بينما رأى أبوركوه أن القتال قد حُسِم، وأن الهلاك في انتظاره لو مكث، فسعى للفرار هو الأخر. هنا تراجع فرسان الظلام الستة، بينما ابتسم الشيخ الأسود الذي كان برفقة الفضل بن صالح، وهو يقول:

"-والأن وبعد انتصارك المُبهر يا قائد الجيوش، أرني كيف يجيد رجالك قنص النعاج الهاربة؟ "

واندفع رجال الفضل نحو الفلول الهاربة من جيش أبو ركوه وقد بدأت المطاردة، بينما قال الفضل في شهوة :

"-هل سمعتك تقول قائد الجيوش، أم هناك عطب بأذني ؟ "

"-أذنك بخير يا قائد الجيوش، تأكد من نصرك وعد لمولانا بالبشارة، لتنال جائزتك الكبرى، لكن دعني وفرساني، لقد انتهى دورنا هنا، وحان وقت رحيلنا لندعك تنعم بنصرك العظيم "

راقبه الفضل حتى ابتلعه الظلام برفقة فرسانه، ثم صرخ في رجاله:

"-فتشوا عن أبوركوه يا رجال، ألف دينار معزي لمن يقبض عليه حيا !"



بينما انطلق في الظلام، الشيخ الأسود متقدما فرسان الظلام الستة عائداً للقاهرة، قبل أن يتوقف فجأة وهو يغمغم، بينما عيناه ورأسه تدوران في الظلام المحيط به، والقمم الجبلية التي تحيط به، في ترقبٍ:

"-مهلا أيها الفرسان، يبدو أن بعض الأصدقاء، بانتظارنا !"

توقف فرسان الظلام، ورفعوا سيوفهم في الهواء بتحفزٍ، فعادت لتتوهج بالنار التي أضاءت الرمال والصخور من حولهم .

ومن خلف إحدى القمم القريبة في المكان، ظهر شبحُ الشيخ محفوظ، وهو يتوكأ على عصاه، فقال الشيخ الأسود، وهو ينظر ناحيته بحذر:

"-اذا فهو أنت يا شيخ محفوظ، لا تدري كم أنا مسرور بلقائك بعد كل تلك السنون، يا لقسوة الزمن، أرى أنه لم يمنحك بعض الرحمة، ربما لو تبعتني لما تَمّكنَ الزمن منك !"

"- لا أحد ينجو من براثن الزمن أيها الملعون. "

ضحك الشيخ الأسود، وقال:

"-لكنني فعلت، ألا ترى كيف أنعم بقوتي وشبابي رغم كل تلك العقود والقرون، بينما يلتهم العجز والمرض جسدك؟"

"-هذا لأنك شيطان كهؤلاء الذين يحيطون بك. "

"-أخبرتك من قبل أن هذا شرف لا أدعيه، ما أنا إلا رجلٌ ضعيف كما ترى!"

قالها وعيناه تجوب المكان المظلم في تحفز. كان يشعر بمكيدة يدبرها الشيخ محفوظ له، لكنه فشل في استنتاجها، وخاصة أنه لم يرى في الظلام أي أحد آخر غيره، كما كان متأكداً أنه لا قبل للشيخ محفوظ بمواجهته، حتى لو حاول



استخدام سحره، ولا قبل له بقتال فرسان الظلام، لو اختار القتال، إذاً، لماذا يبدو هادئا هكذا، وأي مفاجأة يخبئها له.

في النهاية صاح وهو يستعيد ابتسامته المتهكمة:

"-وهل كنت بانتظاري، كي تلقي التحية علي؟ هذا لطفٌ عظيمٌ منك! "

"-وربما كنت أنتظرك، لأنني أرغب في القضاء عليك أنت وأسلافك الملعونين هؤلاء."

اطلق الشيخ الأسود ضحكة صاخبة، وقال باستخفاف:

"- لم تنجح في هذا وأنت رجل قوي، فهل تظن أنك ستفعلها الأن، وقدميك بالكاد تحملانك، ألا ترى أنك تبالغ كثيراً، يا صديقي القديم؟ "

أشار الشيخ محفوظ إلى القمم الجبلية المستترة بالظلام من حوله، وقال:

"- أنت محق بالفعل، فأنا عجوزٌ، لا يقدر على قضاء حاجته من غير مساعدة، لكن هؤلاء يقدرون. "

هنا ظهر نجم الدين من خلف أحد القمم، وهو يرفع سيفه بتحفزٍ، ثم ظهر رجلٌ أخر من خلف قمة ثانية، ثم عمر من خلف القمة الثالثة، ومن خلف الشيخ محفوظ ظهر حسام الدين، شاهرا سيفه بيدٍ، بينما حمل مشعلاً باليد الأخرى، التفت الشيخ الأسود، وكل فرسان الظلام نحو حسام الدين في آن واحدٍ، وكأنما كان هو من يعنيهم في كل هؤلاء. لاحظ هذا الشيخ محفوظ بقلقٍ، بينما قال الشيخ الأسود:

"-يا للسعادة، من أراه هنا؟ حسام الدين؟ كان يجب أن أتوقع هذا، وقد نجوت مرتين من فرسان الظلام، لم يكن ليفعلها بغير مساعدة رجل مثلك يا شيخ محفوظ، أنت تعرف من أكون يا حسام الدين، أليس كذلك؟ "



كان وجه الشيخ الأسود يتوهج على ضوء النار المشتعلة في سيوف فرسان الظلام، ومنذ اللحظة الأولى أدرك حسام الدين من يكون، كان نفس الرجل المخيف الذي يراه في أحلامه في كل ليلة. ففي كل ليلة منذ مواجهة القرافة المخيفة، كانت الكوابيس تلاحقه في نومه، وفي كل مرة كان يرى هذا الرجل المخيف، وهو يدعوه للانضمام إليه، ويعده بالخلود. لكنه لم يتحدث عن أحلامه لتلك لأي إنسان، فكيف عرف ذلك الرجل المخيف بها؟ نظر إليه في خوف وقلبه يخفق في عنف، وقد ذابت الكلمات في حلقه، بينما قال له، الشيخ محفوظ:

"-هل رأيته من قبل؟"

"-فقط في أحلامي، إنه يزورني في كل ليلةٍ. "

-" ولماذا لم تخبرني بهذا قبل اليوم؟"

-" ظننتها أضغاث أحلام أو مجرد كوابيس سخيفة."

هتف الشيخ الأسود، موجهاً حديثه لحسام الدين، وهو يتقدم نحوهم:

"-ألم تحسم أمرك يا فتى بعد؟ ألا ترغب في معرفة من تكون، ومن يكون عائلتك؟ ألا تريد في الخلود؟ هل أخبرك الشيخ محفوظ من يكون أبويك، أم تراه قد أخفى هذا عنك؟ "

هتف الشيخ محفوظ بسرعة كي لا يواصل الحديث:

"-هذا يكفى أيها اللعين، دع الفتى وشأنه.

ثم هز رأسه لنجم الدين، وكأنما يدعوه لبدء القتال، فهتف نجم الدين:

"- اهجموا يا رجال ! "



وفي اللحظة التالية ظهر عشرات الرجال، برفقة العشرات من الكلاب من كل مكان في الجبل. راحت الكلاب تنبح في جنون، وانطلقت كالسهم نحو فرسان الظلام وكأنما تدرك هدفها. اضطرب فرسان الظلام أمام هجوم الكلاب، وراحوا يلوحون بسيوفهم نحوها، لكن الكلاب كانت كثيرة، وراحت تهاجم الفرسان في شجاعة فتراجع الفرسان أمامها، ومع كل قطعة ينهشها الكلاب من أجسادهم أو أجساد جيادهم، ظهر خيط رفيع من النار والدخان.

علم الشيخ الأسود أن النصر لن يكون حليفه لو واصلت تلك الكلاب هجومها على فرسان الظلام، فلسبب يجهله كانت الكلاب هي الكائن الوحيد القادر على مهاجمة فرسان الظلام، بل وكانت قادرة على القضاء عليهم، ولهذا كان يكرهم. كان عليه أن يتحرك بسرعةً. ضرب بسيفه أحد الكلاب التي تهاجمه، فشق جسده إلى نصفين، ثم رفع كفه الحرة في الهواء وفرقع بإبهامه وسبابته، فانبثقت من بينهما كرة صغيرة من النار، ألقاها نحو أحد الكلاب، فتحول إلى كومة من الرماد على الفور، راح يكرر الأمر في سرعة ومهارة، ومع كل كرة من النار كان أحد الكلاب يهلك. ومن أعلى قال الشيخ محفوظ لحسام الدين، في قلقٍ:

"-النار يا حسام الدين !"

هرع حسام الدين نحو كومة من الأعشاب الجافة، وقرب نار مشعله منها، وفي اللحظة التالية، اشتعلت النيران فيها، وراحت تمتد بسرعة من الناحتين في دائرة كبيرة ضخمة أحاطت بالمكان الذي يقف فيه الشيخ الأسود، وفرسان الظلام، والكلاب التي تراجعت في خوف، أمام كرات النار التي يلقيها عليها الشيخ الأسود .



دار الشيخ الأسود حول نفسه في توتر، ونظر للنيران التي تسير في مسارات محدده داخل الدائرة الضخمة المشتعلة وقد راحت ترسم معها طلاسم من السحر بالنار، وقال، وهو يرفع حاجبه في دهشة:

"-أعترف أنها خدعة بارعة للغاية، يا شيخ محفوظ، لكن حتى هذا لن يفلح، وسرعان ما تخبو النار، و حينها لن تمنعنا تلك الدائرة السخيفة، عنك أنت ورجالك"

كانت الدائرة احدي حيل الشيخ محفوظ، وقد زودها بالطلاسم القوية وبعض تعاويذ السحر القديم. كانت مهمتها حصار الشيخ الأسود وفرسان الظلام داخلها، ومنعهم من الفرار. وكانت ستؤدي هذا الدور، طالما النار مشتعلة داخلها. لكنها وما أن تخبو النار يذهب كل تأثيرها. تراجع نجم الدين وعمر والرجال، وغادروا الدائرة المشتعلة بجيادهم والنصر يلوح في عيونهم، بينما قال الشيخ محفوظ في رضاً:

"-أعلم هذا أيها الشيخ الملعون، لكن النيران فيها لن تخبو قبل شروق الشمس، لقد زودتها بالكثير من الزيت القطران، لأتأكد من هذا. وأنت خير من يعلم، ما الذي تفعله الشمس بأسلافك الشياطين؟ "

بالطبع كان الشيخ الأسود يعلم، إن فرسان الظلام في النهاية موتي، لا ينتمون لهذا العالم الحي، ولهذا لا ينبغي لهم أن يظهروا في النهار أو يتعرضوا الشمس، وإلا احترقوا. لقد خدعه هذا الساحر البشري مرة أخرى، كيف لم ينتبه لهذا منذ البداية، نظر للسماء حيث لاح الفجر من بعيد وهو يقول :

"-خدعة لطيفة، أعدك ألا تنجح في تكرارها ثانية يا شيخ محفوظ. "



"_لن تكون هناك مرة ثانية، سوف ننتظر هنا حتى تأتي الشمس وتهلك شياطينك الموتى هؤلاء، ثم يقبض رجالي عليك، لنرى كيف نقضى عليك ونتخلص من شرك للأبد . "

اشتعل الغضب في نفس الشيخ الأسود، وفارقته ابتسامته للمرة الأولى، وقال وهوينظر إلى الظلام البعيد من خلفه، وقال :

"-المهم أن تحيا لترى النهار، أنت ورجالك أيها البشري. "

ثم أغمض عينيه وراح جسده يهتز ببطء وهو يتمتم بشيء ما. وانطلقت الصرخات في الظلام، ومن كل مكان في الجبل راحت مئات الحيوانات الضارية في الظهور، ومن أسفل جياد الرجال راحت الرمال تنهار، لتظهر من قلبها مئات الحيات والثعابين. تراجع رجال الشيخ محفوظ في توتر وخوف، وقد اضطربت خيولهم، وأدرك الشيخ محفوظ، أن الشيخ الأسود يُسخر كل تلك الهوام والحيوانات المفترسة بسحره، وانه يدفعها لمهاجمته هو ورجاله في معركة خاسرة بالتأكيد. لذا هتف في الرجال :

"- اهربوا يا رجال، تراجعوا بسرعة ودعونا نذهب. "

ثم انطلق مع رجاله مغادراً المكان، بينما راحت الذئاب والضباع تلاحقهم في إصرار.

ومن مكانه راقب الشيخ الأسود هروبهم، قبل أن يغمض عينيه ويتمتم بتعويذة جديدة، هنا اهتزت الأرض أسفل منه، ومن قمم الجبال من حوله راحت تلال من الرمال، في الانحدار نحوهم، هنا غطت الرمال المنهمرة الدائرة المشتعلة وأطفأت النار فيها، فانتهى سحرها. نظر الشيخ الأسود إلى فرسان الظلام في ظفرٍ، وقال وهويشد لجام فرسه:



"-والان وقد تحررنا، دعونا نستمتع بمطاردة هذا البشري ورفاقه، ربما ظفرنا ببعض المرح. "

وانطلق مع الجنود إلى حيث هرب الشيخ محفوظ، ورجاله .

(33)

زفر عُمر في توتر فتصاعد بعض البخار من أنفه، وغمغم:

"-يا الهي، كان هذا قريبا، لقد نجونا بأعجوبة"!

ناول الشيخ محفوظ لجام فرسه، لصبي صغير هرع نحوه لمساعدته، ثم غمغم في ضيق:

"-لولا الصباح، لما كانت هناك فرصة للفرار، لقد أشرقت الشمس في الوقت المناسب تماماً، قبل أن يدركنا هؤلاء الملاعين، لكن أخبرني، كم فقدنا من الرجال؟"

تحرك نجم الدين نحوه، وبدا على وجهه غضب مكتومٍ، وقال :

"-خمسة رجال قتلوا وثمانية أصيبوا، لم تكن تلك معركة أبداً، بل مجرد حماقة كادت أن تقضي علينا. "

تجاهل الشيخ محفوظ غضبه، وقد كان متعكر المزاج ولا يرغب في أي جدال أو عراك سخيف، وقال وهو يتجه نحو مغارته:

"-سأهتم بالجرحى، أم الموتى فليرحمهم الله. "



تحرك نجم الدين في غضب وسرعة، حتى لحق بجده، ثم سد الطريق أمامه هتف في حنقٍ:

"-لقد هلك الرجال، لأنك لم تحسن تدبير الأمر يا شيخ محفوظ، ماتوا لأنك فشلت في مواجهة الشيخ الأسود وفرسان الظلام، بل حتى فشلت رغم سحرك في مواجهة تلك الحيوانات اللعينة التي هاجمتنا، لا أدري أين ذهبت حنكتك، وما فائدة سحرك، طالما لم تنجح في إبعاد تلك الوحوش التي هاجمتنا؟ "

كان حسام الدين قريبا، وهو يراقب الحديث في صمت، لكنه في النهاية لم يقدر على الصمت أكثر من هذا، فقال وهو يجذب يد نجم الدين، ليبعده عن طريق الشيخ محفوظ:

"-لا تُحدِث جَدّك هكذا، ولا تثقل عليه باللوم، إنه لم يقتل الرجال. "

دفعه نجم الدين ف خشونة وهتف:

"-لا تتدخل يا هذا في حديثي مع جدي، ولا شأن لك بالرجال، لست منا لتتحدث عنهم، ابتعد عن طريقي وتعلم أن تلزم حدك. "

"-وماذا لو لم أفعل، هل تضربني؟"

تدخل الشيخ محفوظ بسرعة في الحديث كي لا يتطور إلى عراكٍ، وهتف :

"-اذهب يا حسام الدين الأن، خذه يا عمر، واسبقاني إلى المغارة، حتى انتهى من حديثي مع نجم الدين، ثم ألحق بكم. "

ابتعد الشابين في توتر، ثم قال الشيخ محفوظ لنجم الدين:

"-والأن ماذا كنت تقول؟ هل تتهمني بالتسبب في قتل الرجال يا نجم الدين؟ هل ترى أن جدك قد صار عجوزاً ضعيفاً لا يقدر على القيادة، وأنه قد أصابه الخرف؟ "



أدار نجم الدين ظهره له، وغمغم في إعياء:

"-لا أستطيع إبعاد صرخاتهم عن أذني، ألم ترى كيف التهمتهم الذئاب والضباع أمام أعيننا، دون أن نقدر على مساعدتهم، أو الذود عنهم، ثم ما ثمن موتهم؟ لا شيء، لا نجحنا في القبض على الشيخ الأسود، ولا أهلكنا حتى واحداً من فرسان الظلام، ولا نصرنا أبو ركوه الذي هُزم، الأمر كله كان عبثاً لا جدوى منه."

"-لكل حرب ضحاياها يا ولدي، وليست هذه هي المرة الأولى التي نفقد فيها الرجال، ألم تنس أن هذا وجبنا وما ننتظره مذ أقسمنا قسم الولاء للجماعة "

"-وهل أقسمنا لنلقى حتفنا بلا جدوى أو سبب يستحق، هل نطلق الرجال ليلقوا حتفهم، لأن رغبة حمقاء استبدت بنا، فذهب لقتال بلا أسلحة حقيقية تصلح لقتال عدوٍ يفوقنا قوة. "

تطلع إليه الشيخ محفوظ في هدوء، وكتم نفسا طويلاً في صدره، ليستدعي حِلمهُ، ثم قال في بطء:

"-أتعلم ما هي نعمة الشيخوخة الكبرى؟ "

تعجب نجم الدين من هذا السؤال، فرمقه في حيرة دون أن يجيب، فأردف الشيخ بصوت قوي مخيف:

"-إنها الصبر والحكمة يا نجم الدين، فهما ما يجعلانا نتحمل الإساءة والحماقة، لو حدثتني بمثل هذا الحديث قبل أعوام، لكنت خارج الجماعة الأن أو ربما لقيت منا ما هو أكثر، لكن ولأني شيخ عجوز، رسم الزمن في روحه ألاعيبه وألغازه وحكمته الكبرى، فأنا مازلت هنا أستمع إلى نزقك، واحتجاجك الأجوف، وفي النهاية اعلم أنني سأصفح عنك."



شعر نجم الدين أنه قد تجاوز كل حدوده، فحاول الاعتذار مغمغماً:

"-أعتذر يا جدي، إنني "...

لكن الشيخ هتف ليمنعه من مواصلة حديثه:

"-لا تقاطعني أيها الصبي، جدك لم يصب بالخرف أو الحماقة بعد لتحتج على قراراته وخططه، جدك مازال يتزعم أقدم جماعة سرية عرفتها هذه الأرض منذ بدء الخليقة، والكل فيها يعلم، أننا نذرنا أعمارنا لهدف عظيم، علينا أن نحارب هؤلاء الملاعين، وأن نمنعهم من تنفيذ مخططاتهم الشيطانية، وكل هذا لن يكون سهلاً، فطوال الوقت سيكون هناك ضحايا منا، ومصابين، إننا نخوض معركة عظيمة طوال الوقت، ولا معركة في هذا العالم تمضى بلا ضحايا. "

ثم عاد للتحرك نحو مغارته، التي سبقه إليها حسام الدين وعمر، وأردف:

"-يا نجم الدين، ذهبنا إلى المعركة لأنه واجبنا، حتى لو كان في هذا هلاكنا، لقد كانت هذه هي المرة الأولى التي يظهر فيها الشيخ الأسود وفرسان الظلام في قتال كبير، وكان علينا أن نكون هناك، لنرى كيف صارت قدراتهم وقواهم، إذا شئنا محاربتهم وقتلاهم فعلينا أن نختبر قواهم أولاً، هل تفهم هذا؟ والأن دعني أعود لبيتي، وأذهب إلى الجرحى فأجمعهم وأحملهم إلي في المغارة. "

وفي المغارة غمغم حسام الدين في ضيق :

"-لا أفهم لماذا يتعامل معي نجم الدين هكذا، يسخر مني كلما تحدث معي، ويتحدث إلى بعنف كلما عارضته، وكأنه لا يطيق وجودي. "

ربت عمر على كتفه مهدئا، وقال:



"-كل هذا لا شيء يا صديقي، فهو لا يقصد شيئا من هذا، إن هذا هو طبعه، إنه حانقٌ طوال الوقت، فظٌ مع الجميع، ساخرٌ من كل شيء حوله. لكن حين تقترب منه أكثر، سترى رجلاً أخراً غير هذا، رجلٌ مخلصٌ حتى الموت لأصدقائه وأخوته في الجماعة ويخاف عليهم أكثر من خوفه على نفسه. "

بدا غير التصديق في وجه حسام الدين، فضحك عمر وأشار بإصبعه نحو صدره، وقال:

"- أنت لا تصدقني، أليس كذلك؟ لكن أنظر إلي، أنا نفسي لقيت نفس هذا الجفاء والسخرية منه حين جئت هنا للمرة الأولى، حتى كرهته، وفكرت أكثر من مرة في ترك الجماعة من أجل هذا، كنت صغيراً حينها وكان من العسير أن أتقبل تلك الأمور، لكن وبعد حينٍ، صرنا أفضل أصدقاء كما ترى، هل تعلم لماذا يتعامل معك نجم الدين هكذا؟"

"-لا أعلم؟ "

"-لأنه لا يرغب في موتك، هنا في الجماعة، الموت يطاردنا طوال الوقت، ولا أحد بمأمن منه، ولهذا يرى نجم الدين أن كل شاب ينضم للجماعة برغبته، هو أحمق يسعى خلف حتفه."

"-ليس من حقه أن يتحكم في قرارات البشر، من حق كل فرد أن يختار مصيره. "

"-أنت محق، لكنه لا يفهم هذا، لكنه معذور، لقد مر بتجربة مريعة شوهت الكثير في نفسه "

"-أي تجربة تلك؟"

ظهر الشيخ محفوظ على باب المغارة في تلك اللحظة، وقال لعمر في عتاب:



"-تجربة لا يجب الخوض في تفاصيلها يا حسام الدين، ولا يحب صاحبها استذكارها، أليس كذلك يا عمر؟ "

غمغم عمر قائلا في إحراج:

"-لم أقصد يا مولانا، إنني"..

"-لا تعتذر يا عمر، أعلم أنك لا تقصد، لكن دعك من هذا، فأنا أريدك في مهمة خطيرة، والأن وبعد أن شاهدت فرسان الظلام، ما رأيك ؟"

"-إنهم قادرون على هزيمة جيش كامل. "

"-لكن الشيخ الأسود غير منيع، وهو نقطة ضعفهم الكبرى، فما أن نقضي على الشيخ الأسود حتى ينتهي أمرهم، ويعودون لعوالمهم"

"-هل يعني هذا أنه لا يتمتع بقواهم؟"

قال حسام الدين في دهشة، فأجاب الشيخ محفوظ:

"-إنه يمتع بقوى هائلة بالفعل، لكنه في مازال يمتلك بعض ضعف البشر رغم كل شيء، وبسلاح مناسب يمكن التخلص منه "

"-وأين مثل هذا السلاح؟"

سأل عُمر في حذر، فاتجه الشيخ محفوظ نحو فراشه، ورفع حشيته، ثم أخرج سيفاً قديماً، له مقبض به نقوش عجيبة، وقال:

"-هذا السيف، ضربة من هذا السيف وينتهي أمره في الحال. "

ظهر نجم الدين أمام باب المغارة في تلك اللحظة، وقال في حسم:

"-أعتقد أنني خير من يصلح لمهمة كهذه."

هز الشيخ محفوظ رأسه في نفي، وقال:



"-كلا، إنها مهمة عمرهذه المرة، أما أنت فأذخرك لمهمة أخرى، فلا تتعجل."

"-وماذا عني؟ ألن أفعل أي شيء، يمكنني أن أكون مفيدا في أي قتال، و"..

"-كلا، أنت آخر من أرغب في فقده هذه المرة يا فتي، مكانك ها هنا ولن ألقيك في طريق الشيخ الأسود مهما حدث."

(34)

-" لقد أتت الأخباربهزيمة أبورقوة يا مولاتي !"

قالها القائد الحسين بن جوهر الصقلي، والكدر يغطي وجهه، فابتسمت ست الملك وقالت في عبث:

"-إذا لماذا لا أرى الفرحة في عين قائد الجيوش، أليس هذا انتصارك؟ "

صمت القائد الحسين للحظة، ثم قال في حنق لم ينجح في إخفاءه:

"-بل انتصار الفضل بن صالح."

"-وهل تشعربالغيرة، لأن أحد قادتك قد حقق النصربدلا منك؟ "

"-مولاتي تدرك ما أعنيه، المسألة ليس نصراً هذه المرة، يلوح لي أن مصير القاضي الحسين بن محمد بن النعمان في انتظاري. "

كان القاضي الحسين بن محمد بن نعمان هو قاضي القضاة، وقد عينه الحاكم بأمر الله مكان أبيه بعد أن مات، وبعد حينٍ، غضب عليه فأرسل إليه، وحين جاءه قطع ذراعيه، ثم أرسله إلى بيته برفقة طبيبة الخاص ليداوي جرحه،

وأغدق عليه بالأموال، ثم بعد حينً، غضب عليه ثانية، فأتى به، وقطع قدميه هذه المرة، قبل أن يقطع رأسه بعدها بأيام .

وقالت ست الملك بنفس اللهجة العابث :

"-وهل تخشى الموت يا حسين؟ "

"-تعلمين أن مولاي الخليفة لا يعزل عماله، بل يقتلهم، ثم يأتي بغيرهم. "

"-قد يكتفي بعزلك إكراما لأبيك، ويدعك حياً. "

"-كان للقاضي محمد بن النعمان، مثل ما لأبي من قدرومكانة، لكن هذا لم يشفع لأبنه القاضي الحسين."

"-هذا يعني أن عليك الهرب قبل أن ينالك. "

"-وإلى أين قد أهرب، سوف يدركني مهما ذهبت، وحينها لن يرحم! "

"-والحل في رأيك؟ "

أبعد نظره عنها، وتمنى لو تكف عن عبثها للحظة، أليست هي من أرسل إليه قبل اليوم لتكيد للخليفة، ألم تحاول استمالته للانضمام إلها في مكيدتها؟ ألم تدفعه لأن يكشف لها سره الدفين، وعلاقته السرية بجماعة الشيخ محفوظ، بل وجعلها تقابله؟ أين ذهب كل هذا؟ وهل كان هذا خدعة من خدعها هي وأخيها الحاكم، للإيقاع به؟ ابتلع ريقه بصعوبة، وهو يتخيل عاقبة شيء كهذا، ليت الحاكم بأمرالله يكتفي بقطع عنقه حينها .

قطع سيل أفكاره صوت ست الملك، وقالت وكأنها تقرأ وجهه:

"-لا تقلق أيها القائد، فمازلنا في صف واحد ولازلت أري أن أخي صار خطراً على بقاء دولتنا، وأنت مازلت أكبر حلفائي، ولن أرضى بخسارتك، لقد أرسلت في طلبك لنتدبر سوياً الأمر، مع حليف جديد! "



"-حليف آخر؟ هل أعرفه يا مولاتي؟ "

ضحكت ست الملك، وقالت:

"-بالطبع تعرفه، إنه الخليفة الجديد الذي ستقبل الأرض بين يديه، معلنا ولائك له "!

اضطرب صدره وهو يفكر، أي أمير من الأمراء تقصده؟ كان يعلم أن الجميع في العائلة الفاطمية، يخشاها ويخشى نفوذها، وأن كلمتها مسموعة لدى كل الأمراء المعزين، فأي واحد منهم تراها قد اختارته؟ وهل يقبله الأخرون، أم يعترضون؟

ثم سألها في حيرة:

"-من يكون يا مولاتي؟ "

"-ليخبرك بنفسه أيها القائد، إنه بالباب ينتظر "

ثم أمرت بإدخال ضيفها، مضت لحظات قبل أن يبرز رجل في منتصف العمر، أصلع الرأس كبير البطن والجسد. كان الأمير عبد الأعلى بن الأمير، هاشم بن المنصور، وامتقع وجه القائد الحسين بن جوهر الصقلي، وهو يردد في سره:

"كلا، بالله عليك ليس هذا الرجل!"

فمن بين كافة الأمراء كان الأمير عبد الأعلى، هو أكثر أمراء العائلة، مجونا وميلا للفسق والعربدة، كما أنه لم يكن محبوباً بين الأمراء الأخرين، لماذا تراها اختارت هذا الأمير بالذات، ليشترك معهم في تلك المؤامرة الخطرة للتخلص من الخليفة؟ هل اختارته من أجل تلك الأسباب كلها، ولأنها ترغب في ضمان عدم خروجه من بين يديها يوما ما، وربما اختارته هكذا، ليسهل التخلص منه بعد



ذلك لو أرادت. إن ست الملك داهية، ومن العسير أن تدرك تماما ما يجول بخاطرها .

وقال الأمير عبد الأعلى:

"-هل القائد الحسين بن جوهر الصقلي معنا؟ "

أجابته ست الملك:

"-إنه رجلنا الأمين الذي لن يخذلنا."

"-وهل يضمن ولاء قادة الجيش لو قتل الحاكم بأمر الله؟ "

"-فقط لو تحركنا بسرعة، هناك قائد جديد ينتظر تتويجه بقيادة الجيوش بدلا من القائد الحالي، وانتظر أن يكون هذا في الغد بعد المأدبة التي سيقيمها الخليفة احتفالا بالنصر."

"-وهذا يعني أن أمامنا وقت قليل، وأن علينا التحرك بسرعة. "

"-ولهذا نحن الثلاثة هنا الأن."

قالتها ست الملك، ثم طردت النظرة الساخرة من وجهها، وقالت في جدية:

"-لو شئنا النجاح في المكيدة فعلينا التخلص من رجل أخي الأول، ذلك الشيطان المدعو (الشيخ الأسود). إنه أخطر رجاله، وهو من يقوم بحمايته، كما أنه يمارس فنون السحر الأسود، وقد يدمر مخططنا كله بإحدى حيله. "

أمسك الأمير بكأس به شراب الورد، فشمه بأنفه، قبل أن يبتلع منه قطرات وقال:

"-يمكنني أن أرسل من رجالي من يقتله في فراشه. "



تذكرت الأميرة يدُ خادمها أبو القاسم الجرجاني، التي جاءتها في سلة، فقالت:

"-لن تفلح تلك الوسيلة، إنه شيطان حقيقي وقد أرسلت أبو القاسم الجرجاني، فلم يعد من عنده إلا كفه وخاتمه."

"-اذا فهذا سر اختفاء خادمك الأثير. أنتِ محقة يا بنت العم، طالما قد قتل أبو القاسم الجرجاني، فهو رجلٌ خطيرٌ بالفعل، إذا ماذا تقترحين؟"

"-الحيلة"!

قالتها ورفعت قنينة زجاجية بين يديها، تعرفها القائد الحسين بن جوهر الصقلي على الفور، كانت نفس الزجاجة التي منحها إياها الشيخ محفوظ ،

همست ست الملك:

"-السم هو سلاح النساء الأثير كما تعلم، وفي الغد هناك مأدبة عظيمة، سيقيمها الخليفة من اجل النصر، وكبير الطهاة مازال يتبع ست الملك، وينتظر رضاها"

ابتسم الأمير عبد الأعلى، وقال في مكر:

"-وماذا عن الخليفة؟ هل تودين تجربة سلاحك الأثير معه هو الأخر؟"

هزت رأسها في نفي وقالت:

"-لا يقتل الخلفاء هكذا أمام أتباعهم، أيها الأمير، إلا لو شئت إشعال فتنة قد لا تنجح في إخمادها، لا ينبغي أن يموت الخليفة أمام رجاله."

"-كم أنت داهية يا ست الملك، لكني رغم هذا ما زلت أتعجب، كيف لك أن تتأمري على أخاك، وكل من القصر يعلم قدره في نفسك؟"



وقبل أن تجيبه، فتح باب حجرتها فجأة، وظهر الحاكم بأمر الله أمام الباب، ومن خلفه دخل الشيخ الأسود، امتقع وجه الثلاثة في رعبٍ، وقد أدركوا أن مكيدتهم قد انتهى أمرها قبل أن تبدأ، وأن الخليفة قد كشف حتماً، تقدم الخليفة داخل الحجرة، وقال وهو يدير وجهه بين الثلاثة، بوجه متجهم:

"-ماذا أرى أمامي؟ قائد الجيوش الحسين بن جوهر الصقلي، والأمير عبد الأعلى بن المنصور، في حجرة الأميرة ست الملك، لماذا لم ترسلي إلي يا ست الملك، كي لا يفوتني مجلس لطيف كهذا؟"

كانت ست الملك أسرع من تمالك نفسه، فقالت باسمة:

"-لقد أتى الأمير عبد الأعلى للزيارة، وجاء القائد الحسين ليزف علي نصرك يا مولاي."

"- وهل جاء القائد ليخبرك بالنصر، قبل أن يبشر به الخليفة نفسه؟ أليس هذا عجيبا يا ابن دغل؟!"

أجابه الشيخ الأسود:

"-ربما اكتفى القائد، بِرُسل القائد الفضل بن صالح، التي أتت لتبشر مولاي بنصره."

"-وماذا عن الأمير؟ نسمع أخباره، ويصل إلينا فضائحه، ونسامحه، ثم يأتي القصر الكبير ليزور الأميرة، ولا يفكر في مولاه الخليفة؟ "

أسرع الأمير عبد الأعلى يقول معتذرا:

"-كنت لأستأذن في المثول بين يدي مولاي، بعد زيارتي للأميرة ست الملك، وكنت لأطلب أذن مولاي في الخروج لرحلة نحو الفيوم، من أجل الصيد. "



ابتسم الحاكم لأمر الله، وقال في غموض:

"-وهل اقدر على منعك يا ابن المنصور، أذهب إلى هناك متى تشاء وأحرص على أن تستمتع بوقتك. "

"-اشكر مولاي، لكن هل يأذن مولاي في أذهب إلى الحمام الأن؟"

"-بالطبع أيها الأمير، يمكنك أن تذهب، ارسل من يصحبه للحمام الخاص بي يا بن دغل."

راح قلب الأمير عبد الأعلى، يتواثب في صدره هلعا وهو يردد في أعماقه:

"*أنه يعلم ما كنا نفكر فيه، اقسم برب الحسين أنه يعلم* "

وتحرك الأمير برفقة الحرس، بينما التفت الحاكم بأمر الله نحو قائد الجيوش، وقال:

"-وماذا عنك أيها الحسين بن جوهر الصقلي، هل ترغب في القيام برحلة صيد أنت الأخر؟ "

"-أنا لا أجيد إلا قيادة الجيوش يا مولاي، ولا أمارس تلك الرياضة أو غيرها كما يعلم مولاي. "

"-اذا فسوف تحضر مواكب النصر، التي ستخرج من القصر الكبير الليلة فور أن يأتي القائد الفضل بن صالح بالأسرى "

شعر القائد الحسين، وكأنه طعنة اخترقت قلبه من كلمة القائد الفضل، وشكوكه تتأكد كل لحظة، وأجاب بصوت مخنوق:

"-أنا عبد مولاي ومكاني حيث يكون! "



في اللحظة التالية انطلقت صرخة احدي الجواري خارج الغرفة، وشعرت ست الملك بالشر القادم، وبعد لحظة دخل أحد حرس الخليفة حاملا صحفة من الفضة، فوقها رأس الأمير عبد الأعلى، وهي مازالت تقطر الدماء٬ فشهقت ست الملك جزعا، وهبط قلب القائد الحسين في قدميه، وابتسم الشيخ الأسود قائلا:

"-ها هو الأمير عبد الأعلى، قد عاد يا مولاي "

انفجر الخليفة ضاحكا في نشوة، وهتف:

"-لكنه جاء وقد نسى جسده في الحمام كما أرى. "

(35)

انطلقت أبواق النصر في كل أنحاء القاهرة، مع مجيء القائد الفضل بن صالح، وهو يقود الأسرى والغنائم إلى الخليفة الحاكم بأمر الله، ثم هبط الفضل من فوق فرسه، وناول اللجام لأحد الخدم، ثم انطلق إلى ديوان الخليفة، واستأذن في الدخول ثم دخل. ألقى بنفسه ساجداً، في خضوع كامل، ثم رفع رأسِه حين ناده الخليفة آمرا:

"-ارفع رأسِك أيها القائد الفضل، فاليوم هو يوم سعدك. "

قال الفضل في سرور:

"-انتصرنا على كل الخونة، وقتلنا منهم خلقاً كثيراً يا مولاي، وأسرنا خلقاً أكثر، ومن بقى وحاول الهرب، أرسلنا خلفه جنود مولاي ليأتونا به، ومن بينهم العاص الأكبر (أبو ركوه) . "



تقدم الشيخ الأسود نحوه، وقال مبتسماً:

"-لا تقلق بشأن (أبو ركوه)، إن انتصارك عظيم، وغير منقوص يا قائد الجيوش، وأبو ركوه حاضر منذ الأمس، في سجون مولاي، ينتظر عذاب مولانا الحاكم بأمر الله "

لمعت عينا الفضل في ظفر وقلبه يرقص في فرحة من قوله (قائد الجيوش)، وقال:

"-هل تعني أنك قد قبضت عليه؟ "

"-لم نكن لأغادر المعركة من غيره، لقد هرب حين لاحت الهزيمة، وكنت قد أرسلت من يراقبه ليرى أين يذهب، وحين ابتعد عن جيشه، تتبعه الرجال، وقد كان متجهاً إلى النوبة، حيث اختبأ في أحد أديرة النصارى، فأرشدنا لمكانه، أحد العربان حتى أوقعنا به، وجاء به الرجال مكبلاً في أصفاده. "

هبط الحاكم بأمر الله من فوق كرسي العرش، وخلع حلته المذهبة، وألبسها للفضل، وقال:

"-والأن تمنى علي، لتنال أيها القائد الفضل بن صالح. "

"-وهل أتمنى ما هو أكثر من رضا مولاي؟ "!

"-ولأني راضٍ عنك، فأسأل تُجاب. "

هنا أحاط الشيخ الأسود كتف القائد الفضل بذراعه وقال وهو ينظر إلى وجهه:

"-أرى أن جيوش مولاي بحاجةٍ لقائد جديد، قادر على جلب النصر، وقد برهن القائد الفضل على مهاراته في القيادة والقتال، وهزم المتمردين، وشتتهم في البلاد "



أومأ الخليفة برأسه موافقاً وقال :

"-أنت محق يا بن دغل، إذاً ليحل محل الحسين بن جوهر الصقلي، دعنا نكتب الأمر، ونوقعه وننشره في البلاد. "

القى الفضل بنفسه على الأرض ساجداً مرة أخرى، أسفل أقدام الخليفة، وقال دون أن يرفع رأسه:

"-هذا كرمٌ عظيمٌ من مولاي، وأعدُ مولاي أن أخدمه بدمائي وحياتي كلها حتى يرضى".

قال الشيخ الأسود معترضاً:

"-أرى أن نؤجل الأمر، حتى ننتهي من مأدبة الغد، التي سيقيمها مولاي احتفالا بالنصر، وأرى أن يظل الأمر سراً بيننا حتى ذلك الحين "

نظر إليه الحاكم بأمر الله، محاولا سبر أغواره، وقال:

"-ولماذا لا نفعلها اليوم؟ وكأنك تخشى القائد الحسين بن جوهر الصقلي! إنه خائن تآمر على مع الأمير عبد الأعلى، وكان لابد من قتله مع ذلك الخائن، لكنك من منعني من هذا "

"-لأني أرغب في معرفة باقي الخونة، القائد الحسين ليس بمفرده، وأنا أدبر خطةً للإيقاع بكل أعوانه، فقط أرجوا أن يثق بي مولاي، وينتظر حتى الغد، وحينها يمكن لمولاي أن يعزله عن قيادة الجيوش، وأن يقتله لو شاء "!

رمقهما الفضل في ذهول وغير تصديق، فرغم رغبته الشديدة في أن يحّل مَحّل القائد الحسين بن جوهر الصقلي، إلا أنه لا يصدق أن رجل كهذا قد يخون الخليفة مهما كانت الأسباب، إنه ومن قبله أباه ظلوا دوما رجال الدولة المؤمنين بها، والمخلصين لحكامها. لكنه رغم شكوكه لم يعقب، ففي النهاية يؤمن له



الخلاص من قائد الجيوش، أن يبقى في مكانه بغير خوف من أعوانه في الجيش الذين يدينون له بالولاء .

وقال الحاكم بأمر الله:

"-حسناً يا بن دغل، لنؤجل الأمر كما ترى، أنت مستشاري ولا اقطع أمرا دونك، لننتظر حتى الغد ولنرى ما سوف يحدث، والان لنستعد كي نخرج على الناس في موكب عظيم، متبوعين بالأسرى وأبو ركوه."

أجابه الشيخ الأسود مبتسماً:

" -أجل، نريد أن يرى الناس جزاء من يخرج على إلههم، الحاكم بأمر الله.".

وانطلق الخليفة في موكب عظيم فوق الخيول، حيث سار على يمنه القائد الحسين بن جوهر الصقلي، وبجواره القائد الفضل بن صالح، وعن يساره كان هناك الشيخ الأسود، بينما سار في كل من الجانبين ثلاثة من فرسان الظلام في عباءتهم الطويلة السوداء التي تخفى وجوهم، وتثير الرعب في النفوس.

وفي الخلف كان هناك أبو ركوه وقد حُمل فوق سرير، وعليه ثوب من ثياب النساء، وفوق رأسه طرطور طويل ومعه رجل يمسكه، كان هكذا للتشهير به. ثم سيق باقي الأسرى مكبلين في الأصفاد، حفاة عراة، وقد كانوا في نحو ستة آلاف ومائة أسير. راح الناس يصرخون في فرح وسرور عظيم، كلما اقترب الموكب منهم، وراح الكثيرين يسجدون للحاكم بأمر الله كلما مر بهم، لتحيته وإعلان إيمانهم بألوهيته وسرورهم بنصره .

ثم انطلقوا نحو الأسرى، فأخذوا يصفعون أقفيتهم وينتفون لحاهم، ويضربونهم بالأيدي والحجارة والخشب، حتى تفتحت أكتاف كثير منهم، فكان أمراً مهولاً، وهلك الكثير من الأسرى من هول ما لاقوه من عذاب بيد العامة، والحاكم يرقب هذا في سرور ورضا .



أما أبو ركوه، فقد أخذ الناس في سبه وضرب قفاه وصفعه، وراح الحراس يتعمدون إذلاله فيأمرونه أن يسجد للحاكم بأمر الله، فيسجد، ثم أمروه أن يعري مؤخرته فلما تأخر في تنفيذ الأمر، ضُرب بالسوط، فأسرع يرفع جلبابه ويظهر مؤخرته، ثم راح الناس يبصقون في وجه، ويضربونه بالحجارة حتى أدمى رأسه، واقترب من الموت، فأمر القائد الفضل ألا يمسه أحد كي لا يموت، قبل أن يقرر الخليفة كيف يقتله، وقرب باب زويلة، توقف الموكب حيث تقدم الأسرى، وراحت سيوف الجلادين، تحصد رؤوسهم وتقتلهم جميعاً، وحين انتهوا وقد اقترب الفجر أشار الخليفة، فقربوا أبو ركوه وقدماه لا تقدران على حمله، فساعده حارسين على الوقوف، وقال الحاكم بأمر الله :

"-ضعوه على خازوق من مؤخرته، وأياكم أن يموت، أريده أن يتذوق عذابا لم يجربه أحداً قبله "

وبمهارة قام احد الجلادين بوضعه فوق خازوق من دبره صعد داخل أحشاءه حتى خرج من فمه، فراح يطلق صراخات مكتومة وهو يرجوهم أن يقتلوه ليرحموه من هذا العذاب .

ونظر الشيخ الأسود إلى السماء وقد بدت أشعة الفجر الأولى في البزوغ، فمال برأسه نحو الحاكم بأمر الله، وقال في خفوت :

"-هل يأذن مولاي في العودة إلى القصر الكبير، فالنهار قد اقترب. "

"-لا بأس يا بن دغل، لنعود إلى القصر "

وما أن بدأ الموكب في التحرك، ودخل في زقاقٍ ضيقٍ، لا يسمح بالعبور إلا لفارسين فقط متجاورين، حتى هبط عشرة ملثمين، من فوق الدور، مهاجمين الخليفة ورجاله .



كان نجم الدين، هو قائدهم، وقد حمل في يده السيف المطلسم، الذي كان جده قد أعطاه لعُمر، وصرخ وهو يهاجم الشيخ الأسود:

"-لتلقى حتفك أيها الشيطان !"

انتبه له الشيخ الأسود، وألقى بنفسه بسرعة من فوق فرسه، حين لمح بعينه السيف، وأدرك خطورة أن يمسه، فألقى بنفسه نحو الأرض في عنفٍ، بينما انطلق فرسه مبتعدا في ذعر، كان المكان ضيق، والمفاجأة في جانب الرجال العشرة الملثمين، ونجحوا في القضاء على القائد الفضل بن صالح ، وقد شق أحدهم عنقه من الخلف، قبل أن تصل يده إلى سيفه، بينما تأخر القائد الحسين بن جوهر الصقلي، ونجح في الفرار من الملثم الذي يهاجمه .

أما الحاكم بأمر الله فلم يشعر إلا بسيف يشق صدره مكان قلبه، ويخترقه فسقط به من فوق فرسه، وأحد الملثمين يصرخ في وجهه:

"-هيا مت أيها الكافر اللعين."

رمقه الحاكم بأمر الله في غير تصديق للحظة، وقلبه يدق في عنف وقد ظن أنه سيلقى حتفه، وهذا السيف قد شق صدره، لكنه بعد لحظة أدرك أن الجرح لا يؤلمه، وأنه لا يشعر بأي ضعف رغم الدماء التي انهمرت منه، فنظر إلى السيف للحظة ثم ابتسم، ونهض أمام الملثم المذهول وهو يخرج السيف من صدره بيده، قبل أن يقول:

"-وهل تموت الآلهة هكذا أيها الأحمق؟ "

ثم ألقى بالسيف على الأرض واندفع نحو الملثم وهجم عليه قبل أن يفر، وهوى بأسنانه فوق عنقه فمزق أوردته، وراح يرتشف الدماء في نهم .



مات اكثرمن خمسة عشرحارسا من حراس الخليفة، قبل أن ينجح فرسان الظلام في دخول الزقاق الضيق، وقد رفعوا سيوفهم التي توهجت باللهب، فهاجموا الملثمين الذين راحوا يتساقطون أمامهم في سهولة .

حاول نجم الدين أن يعاود الهجوم على الشيخ الأسود مرة أخرى بالسيف، لكن الأخيررفع كفه الأيسرفي الهواء، في وجه نجم الدين، وفي اللحظة التالية وجد نجم الدين نفسه معلقاً في الهواء، وقدميه لأعلى ورأسه لأسفل، وقوى هائلة خفية تقيده، واتسعت ابتسامة الشيخ الأسود، وقال وهو يقترب منه:

"-فشلت يا فتى، كان عليك أن تقتلني في المرة الأولى، وإلا فقدت فرصتك للأبد "

ثم مد كفه نحو اليد القابضة على السيف، لينتزعه من يده، وعبثا حاول نجم الدين المقاومة، لكن القوى السوداء التي تقيده كانت رهيبة، فلم يقدرعلى فعل شيء، والتقط الشيخ الأسود السيف من يده، ورفعه أمام عينه، ثم قال وعيناه تلمعان في غيرتصديق:

"-السيف السليماني؟! وبعد كل تلك السنون الطويلة يظهر ثانية؟ هذا أسعد ما لاقيته منذ قرون !"

كان فرسان الظلام قد انتهوا من قتل كل الجنود الملثمين، واتجه أحدهم بسيفه الناري، نحو نجم الدين ليقتله، لكن الشيخ الأسود، استوقفه بكفه قائلا:

"-ليس الآن، مازلت بحاجة إليه!"



(36)

رمق الشيخ محفوظ جسد عمر فاقد الوعي و والمقيد أمامه بحبال غليظة في أسف، ثم تأمل الكدمة الزرقاء الكبيرة على جانب عنقه، قبل أن يقول للرجال الواقفين حوله:

-"ماذا تنتظرون؟ هيا حلوا وثاقه، واحملوه إلى المغارة، إنه بحاجة لإسعاف عاجل."

اندفع رجال ثلاث إلى الجسد الساكن، وتعاونوا على تخليصه من الحبال، بينما قال حسام الدين للشيخ محفوظ، في توتر:

-"ترى من فعل به هذا؟ "

هز الشيخ محفوظ رأسه في اسف وأجاب:

-"انه نجم الدين !"

اتسعت عينا حسام الدين، وتدلى فكه الأسفل، في ذهول وردد:

-"نجم الدين، مستحيل! ولماذا يضربه هكذا؟ "

تحرك الشيخ محفوظ مغادرا المنزل الحجري الصغير الذي يقطنه كل من نجم الدين وعمر. تبعه حسام الدين، وقال الرجل العجوز:

-"إنه خطأي وحدي، أنا أكثر من يدرك طبيعة نجم الدين، وكان ينبغي أن أتوقع هذا."

-"لست أفهم."



ابتسم الشيخ في مرارة وقال:

"-نجم الدين يتسم بالعناد، وهو يرى أنه أفضل المقاتلين بين الرجال، وهو كذلك بالفعل، كما أنه يرى أن عمر يفتقد للبراعة في القتال اليدوي، وهذا أيضا صحيح، وحتما شَكَ في إمكانية نجاح عمر في تنفيذ مهمته في قتل الشيخ الأسود، لقد ظن أن الأمر يقتصر على القتال، و ولهذا هو الأجدر على القيام بتلك المهمة."

"-طالما الأمر هكذا، لماذا لم ترسل نجم الدين، بدلا من عمر لتنفيذ تلك المهمة؟ "

"-لأن القتال هو آخر ما كنت افكر فيه، لقد أخترت عمر لأنه الوحيد في الجماعة، الذي يجيد استعمال السحر، ولقد زودته بتعويذة قوية قادرة على إخفاءه للحظات، كانت كافية للتخلص من الشيخ الأسود قبل أن يشعر به. "

تذكر حسام الدين الرجل المبتسم دائما، ذو النظرات السوداء المرعبة والذي طالما زاره في أحلامه، قبل أن يراه في المعركة، وتذكر قواه الرهيبة، والتي مكنته من تسخير الحيوانات نفسها، فقال في شك:

"-وهل كان هذا ليفلح؟"

"-الشيخ الأسود هو سيد السحر الأسود في هذا العالم، بل ولم ترى الأرض من يملك قدراته وموهبته، ولا حتى بين أسلافه. أنا أعلم أن تلك التعويذة لم تكن لتخدعه طويلاً، وسيكتشف أمرها بسرعة، لكني كنت أعتمد على المفاجأة، فالأمر نفسه لن يحتاج، إلا للحظات قليلة، يغمد فيها عمر السيف السليماني في جسده، ثم يختفي قبل أن ينتهي مفعول التعويذة، الأمر لم يكن بحاجة لقتال، قدر ما كان في حاجة لخطة محدودة، وشخص قادر على إلقاء



التعويذة بصورة صحيحة، لتعمل. وعمر كان الوحيد القادر على هذا، على خلاف نجم الدين الذي لا يؤمن بالسحر ولا يجيده."

"-لكنك كما قلت، كنت تعلم أن نجم الدين عنيدٌ، وسيرغب في القيام بالأمر بدلاً من عُمر، فلماذا لم ترسلهما سويا، ليكون نجم الدين خطتك البيلة، لو فشل عمر مثلا "

توقف الشيخ محفوظ وقد صار أمام مغارته، ثم أشار للبيوت الحجرية الصغيرة والأكواخ الخشبية، التي يعيش فيها أتباع جماعته، وقال:

"-لأن احتمالات الفشل في تلك المهمة، أكبر من فرصة نجاحها، كما هي العادة في كل عملياتنا، وكل هؤلاء الأتباع المخلصون يفتقدون لشيء مهم للغاية، موهبة القيادة، وهذا الأمر لا يتوافر إلا في عمر أو نجم الدين، وكنت أَعُدهَما ليكون أحدهما خليفتي في قيادة الجماعة، ولهذا لن أخاطر بإرسالهما سوياً في مهمة واحدة، قد يفشلا فيها، والفشل لدينا لا يعني شيئاً غير الموت. "

ثم استدار نحو باب مغارته ودفعه وقال:

"-المشكلة أن نجم الدين، لم يذهب بمفرده، لقد اصطحب معه عشرة من الرجال، وكما علمت فقد دار قتال محدود بين فرسان الظلام، وبينهم ولم ينج أحد منهم في هذا القتال."

هتف حسام الدين في جزعٍ:

"-هل هذا يعني أن نجم الدين قد مات؟"

"-ربما! فحتى الأن لم يعلقوا جثث القتلى، كما يفعلون كل مرة، ولهذا لا أحد يدرى إن كان نجم الدين بين القتلى وهذا ما أتمناه، أم أخذوه أسراً؟

صدقني يا حسام الدين، الموت خير ألف مرة من أن يقع نجم الدين أسيراً في أيديهم."

دخلوا المغارة في وجوم وصمت، واتجه الشيخ إلى الحائط، حيث استقرت أغراضه، والتقط زجاجه بها سائل مائل للزرقة، فهزه في رفق فتحول لونه للون البرتقالي، وتصاعد الدخان نحو قمة الزجاجة، وقال دون أن ينظر إلى حسام الدين:

" -يبدو أن الأمر هذه المرة غير كل مرة، ويبدو أننا نخسر معاركنا طوال الوقت، من سوء حظى أن أكون أنا زالذي يشهد انتصارالشيخ الأسود في عهده، انه عارلو تعلم ما بعده عار "!

حركت الكلمات التي تقطر ألما ويأسا الشفقة في نفس حسام الدين فقال:

"-لكن المعركة لم تنتهى بعد، أنت لازلت هنا، ومازال هناك لديك الأتباع، وهناك عمروأنا، علينا ألا نستسلم "

أسلم الشيخ جسده لأقرب مقعد منه، وغمغم في إرهاق:

"-الأمر ليس بتلك السهولة التي تظنها، فقد التهم الزمن قواي وأهلكني، وأما عنكم فلا قبل لكم بالشيخ الأسود وسحره. يا بني، هذه المرة لا أرى غير الهزيمة، لقد فشلنا في منعه من استدعاء فرسان الظلام، كما كنا نفعل كل مرة، ثم فشلنا في قتالنا معه، وها هوقد سيطرعلى الخليفة الحاكم لأكبرالبلاد في هذه الأرض، وأوهمه بالألوهية، وها قد خسرنا اليوم المزيد من الرجال ومعهم نجم الدين، فأي انتصارننتظره بعد هذا؟ الأمرقد انتهى بالفعل."

"-وماذا بعد هذا، هل تريدنا أن نعلن استسلامنا؟"



"- لا أدري ما علينا أن نفعله يا بني، إنه في طريقه لاستدعاء أحد شياطين (المن) القديمة إلى الأرض، لتبدأ نهاية العالم الذي نعرفه. "

بدت الفكرة مخيفة، فقال حسام الدين وجسده قد اقشعر رعبا:

"-هذا أدعى ألا نستسلم، علينا أن نحارب حتى النهاية، وعليك أن تفكر في حيلة ما، للتغلب علي سحر ذلك الساحر اللعين وأتباعه، لن نترك العالم لينتهي على يد هؤلاء، علينا أن نحارب من أجل عالمنا."

رمقه الشيخ محفوظ للحظات في إشفاق، وهز رأسه ببطء، قبل أن يقول:

"-أتعلم ما هو الشيء المهم الذي علينا فعله الأن؟ "

"-مرني بأي شيء ،وسأفعله "

"-ارحل عن هذا المكان! "

"-ماذا تقول؟ "

"-عليك أن تذهب بعيدا عن هنا، يا حسام الدين، لديك سلمى ابنة القاضي، وكما أخبرتني فهي مستعدة للزواج منك شرط أن ترحلا بعيداً."

"-وماذا عنكم؟ هل أترك الجماعة وسط القتال، وأهرب، ألست واحداً منكم؟"

"-لا تلق بالاً بالجماعة يا حسام الدين، إنها موجودة منذ آلاف السنين، وطالما شهدت انتصارات عظيمة، وهزائم قاصمة، وفي كل الحالات بقت ولم تختفي، أنت فقط الشخص الوحيد، الذي عليه ألا يظل في أرض مصر لحظة واحدة، أنت هدفه الوحيد الأن."

"-أشعر بالرعب مما تقوله، ماذا تقصد بقولك أنني قد أصبحت هدفه، هل تخفي شيئا عني يا شيخ محفوظ؟"



صمت الشيخ محفوظ للحظات في تفكير قبل أن يقول:

"-سوف أخبرك يا بني، من حقك أن تعلم الحقيقة "

في اللحظة التالية برز الرجال الذين يحملون عمر فاقد الوعي، أرقدوه على الفراش، فاقترب منه الشيخ محفوظ، وقرب فوهة الزجاجة التي يحملها في يده، من أنفه بعد أن فتح سدادتها فتصاعد بخار نحو انف عمر، ومضت لحظة قبل أن يهتز جانب فمه ويدمدم بكلمات غير مفهومة قبل أن يفتح عينيه مرة واحدة وينظر حوله في ذهول للحظات وكأنه يستكشف ما حوله، ثم هتف فجأة في ذعر:

"-النجدة يا شيخ محفوظ، أين ذهب نجم الدين؟، لقد باغتني وضربني، بعد أن سأني عن مهمتي وأخبرته، أدركوه قبل أن يذهب."

(37)

رقد نجم الدين في الظلام، على الأرض فاقدا الوعي. ومن خلف المنصة الحجرية، وقف الشيخ الأسود وقد تراقص اللهب الأسود على وجهه، فمنحه ظِلاً شيطانياً غير بشري. راح يرمق النار في إصرار، وكأنه يستنطقها، قبل أن يبتعد وينظر إلى جسد نجم الدين، وقد رسم ابتسامته الساخرة على وجهه، ويغمغم:

"-يبدو أنه قد حان الوقت لأيقاظ الفتى الشجاع، فحتما لديه ما يستحق أن يخبرنا به. "

ثم انحني نحو الفتى ووضع أصبعه فوق جبهته، وفرقع قائلا:

"-استيقظ !"



فتح نجم الدين عينيه على الفور على اتساعهما، فلم يرى شيئاً في البداية بسبب الظلام، وبعد لحظات غمغم في دوار:

"-أين أنا؟ "

"-في الجنة حتما أيها الشاب، ألا ترى الحور العين من حولك؟ "

نظر نجم الدين إلى الشيخ الأسود الذي يرمقه بابتسامةٍ ساخرةً، في حيرةٍ، وبعد لحظات انتبه إلى موقفه، فهب من مكانه محاولا مهاجمته وقال:

"-أنت أيها الملعون!"

لم يتحرك الشيخ الأسود من مكانه، واتسعت ابتسامته، وهو يلوح بكفه في وجه نجم الدين، وقال:

"-مهلاً أيها الشجاع، ألا تتعلم من أخطائك؟ لن تتمكن مني هكذا! "

صرخ نجم الدين في ثورة، وهو يحاول بلا جدوى تخليص نفسه، من قوي خفية شلت حركته وقيدته إلى مكانه:

"-دعني أيها الجبان، أطلق صراحي، وواجهني وجها لوجه لو كنت رجلاً."

"-صدقني يا فتى، حتى لو كان سيفك في يدك، وأنا أعزل بلا سلاح، فلن تتغلب علي."

"-جربني، وسترى بنفسك كم أنت واهم."

ضحك الشيخ الأسود، وقال وهو يتحرك نحو المنصة الحجرية:

"-كنت لأستمتع بفعل هذا قبل قرون، لكني ولحسن حظك، قد سئمت تلك اللعبة الأن، وسئمت ممارستها، أتمنى لو تصدقني، أنه لا أحد قد واجهني طوال عمري الطويل، ونجا ليرى هزيمته. "

ثم التقط السيف السليماني، ورفعه أمام وجهه في انبهار، وعيونه تتوهج رغم الظلام:

"-حتى هذه اللحظة، لا أصدق أن شيء كهذا قد وقع بين يدي، أنت تستحق جائزة كبيرة لأنك أتيتني به."

"-كنت لأقتلك به، لولا أنك محظوظ."

"-هذا صحيح، لكن من سوء حظك، أنك قد فشلت، وفي النهاية أنا من ظفر به، لا تدرى، كم أنا سعيد والسيف في حوزتي الأن."

"-لأنه السلاح الوحيد القادر على قتلك."

ضحك الشيخ الأسود، وصوب السيف نحو عنق نجم الدين، وأجاب:

"-قَتلي فقط؟! كم أنت بريء وساذج يا حفيد الشيخ محفوظ، هل تعلمت أن تستعمل سلاحاً دون أن تعرف قيمته وسره؟"

ثم تحرك ثانية نحوه، وتوقف أمام جسده الراقد على الأرض ورفع السيف الذي راح يبرق في الظلام بضوء شبحي خفيف، أمام عينه، وقال:

"-هذا هو السيف السليماني أيها الشاب، أحد السيوف السبعة التي هبطت بها الملائكة من السماء، وحاربت به الكيانات القديمة، وهناك من يقول أنه كان سيف جبريل نفسه، إن تلك السيوف العظيمة قادرة على قتل أي كائن مهما كان، البشر و الجان والكيانات القديمة والشياطين بل وحتى الملائكة. لقد اختفت السيوف الستة، ويقال أنها في مكان سري في السماء، وبقى هذا السيف حتى وصل ليد النبي سليمان فحارب به، قبل أن يختفى مع موته."

نظر نجم الدين إلى السيف في غير تصديق، وقال :

"- كل ما أعلمه أن هذا السيف، هو الشيء الوحيد القادر على هزيمتك."



"-وهل أنكرت؟ إنه قادر على إهلاكي . لكن المهم أن يبلغ إلى عنقي أولاً."

ثم عاد لينظر للسيف في انبهار، وسرور، وقال :

"-لا أصدق أن يكون الشيخ محفوظ بمثل هذا التهور والاندفاع، ليعطيك سلاح كهذا لمجرد قتلي، أنه إما يائس تماما، أو فقد تعقله. وفي كلا الحالتين هو مهزوم."

حاول نجم الدين إثارة غضبه، فقال:

"-جدي يعرف كيف يصل إليك، وسوف يتغلب عليك في النهاية، كما فعل من قبل، أم تراك نسيت؟ "

اتسعت ابتسامة الشيخ الأسود، وقال وهو يقرب وجهه من وجه نجم الدين:

"-بل أنا من سيذهب إليه هذه المرة، يبدو أنك لا تعلم الواقع الجديد. لقد انتهى أمر جدك وجماعته، وبين يدي صبي مطيع، سيخبرني بمكانه، وما يداريه من أسرار!"

"-هراء، لو كنت تنتظر أن أفعل، فأنت واهم! لن أفعل حتى لو مزقتني إلى قطع صغيرة."

"-وهل قلت لك أني بحاجة لموافقتك أو حتى لتمزيقك، كي تخبرني بما أريده؟ من الخطأ أن تستهين بقواي هكذا يا نجم الدين، يبدو أن جدك لم يخبركم ما أستطيع فعله."

ثم وضع كفيه حول رأس نجم الدين، واتسعت ابتسامته الواثقة، وهو يضغط عليها، ويكمل :

"-يكفيني أن أفعل هذا."

شعر نجم الدين أن أصابع الشيخ الأسود، قد اخترقت جمجمته، حتى بلغت مخه، وراحت تعتصره ، كان الألم عنيفاً، لا يطاق. لكن صرخة واحدة لم تخرج من فمه، وكأنما فقد لسانه وحنجرته، راحت الذكريات التي يحتفظ بها في عقله تنتقل إلى الشيخ الأسود عبر أصابعه رغماً عنه، وبعد وقت بدا لنجم الدين، وكأنه عقود طويلة من الألم، رفع الشيخ الأسود كفه عن رأسه فراح يلهث في إعياء، بينما قال الشيخ الأسود:

"-ضعقلك يحتشد بالكثير من الذكريات والخبرات أيها الشاب، رغم صغر سنك، كما أنك تمتلئ بكراهية تكاد أن تحرقك. هل تكن لي أيها الشاب كل هذا الكره؟ ولماذا؟ لأني قتلت أباك، وهل فعلتها بإرادتي، لقد كنت أدافع عن نفسي أمامه. لقد كان الخيار خيار أبيك، إنه من سعي إلي. "

ورغم ألمه الرهيب، وإنهاكه الرهيب، جاهد نجم الدين ليقول:

"-سوف أقتلك يوما ما!"

"-أنَتظرُ مثل هذا اليوم بشغف يا فتى، وإن أشك في أنك ستفعلها، لكن دعني أقدم لك شكري للمرة الثانية، وقد أرشدتني هذه المرة لمكان جدك وجماعته. "

ثم ضحك وهو يبتعد عنه، وأردف:

"-كم كنت مفيد أيها الشاب، ولهذا أعدك ألا تموت الأن، يجب أن تشهد بعينك، كيف تكون حسرة جدك، حين يعلم أنك من تسبب في هلاك جماعته "

شعر نجم الدين بالمرارة لفشله، لقد فقد السيف، والأن يتسبب في هلاك جده وجماعته بحماقته وفشله.

توقف الشيخ الأسود خلف المنصة الحجرية، ورفع كفيه فوق النار، فتوهجت بشدة، حتى أضاءت الحجرة بأكملها، هنا رأي نجم الدين للمرة الأولى، فرسان الظلام الواقفين في جانب الحجرة الواسعة الحجرية، في سكون وجمود، بينما قال الشيخ الأسود لهم:

"-تعرفون الأن ما عليكم فعله؟"

هز الستة رؤوسهم بلا صوت، فقال الشيخ الأسود وهو يفسح الطريق لهم:

"-حسنا، أنتظر البشارة السعيدة، لكن لا تمسوا حسام الدين بأي أذى."

وأمام عينا نجم الدين المذهولة، تحرك الفرسان الستة نحو النار العظيمة التي تعلو المنصة الحجرية، ثم إبتلعتهم النيران !"

(38)

دلفت جميلة باب الكوخ في سرعةٍ، وقالت في لهفة:

"-الشاب الوسيم قادم إليك، أتنوين التحدث إليه هذه المرة، أم لا زلتي ترفضين، كما في المرات السابقة؟"

كانت سلمى تحيك ثوباً لها، وهي تجلس على بساط من الصوف فوق الأرض، وقد ضمر جسدها، وغاضت الدماء من وجهها، وانتشرت الهالات السوداء حول عينيها. رفعت رأسها إلى جميلة في لا مبالاة، وقالت:



"-أخبرتك من قبل أني لا أريد، ليتركني الجميع وشأني!"

"-لكنه لا يكف عن المجيء إلى هنا، والانتظار أمام الكوخ لساعات."

لم تعقب سلمى على رجائها، ففي تلك اللحظة كانت لا تشعر إلا بالوحدة والضعف. لقد مات أبوها، من أجل حسام الدين، وها هو حسام الدين يرفض رجائها بالرحيل معها، والهرب إلى مكان بعيد، لا يُذّكرها بما لاقته في مصر، والأكثر غرابة أنه أتاها، منتظراً موافقتها على إنضمامه لتلك الجماعة الغامضة التي أنقذتهم، وكأن القرار حقه وحده، وما عليها إلا القبول والطاعة. لم يهتم بألمها ولا ذعرها من الحياة في مكان، صار يصيبها بالكوابيس، وكل ما فكر فيه هو ماذا يريد.

هنا شعرت أن قد ضاعت بالفعل، فأسود العالم في عينيها، وامتنعت عن الطعام والشراب، إلا ما يقيم أودها، ويمنحها القدرة على البقاء حية، حتى ذيل جمالها، وهزل بدنها، وراحت تدعو الله في كل لحظةٍ، أن يقبض روحها لتلحق بأبيها. بدا حبها لحسام الدين في هذا الوقت، وكأنه ذكرى تنتمي للماضي، لزمن ولى ولن يعود، ولم تعد تطيق رؤيته، أو سماع صوته، فلولاه لما مات القاضي.

كانت كثيرا ما تحدث نفسها، أن حبيبها الذي أحبته قد ذهب ومات، في نفس اليوم الذي قُتل فيه القاضي .

وقالت جميله في النهاية في يأس:

"-اذاً لن تقابليه؟"

لم تهتم بإجابتها، فتنهدت جميله في يأس، وهزت كتفيها في اشفاق حقيقي، وغمغمت وهي تتجه نحو الخارج:

" -كما تشائين، سأذهب إليه، وأخبره برفضك."



نظر إليها حسام الدين في الخارج في إحراج، وارتباك، وقال بصوت منخفض:

"-هل يمكنني الحديث إلى سلمى؟"

"-مازلت ترفض هذا."

"-أخبريها أن الأمر ملح هذه المرة، يجب أن أراها."

"-أقسم أنني ألححت عليها، لكنها عنيدة."

فكر حسام الدين في الانصراف، ومعاودة الكرة مرة أخرى، قبل أن يهز رأسه رافضا الفكرة، ويقول في حسمٍ:

-" إذا لأدخل رغما عنها، عليها أن تستمع إلى هذه المرة."

قالها ودفع الباب ودخل، فهاله رؤيتها ، وقد انطفأت الحياة من وجهها هكذا، فهتف في جزعٍ:

"-سلمى، ماذا حل بك، هل أنتِ مريضة؟"

لم ترفع رأسها نحوه ولم ترد، بل ولم تتوقف ولو للحظة عن حياكة ثوبها، فاقترب منها، وجلس أمامها، وهمس في رقة:

"-جئت اليوم لأعتذر، لقد كنت محقة بالفعل، كان علينا أن نغادر هذا المكان منذ البداية، سوف أفعل هذا الأن، سوف نرحل سوياً إلى مكان بعيد لا يعرفنا فيه أي أحد."

مرة أخرى لم ترد، فواصل حديثه، وهو يمد كفه نحو يدها، التي كانت ترتعش بضعف:

"-لماذا لا تتحدثين، ألم تكن هذه رغبتك؟"



جذبت كفها من يده، فور أن لمسها وكأنما لدغها ثعبان، ثم رفعت وجهها نحوه للمرة الأولى، ورمقته في بلادة، وكأنها لا تعرفه، ثم قالت:

"-اذهب عني وابتعد، لن أفارق مكاني هذا، إلا إلى قبري "

"-سلمى، كفي عن هذا، وأفيقي مما بك، أنا حسام الدين، حبيبك! ألم يكن شرطك للزواج مني أن نرحل عن هنا؟ وها أنا قد جئت لأخبرك، بأننا سنرحل في هذه اللحظة لو شئت "

خفضت وجهها نحو الثوب الذي كانت تحيكه ثانية، وغمغمت:

"-ابتعد عني، لن أذهب إلى أي مكان، هيا ارحل."

"-سلمى..! "

لكنها صرخت في اللحظة التالية في جنونٍ، وهي تهتف:

"-قلت لك، دعني وشأني وارحل .. هيا ارحل .. ارحل! "

اندفعت جميله في تلك اللحظة إلى داخل الكوخ، وجذبت حسام الدين لتقوده للخارج، وهي تقول:

"-اذهب يا حسام الدين الأن من فضلك، ابتعد عنها الأن. "

تبعها حسام الدين في ذهول، ثم راح يبتعد عن كوخها. ظل يسير حتى بلغ صخرةً بعيدة مرتفعة، فجلس عليها، ووجد نفسه رغما عنه يبكي وينتحب، للمرة الأولى في عمره كله. شعر بالعجز وهو لا يدري ما أصابها، هل فقدت سلمى عقلها، أم أنها صارت كرهته وتكره الحياة نفسها، وراحت ترغب في الموت كما تقول؟ وهل كان موت أبيها هو السبب الوحيد في ما وصلت إليه، أم كان هو السبب الأكبر في ما حدث لها؟

ليته يدري !



هبت رياح باردة قوية في المكان فجأة، وراحت تدفعه بقوة، وكادت أن توقعه من مكانه، فتمالك نفسه ونظر حوله في عجب، من أين جاءت تلك الرياح الباردة، والسماء من فوقه صافية، لا أثر فيها للزوابع أو الغيوم؟

وفي مغارته كان الشيخ محفوظ يغفو في فراشه. وحين اندفعت الرياح الباردة فجأة في الخارج، هب من نومه في فزعٍ، ونظر حوله في الظلام مضطربا، قبل أن يقول :

"-رحماك يا الله!"

ثم نهض من فوق الفراش، وبحث عن عصاه في الظلام، حتى وجدها، ثم تحرك نحو الخارج في عجلة وهو يقول :

"-ما كل هذا الشر الأسود الذي أشعر به؟ إنهم قادمون، إنهم هم بلا ريب! "

بلغ باب المغارة ثم خرج، ونظر إلى جماعته الملتفين حول بعض الشعلات النارية، وصرخ فيهم بكل قواه:

"-أطفئوا كل النار كلها في الحال أيها الحمقى، ألا تشعرون بهم؟ انهم قادمون !"

التفت الجميع إليه في دهشة، قبل أن يعاود الصراخ، قائلا:

"-قلت لكم أطفئوا النيران، أطفئوها أو تهلكون!"

لكن تحذيره جاء متأخراً، ففي اللحظة التالية توهجت شعلات النيران كلها بغتة، وارتفعت ألسنتها في الهواء وتضخمت، ثم خرج فرسان الظلام الستة من وسط النيران، وهم يطلقون صرخات حادة تصم الآذان، وأيديهم تحمل سيوفهم النارية .



ورغم الفزع، اندفع الرجال حول النار محاولين الهرب. وصرخت النساء والأطفال. وفي اللحظة التالية راحت السيوف النارية تقطع الأعناق وتشق الرؤوس في سرعة وقسوة. حاول البعض الدفاع عن نفسه، لكن لم يكن هناك سيف ليصمد، أمام السيوف النارية، التي راحت تمزق السيوف، وتخلع الأكتاف وتشق الأذرع بلا رحمه.

ومن مكانه حاول الشيخ محفوظ فعل أي شيء، لصد الهجوم فرفع كفيه وهو يردد إحدى تعاويذه، فظهرت صواعق صغيرة من قلب عصاه ثم دفعها نحو أحد فرسان الظلام، لكن الصاعقة ارتدت عن فارس الظلام دون أن تصيبه بأي أذى، فالتفت فارس الظلام إليه، ثم تحرك في هدوء نحوه، فقال الشيخ محفوظ في أسى وقلة حيلة:

"-إنهم اقوى مما تخيلت، وسحري أضعف من أن يوقفهم، الطف بنا يا الله!"

وظهر حسام الدين، وهو يهرول نحوه، قادما من أعلى قمة الجبل، وهتف وهو يلهث فور أن بلغه:

"-ما الذي يحدث هنا؟"

"-لقد انتهى أمر الجماعة هنا يا حسام الدين، لقد عرف فرسان الظلام مكاننا!"

التفت حسام الدين إلى فارس الظلام القادم نحوهم، وقال وهو يخرج سيفه من جرابه:

"-أحدهم قادم إلى هنا يا شيخ محفوظ، عليك أن تختبأ، وسوف أحاول إلهاءه حتى تبتعد. "



لكن الشيخ محفوظ هز رأسه في رفض، وغمغم:

"-لا ضرورة لهذا، مواجهته تعني موتك، وهو لن يصل إلينا."

اقترب منهم فارس الظلام، حتى صار على بعد أقدام قليلة، ثم توقف و نظر أسفل منه للحظة، قبل أن يرفع رأسه ويصرخ في غضب، صرخة مدوية كادت أن تُذهب بسمع حسام الدين، أحاط حسام الدين بكلتا أذنيه بكفه في ألم، واغمض عينه في قوة، حتى انتهت صرخة الفارس، ثم فتح عينيه ونظر إلى فارس الظلام الواقف في مكانه ورأسه تدور في المكان، وقال:

"-لماذا لا يتقدم نحونا؟"

أجابه الشيخ محفوظ، وهو يشير إلى الأرض أسفل قدم الفارس:

"-لأن دائرة من الطلاسم القوية تحمي المغارة، وتمنع حتى الشياطين من دخولها !"

نظر حسام الدين في ألم إلى المذبحة التي تدور أمامه، وفرسان الظلام يذبحون الرجال والنساء والأطفال والذين راحوا يعدون في كل مكان في يأ، وقال محتداً:

"-ولماذا لم تصنع واحدة مثلها حول كل بيت أو حتى تحيط المكان بها؟"

"-المكان بالفعل كله محاط بالفعل بدائرة أقوى من هذه. كان من المستحيل أن يخترقوها من الخارج، كما كانت تمنعهم من معرفة مكاننا حتى لو استخدموا أقوى علوم السحر. لكنهم جاءوا عبر النار متجاوزين الدائرة، وكان هذا أقوى من أمنعه."

ثم انزلقت دمعة كبيرة من عينيه في حسرة، وقال:



"-ما يحدث أمامك أقوى مني يا بني، فمهما بلغت من قوة، فأنا مجرد بشري ضعيف في النهاية، ومن تراهم أمامك لا ينتمون لعالمنا، ولا يخضعون كثيرا لقوانا أو قوانين عالمنا."

"-وهل نكتفي بالفرجة على الرجال وهم يقتلون كالنعاج، ونقف في مكاننا آمنين بفضل تلك الدائرة اللعينة التي تحمينا؟ "

"-وماذا بيدنا لنفعله، لن نقوى على مواجهتهم وقتالهم، ولو غادرنا الدائرة للحقنا بالباقين. هل تفضل أن نلحقهم أم نحافظ على حياتنا ونستعد للجولة التالية؟"

"-أي جولة تالية تقصد، الجماعة قد هلك كل رجالها، فمن لديك لتستعين بهم بعد ذلك في جولاتك؟ "

هز الشيخ محفوظ برأسه في يأس، وقد أدرك صدق كلمات حسام الدين.

ابتعد فارس الظلام من أمامهم، ولحق بزملائه، حيث راحوا يفتشون البيوت الحجرية والأكواخ بحثا عن الهاربين، قبل أن يبلغوا الكوخ الذي تحيا فيه سلمى، فاندفعوا داخله، هنا صرخ حسام الدين في جنون، وتحرك ليلحق بهم، ويدافع عن حبيبته، وهو يصرخ:

"-كلا ليس سلمى أيها الشياطين! "

لكن الشيخ محفوظ لم يدعه، بل ضرب رأسه في نفس اللحظة بعصاه، وهو يقول:

"-كلا، لو ذهبت ستموت."

وهوى حسام الدين في مكانه وقد فقد وعيه مرة واحدة، بينما رمق الشيخ الأسود فرسان الظلام، الذين غادروا الكوخ في تلك اللحظة، وقد حمل



أحدهم جسد سلمى المغمى عليه، قبل أن يتجهوا إلى النار، التي ازداد توهجها ثانية واتسعت رقعتها، فاندفعوا إلى داخلها لتبتلعهم على الفور، قبل أن تعود لهدوئها، تاركين خلفهم المكان وقد تضمخ برائحة الموت.

(39)

امتلا القصر بالمحتفلين بالنصر، وساد الصخب في كل مكان، تحرك الخدم بين الحشود المحتفلة المسرورة، حاملين صحائف الطعام والفطائر والحلوى والعصائر والمشروبات والمياه الباردة، وتحلق البعض في حديقة القصر حول بعض المهرجين والحواة، وراحوا يتابعون بشغف وسرور عروض التسلية التي سمح بها الخليفة، في واحدة من المرات النادرة التي يسمح فيها باللهو والمرح.

وحول المأدبة الرئيسية تجمع كبار الأمراء وقادة الجيش، وفي مقدمتهم القائد الحسين بن جوهر الصقلي. بينما جلست ست الملك إلى جوار الحاكم بأمر الله، الذي راح ينظر حوله وقد بدا التوتر على وجهه، كان الوقت قد تأخر، والطعام لم يوضع بعد فوق المائدة، في انتظار إشارته. لكنه كان في انتظار الشيخ الأسود، الذي لم يكن في أي مكان داخل القصر.

لم يرغب الحاكم بأمر الله أن يبدأ المأدبة في غيابه، بينما تبادل الضيوف الهمسات الخافتة، دون أن يبدو التذمر أو الملل على وجوهم، خوفا من أن يلحظ الخليفة هذا فيبطش بهم.

راح القائد الحسين بن جوهر الصقلي، يختلس النظر إلى ست الملك، التي لم تفارق الابتسامة شفتيها للحظة واحدة. وفي داخله وجد نفسه يتساءل في تعجب:



" من أي معدن قُد قلب تلك المرأة؟، تدبر مكيدة عظيمة، دون أن يبدو على وجهها أي أثر لهذا ! "

امرأة قوية بالفعل، ولولا أنها خلقت كامرأة، لكانت جالسة على عرش الخلافة بلا شك!

حاول مداراة توتره، بالانشغال بالحديث مع أحد الأمراء الفاطميين، لكنه لم يعي الكثير مما يقوله هذا الأمير، كان هذا هو أخطر يوم في حياته كلها، اليوم الذي قد يشهد نجاته من موت محقق، أو موته في نهايته .

مضى بعض الوقت، ثم ظهر الشيخ الأسود، بابتسامته المعتادة المخيفة، ونظراته الثاقبة المرعبة، تحاشى الجميع النظر إلى عينيه، حتى ست الملك تحاشت عينيه، حتى وهو يقوم بتحيتها، بإيماءة صغيرة من رأسه، ثم جلس في الناحية الأخرى إلى جوار الخليفة، وقال لها:

"-مولاتي الأميرة ست الملك، كم يسرني دوما أن أراكِ!"

هزت رأسها له دون أن تجيبه، في نفس الوقت الذي انحنى فيه الشيح الأسود، نحو أذن الخليفة، وهمس له:

"-اعتذر عن تأخري يا مولاي، لكن الأمر كان يستحق!"

قطب الحاكم بأمر الله جبينه وقال:

"-أي أمر؟ "

"-سأخبر مولاي فور انتهاء المأدبة، لقد حققت نصرا سيسعد حتما مولاي. "

علم الحاكم بأمر الله أنه لا مفر من الانتظار، فأشار إلى الحاجب الذي صاح على الفور:



"-قدموا الطعام!"

اندفع الخدم في نشاط لوضع الصحائف والأطباق فوق الطاولة الضخمة أمام الخليفة وضيوفه، تحاشت ست الحسن النظر إلى كبير الطهاة الذي قام بصف أطباق الطعام أمام الخليفة أولاً، ثم اتجه إليها، قبل أن ينتهي بالشيخ الأسود الذي راح ينظر إليه في إمعان. وانتظر الكل، أن يأذن لهم الخليفة ببدء الأكل. بينما تظاهر الشيخ الأسود بمحاولة تنظيم أطباق الطعام أمامه ثم وضع طبق اللحم الذي قدمه له كبير الطهاة أمام الخليفة، وهمس له:

"- أرى أن هذا اللحم سيروق مزاج مولاي!"

هز الخليفة رأسه مستحسناً، ومد يده نحو قطعة من اللحم، وضعها في فمه، وعلى الفور امتدت الأيدي للطعام، انتهى الحاكم بأمر الله من تناول تلك القطعة من اللحم، ومد أصابعه نحو قطعة أخرى، لكن الشيخ الأسود هتف فجأة :

"-مهلا يا مولاي !"

توقفت يد الحاكم بأمر الله في مكانها، ونظر إلى الشيخ الأسود في عجب، وقال:

"-ماذا هناك يا بن دغل؟ "

نهض الشيخ الأسود من مكانه ونظر حوله وقال:

"-أين كبير الطهاة؟ "

تقدم كبير الطهاة بوجه ممتقع وأجاب بصوت مذعور :

"-أمر سيدي"!

"- تناول من هذا اللحم يا رجل. "

شحب وجه ست الملك، بينما اتسعت عينا كبير الطهاة ذعراً، ووجد نفسه بصورة تلقائية ينظر إلى ست الملك مستنجداً، في نظرةٍ لم تغب عن عين الشيخ الأسود، ثم هتف الحاكم بأمر الله في قسوة:

"-ألم تسمع الأمريا رجل، تناول من هذا اللحم!"

تناول الرجل قطعة من اللحم في توتر ونظر إليها نظرة المحكوم عليه بالموت، وقربها من فمه، بتردد لكن الشيخ الأسود نهض من مكانه، وقال وهو يحيط كتفه بذراعه:

"-إنها مسمومة، أليس كذلك؟ "

شهق الرجال في المأدبة ذهولاً، وألقى كل منهم ما بأيديهم من طعام، بينما سقطت قطعة اللحم من يد كبير الطهاة، ووجد نفسه ينهار بغتة، ويسقط على الأرض، وهو يقول:

"-الرحمة يا مولاي!"

قال له الحاكم بأمر الله في قسوة:

"-ليس قبل أن تخبرنا من دفعك لفعلها !"

"-إنها مولاتي يا مولاي، الأميرة ست الملك."

نظر إليها الجميع في آن واحد، وهب الحاكم بأمر الله من مقعده، وهو يرميها بعين تقدح بالشرر، وصرخ فيها:

"-أنت؟! أنت حاولتِ تسميمي؟"

أجابت في هدوء، دون أن تختلج عضلة واحدة في وجهها :



"-لم أفكر في هذا ولا للحظة واحدة، لقد كان هذا من أجل هذا اللعين الواقف بجوارك، ذلك الشيطان الذي أفسد كل شيء منذ أتى. "

ابتسم الشيخ الأسود في تشفٍ، وكأن كلماتها تمتدحه، بينما التفت الحاكم بأمر الله إلى حارسين يقفان خلفه، وهتف فيهما :

"-اقبضوا عليها واحبسوها في حجرتها حتى انظر في أمرها. "

وقبل أن يتحرك الحارسين من مكانهم، هب القائد حسين بن جوهر الصقلي من مكانه وأشار لأحد أعوانه، فاندفع الأخير نحو الباب، بينما صرخ القائد حسين، وهو يخرج سيفه من جرابه:

"-لن يحدث هذا وأنا حي "!

قالها واندفع نحو الحارسين، اللذين فوجئا به أمامهما بغتة، فرفعوا سيفيهما نحوه، واستعدا لقتاله، في نفس اللحظة التي نهض فيها صاحب الشرطة، محمد بن نزال، ولوح بسيفه في مواجهة الأمراء وباقي الضيوف الملتفين حول المائدة، قائلا في نشوةً، وقد راقه الأمر:

"-ليلتزم كل منكم مكانه أيها السادة، إنه خلاف محدود بين الخليفة وأخته، ولا أحب أن يحشر أحدكم أنفه بينهما، والا اضطررت لقطعه. "

بينما تحرك خمسة من قادة الجيش، الذين يدينون بالولاء للقائد الحسين بن جوهر الصقلي من مكانهم، وقد شهروا أسلحتهم في وجه الجميع، وقال اقدمهم للضيوف:

-سمعتم ما قاله صاحب الشرطة، فأرجوا ألا تضطرونا لاستعمال سيوفنا."

نظر الحاكم بأمر الله إلى ما حدث في غير تصديقٍ، ثم صرخ :



"-إذا فقد اشترك الكل في هذه المؤامرة الحقيرة، سوف أقتلكم جميعا، سوف أسلخ جلودكم أيها الخونة، إلى يا حراس!"

وبينما نجح القائد الحسين في التخلص بمهارة من أحد الحارسين، وتفرغ للثاني، تحرك محمد بن نزال نحو الخليفة، في سرعة وقال ساخرا:

-يؤسفني أن أخبرك يا مولاي أنهم لن يجيبوك ، فأكثرهم مهموم الأن بالحفاظ على عنقه."

وبالفعل ارتفع صوت قتال بالأسلحة في الخارج، وانطلقت الصرخات الكثيرة، بينما واصل ابن نزال اندفاعه، ووضع حد سيفه على عنق الشيخ الأسود، الذي حافظ على ابتسامته الساخرة رغم كل ما يحدث، وقال:

"-لا تدرى كم يسرني أني عشت حتى بلغت تلك اللحظة التي أضع فيها سيفي فوق عنقك! "

"-وهل تظن أن هذا كافيا للتخلص مني، يا صاحب الشرطة؟ "

كان القائد الحسين قد صرع الحارس الثاني في تلك اللحظة، ثم وضع سيفه فوق عنق الحاكم بأمر الله، بينما أجاب ابن نزال الشيخ الأسود:

"-بل أكثر من كاف، بالمناسبة سيروقني كثيرا أن يحتفظ رأسك بتلك الابتسامة الساحرة بعد أن أقطعه، أعدك أن أضع رأسك في حجرتي، لأتطلع لتلك الابتسامة الفاتنة، كل يوم قبل أن أنام! "

"-أعدك أن تكون ابتسامتي هذه آخر ما تراه، قبل أن تموت يا صاحب الشرطة !"

بينما قال الحاكم بأمر الله لأخته، الجالسة في مكانها في ثبات وهدوء:



"-إذا فقد دبرت كل هذا؟ أخبريني بماذا وعدتهم كي تقنعيهم بخيانتي والانضمام إلى صفك، أحدهم سيظفر بك كزوجة والأخر سينال الوزارة، أليس كذلك؟ "

أجابته ست الملك في هدوء، وبرود:

"-ما زلت كما أنت، لا ترى إلا ما يصوره لك عقلك المريض، لو كان هناك من دفعهم لخيانتك فهو أنت، أنت من بدأ كل هذا يا أخي الصغير! "

"-وماذا ستفعلين بي؟ لا أظنك تحبسيني. سوف تأمرين بقتلي، أليس كذلك؟ "

"-لا تدري كم تمنيت ألا يحدث هذا ! "

ثم التفتت إلى الحسين بن جوهر الصقلي، وهزت رأسها، وكأنها تعطيه الإذن بقطع رأس الحاكم بأمر الله، فشهق كل من بالقاعة في توتر، بينما حافظ القائد الحسين بن جوهر الصقلي، على هدوئه، ورفع سيفه عاليا لينفذ الأمر، في نفس اللحظة التي قال فيها الشيخ الأسود:

"-مهلا يا رجل، لماذا ينسى الجميع أنني هنا ؟"

وفي اللحظة التالية وجد الحسين سيفه يسقط بغتة من يده، بعيدا عنه، ثم طار جسده في الهواء، ليرتطم بالحائط في عنف، ويسقط أسفله بلا حراك، في نفس الوقت الذي اختفي فيها جسد الشيخ الأسود من أمام ابن نزال، ثم ظهر في اللحظة التالية خلفه، وركل بقدمه السيف الذي يمسكه، فأفلتته أصابعه رغما عنه، ثم دفع ظهره بقدمه، بقوة هائلة فأسقطه أمامه.



وفي الخارج ترددت الصرخات الرهيبة، قبل أن يفتح باب القاعة فجأة، ويظهر فرسان الظلام الستة أمام الباب، وسيوفهم النارية مازالت تقطر بالدماء.

اندفع القادة الخمسة نحو فرسان الظلام، لكن القتال لم يدم سوى لحظات ثم قُتل القادة الخمسة. اقترب الشيخ الأسود من جسد صاحب الشرطة الذي أسقطه ورفعه من ملابسه بيد واحدة في بساطة، رغم كل مقاومته حتى ارتفعت قدميه فوق الأرض، دون أن يبدو عليه أثر لكل الضرب الذي يكيله له ابن نزال بقدميه أو يديه. الصق الشيخ الأسود ظهره بالحائط في قوة، وقال في سخرية:

"-وكما وعدتك، ستكون ابتسامتي الساخرة آخر ما تراه قبل موتك "يا صاحب الشرطة، أنا رجل ينفذ دوما بوعده."

ومد كفه الأخرى في الهواء فاندفع سيف صاحب الشرطة، الذي وقع منه نحويده، وكأنما تحمله قوى خفية إليه، ثم دفع السيف في جسد ابن نزال الذي شهق في ألم وذعر وذهول، بينما أكمل الشيخ الأسود، وهو يلقى بجسد صاحب الشرطة المحتضر على الأرض:

"-وسأفعلها بسيفك!"

وهو بالسيف، على عنقه، فقطعه في اللحظة التالية، واستدار الشيخ الأسود الي ست الملك، وقال في سخرية:

"-والأن ما رأي الأميرة، أليس هذا وقت الاستسلام؟ "

وقبل أن تجيبه سقط الحاكم بأمر الله على الأرض بلا حراك، فانحني الشيخ الأسود نحوه وهمس وهو يحمله:



"-إنه السم! لقد بدأ مفعوله يظهر!"

(40)

أفاق حسام الدين بغتة، وفي اللحظة التالية نظر حوله في حيرة وهتف:

"-أين أنا؟ "

سمع صوتا يجيبه :

"-إنه نحن يا حسام الدين، لا تقلق."

احتاج الأمر للحظات قبل أن يستعيد ذاكرته، فنهض من رقدته وصرخ:

"-يا الهي! سلمي لقد ذهبت الشياطين إليها! "

كان يستعد للنهوض، لكن عمر دفعه من صدره في شيء من القوة، نحو الفراش، وقال :

"-مهلا يا رجل، إلي أين؟ "

"-دعني يا عمر، إنهم يهاجمون سلمى."

"-لقد حدث هذا بالأمس، إننا في الصباح الأن."

نقل حسام الدين نظره بين عمر، الواقف فوق رأسه، والشيخ محفوظ الجالس بعيداً، وقد وضع رأسه بين كفيه في وجوم، ثم هتف:

"-لقد تذكرت، أجل ، لقد ضربني الشيخ محفوظ، على رأسي بعصاه، حين أردت أن أنقذها، لقد منعني من هذا. "



"-لقد أنقذ حياتك يا صديقي، لو ذهبت لقتلك فرسان الظلام."

نهض حسام الدين في ثورة، واتجه نحو الشيخ محفوظ وقال :

"-ولربما نجحت في إنقاذها، ليس من حقه أن يمنعني، أو يقرر ما عَلّي أن أفعله، لماذا فعلت هذا يا هذا؟ولماذا لم تتركني لأنقذها، أو حتى أموت معها؟ لماذا تركتها لتموت أيها العجوز اللعين؟ "

رفع الشيخ محفوظ رأسه، ونظر إليه بعين خبت منها الحياة. وغمغم:

"-إنهم لم يقتلوها، لقد أخذوها معهم."

"-أخذوها؟! ولماذا؟ "

"-إنها طعم ليستدرجوك، أنت من يريدونه، لا هي. "

انتاب حسام الدين الذهول. يستدرجوه؟! هل فعلوا كل هذا من أجله؟ هذا محال !

"-ولماذا يفعلون؟ لا تخبرني أن كل هذا من أجل ذلك المغربي اللعين الذي قتلته! لا تقل لي أن رأسي تساوي كل تلك الأرواح التي أزهقت، وكل هذا السحر الرهيب الذي رأيته!"

"-أنت تساوي أكثر من هذا في الواقع، أنت فقط لا تعلم."

عاد حسام الدين، لينقل بصره بين الإثنين في غير فهم، ثم قال:

"-لا أفهم قولك يا شيخ محفوظ، أم تراها خدعةً أخرى، لأصمت عما فعلته بي وبسلمى؟ "

نهض الشيخ محفوظ من مكانه، وقال وهو ينظر إلى عينيه:

"-لقد أخبرتك من تكون أمك، أليس كذلك؟ "



"-ست الملك، هذا ما قلته، لكن هذا لا يهمني الأن، أنا أريد سلمى. "

"-وأنت لا تعلم لماذا يريدك الشيخ الأسود، ولماذا يزورك في أحلامك، ويحاول استمالتك إلى جانبه؟ "

"-وما أدراني؟ "

"-هل تعلم ما الذي يسعي إليه الشيخ الأسود؟ "

"-قلت أنه يرغب في استدعاء بعض من الشياطين القديمة إلى الأرض!"

"-نعم، ولكن هذا يحتاج إلى الكثير من السحر القوي، والي قرابين بشرية من رجال تنتمي لنسل قابيل، وهناك ما يدفعني للشك أن دماء قابيل، تجرى في دماء الفاطميين، وربما ورثت تلك الدماء عن طريق أمك !"

"-وحتى لو كان هذا صحيح، فمازال أمامه العشرات من الأمراء الفاطميين الذين يحملون نفس الدماء، فلماذا أكون أنا الشخص المناسب، لإتمام تلك الطقوس الملعونة؟"

"-حتى هذه اللحظة لا أدري، لكن هناك ما يدعوني للظن أن الأمر يتعلق بأبيك."

"-لكنني لا أعلم من يكون أبي؟ "

"-لم تفصح ست الملك عنه، لقد ولدتك ست الملك، وبصورة ما نجحت في التستر على هذا، وأرسلتك إلى القاضي ليربيك، وحتما فعلت هذا لسر ما، فكما تعلم لم تتزوج ست الملك إلا مرة واحدة ولم تنجب فيها، كما هو معروف، فهل تزوجت أحدهم في السر، وكنت أنت ثمرة ذلك الزواج؟ وهل خشيت من بطش أخيها الخليفة، فأرسلتك خارج القصر كي لا يفتضح أمرها؟ أعتقد أن هذا هو

أكثر الاحتمالات قبولا، لكن يبقى السؤال، من كان ذلك الرجل الذي تزوجته وانجبتك منه؟ "

"-اسمع يا شيخ محفوظ، كل تلك التخمينات، أوحتى الحقائق لا تعنيني، وحتى رغبتي القديمة في معرفة من يكون أبواي قد نسيتها، ما يعنيني الآن هو انقاذ سلمي من براثن هؤلاء الشياطين، قبل أن يمسوها بسوء."

قال عمر معترضاً:

"-ربما كان هذا ما ينتظرونه، وربما يترقبون ذهابك اليهم الآن. "

"-حتى لو كان هذا صحيحاً، فسوف أذهب إليها، لو أرادوا حياتي نفسها في مقابل أن يدعوها تذهب، فسوف أقدمها بلا تردد. "

هتف الشيخ محفوظ هذه المرة:

"-وما أدراك أنهم سيتركونها حينها؟ "

"-وما أدراني أنهم سيفعلون العكس، سوف أحاول إنقاذها، وإن فشلت، فسأقوم بتسليم نفسي لهم في مقابل أن يتركوها. "

"-وماذا لو كنت أنت القربان المنشود، واستعملوك لجلب شياطينهم لهذا العالم؟"

"-لا يهم، ليحترق العالم كله، المهم أن أنقذ سلمى. "

"-وهل تعتقد أن سلمى ستحي طويلا في عالم يحكمه الشياطين؟ "

"-ولو تركتها واستمعت إليكم فسوف يقتلونها بلا شك، كما فعلوا من قبل مع أبيها، كلا، لن أسمح بشيء كهذا ما حييت، ولو كانت حياتي نفسها هي الثمن."



عاد عمر ليقول له، رافضا ما يقوله:

"-اسمع يا حسام الدين، الشيخ محفوظ محق في كل شكوكه، إنهم في انتظارك بالفعل، من حسن حظي أني كنت في القاهرة، حين هجم فرسان الظلام على مخبئنا، كنت في الواقع أحاول أن أعلم، هل ما زال نجم الدين حياً، أم أنه قد قُتل، وقد تأكدت من أنه حياً في أحد الزنازين أسفل القصر الكبير. وحين أردت العودة، سمعت المنادين في كل مكان، وهم ينشرون بين الناس أن هناك مكافأة عظيمة لمن يرشد عنك، كما راحوا يهتفون أن ابنه القاضي، سوف تُقتل، لو لم تسلم لهم نفسك حتى صباح الغد. "

"-هذا يعني ألا نتأخر عنها أكثر من هذا!"

"-ليس هذا فقط ما أتيت به من أخبار، لقد جرت محاولة فاشلة في القصر لاغتيال الحاكم بأمر الله، وقد قتل صاحب الشرطة فيها وثم قُتل قائد الجيوش الحسين بن جوهر الصقلي، كما قبضوا على ست الملك، وحبسوها في حجرتها. "

"-كل هذا لا يعنيني، يمكنكم أن تساعدوني لإنقاذ سلمى، أو دعوني أسلم نفسي وأفتديها بحياتي، لكني لن أنتظر حتى تموت. "

تبادل عمر النظر مع الشيخ محفوظ في استسلام، ثم قال الأخير:

"-حسنا، ما دمت مصراً يا حسام الدين، لكن هذا يستدعي البحث عن خطة مناسبة "



(41)

كان جسده يحترق !

لم يكن هناك وصف أبلغ من هذا، ليصف ما يشعر به، فكل جزء في جسده كان مشتعلاً بالألم، عظامه وأحشائه وصدره وجلده.

وآه من جلده !

راح يحكه بعنفٍ، وكأنما أصيب بالجرب، ولا يهدأ إلا والدماء تتفجر منه، لينتقل إلى بقعة أخرى. وحين نظر إلى المرآة هاله الرجل الغريب، الذي يراه أمامه في المرآة، ليس هذا أبداً الحاكم بأمر الله، بل كان رجلاً آخراً لا يعرفه، رجل أسوّد جلده، وتَساقط الشعر من رأسه وجسمه، بينما امتلأ وجهه بالفقاقيع الكئيبة، والكدمات الزرقاء .

صار كجثة تتحلل وتتعفن، لكن الفرق هذه المرة أن صاحب هذه الجثة ما زال حيا يتنفس!

ماذا يحدث له؟

تحرك نحو الباب، لينادي على أحد الخدم، فوقع أكثر من مرة، وكأن قدماه غير قادرتان على حمله، واحتجت أمعائه، فتقيأ سائلاً أسوداً، متعفناً، كريه الرائحة. مسح فمه بكفه، وبلغ الباب، وبالكاد نجح في فتحه، ثم نادي بصوت واهن :

"-أيها الخادم."

انتبه إليه أحد العبيد، فأسرع إليه، وقد هاله أن يراه ساقط فوق الأرض لا يقوى على النهوض، انحنى نحوه، وساعده لينهض، دون أن ينجح في كتمان



نفوره، من الرائحة الكريهة، التي كانت تنبعث من جسد الحاكم بأمر الله. كانت رائحة جثة!

بلغا الفراش فرقد الحاكم فوقه في إعياء، وهتف:

-ماء !

ناوله الخادم الماء، لكن الأحشاء الجافة، كالهشيم لم يروها الماء، بل شعر حين شربه أنه قد صب بعض الزيت على النار، فازدادت اشتعالا، وبعد لحظة لفظت معدته ما شربه، وراح يتقيأ في عنفٍ، حتى شعر بأنه سيتقيأ أحشائه نفسها .

أدرك أنه يحتضر !

الإله يموت !

وأين الشيخ الأسود اللعين، وكيف لا يكون بجواره ويفعل له شيء ما؟ هتف في الخادم بآخر ما تبقى من قوة في نفسه:

"-اذهب واحضر ابن دغل، أحضره بلا إبطاء."

أسرعَ الخادم ليخرج من الحجرة، وقد كان هذا كل ما يرغب فيه، فرائحتها صارت كجوف قبر ملئ بالجثث المتحللة، بينما راح الحاكم بأمر الله يلهث، وهو يفكر بذهن مشوش، كيف صار هكذا، وأين بن ميمون الطبيب، وكيف لم يسارع بعلاجه، وأي مرض هذا الذي ينهش جسده هكذا!؟

لم يدر بالوقت، وسقط في غفوة جديدة، قبل أن يفيق على صوت الشيخ الأسود وهو يغمغم:

"-كيف حال مولاي؟ "

رمقه في استغاثة ودمدم :



"-ماذا ترى؟ "

"-جسد يلفظ الروح، وينتظر الموت."

"-وهل تموت الآلهة؟"

"-فقط لو ظلت في جسدها البشري الهش الضعيف."

حاول الحاكم بأمر الله النهوض فلم يقدر، ولم يحاول الشيخ الأسود مساعدته بل ظل يرمقه في هدوء، ثم استسلم الحاكم بأمر الله للرقاد، وهتف:

"-ماذا يحدث لي؟ أخبرني كيف صرت هكذا؟

مال الشيخ الأسود نحو أذنه، وأجاب:

"-لم يحتمل جسدك كل ما مر به فإنهار، لقد تعرضت للغرق، وطعنك أحد المتمردين بالسيف في قلبك، ثم كان السم القوي الذي دسته لك ست الملك، انها ميتات ثلاث نجوت من اثنين منها والثالثة فيها النهاية. إن جسدك البشري ضعيف. "

"-هل تعني أنني سأموت؟ "

هز الشيخ الأسود رأسه في أسف، رغم أن وجهه لم يحمل ذرة من التعاطف، فصرخ الحاكم بأمر الله:

"-لكنك وعدتني بالخلود !"

ابتسم الشيخ الأسود وكأنه ينتظر تلك الكلمة، فمال نحوه وقال:

"-وما زال الوعد قائما يا مولاي ، لكني بحاجة هذه المرة لقوى لا تنتمي لهذه الأرض لتمنحك جسداً آخر غير هذا المعطوب، جسداً قوياً يصلح لأن يحيا لمئات السنين دون أن يتلف. "



"-ولماذا لا تستدعها؟ افعل أي شيء لأعيش، لا أريد الموت!"

"-لكل شيء ثمنه يا مولاي، والثمن هذه المرة عظيم." "!

صرخ الحاكم بأمر الله في رجاء:

"-سأدفع، أقسم أنني سأدفع لك كل ما تريده."

"-ليست الدنانير والذهب ما ينفعك الآن يا مولاي، إنه الدم هذه المرة."

"-خذ دماء من شئت، لكن لا تتركني للموت."

نهض الشيخ الأسود وتحرك مبتعداً عنه، ثم غمغم في صوت منخفض:

"-حتى لو كانت دماء أحد الذكور من أبنائك؟"

اتسعت عينا الحاكم بأمر الله في ذهول وصاح:

"-خذ كل شيء، إلا (علي) ابني، انه وريثي الوحيد."

"-ليس (علي) من أقصده، إنه ابنك الآخر!"

"-ابني الآخر؟ ليس لي من الذكور إلا (علي)."

"-بل لديك ابن آخر، أسَنُ من (علي)، شاب جميل يحمل الدم الفاطمي النقي، سَل ست الملك عنه، وستخبرك من يكون!"

رمقه الحاكم في تشوش للحظة، قبل أن يتذكر، فابتلع ريقه بصعوبة، وقال وهو يلهث:

"-لكنه قد مات."

"-كلا، لقد خدعتك ست الملك وأخفت أمره عنك، إنه حي يا مولاي، بل وقريباً سيكون في هذا القصر!"



اغمض الحاكم بأمر الله عينيه في إعياء، وغمغم:

"-خذه، لو كان هو الثمن فخذه، إنه لا يهمني."

اتسعت ابتسامة الشيخ الأسود في رضاً وسعادة، فقال:

"-هل تعلم يا مولاي، أن هذه ليست المرة الأولى التي أعقد فيها اتفاقا مع خليفة فاطمي، لأنقذه من الهلاك، مقابل دماء أحد أبنائه؟"

لم يعقب الحاكم بأمر الله، وبدا وكأنه غرق في غيبوبة جديدة، فواصل الشيخ الأسود رغم هذا حديثه وقال:

"-لقد ظهرت لجدك الأول (عُبيد الله المهدي)، وقد حاصره الأعداء من البربر في خندق جبلي، وراحوا يلقونه بالسهام. مات أكثر جنوده ونفقت دوابه ونفذ الطعام والماء، ولم يكن أمامه إلا الموت في مكانه جوعاً وعطشاً، أو الاستسلام لأعدائه ليموت بسيوفهم، هنا ظهرت له، وعرضت النصر، مقابل أن يقدم أحد أبنائه كقربان لسيدي ليعود ثانية لأرضكم، بالطبع وقتها كان في سبيله للهلاك، وكان مستعدا لأي تضحية لينجو. وافق على عرضي، فجاء فرسان الظلام، وشتتوا أعدائه وأهلكوهم فنجا، لكنه نسى العهد بعدها، ومات قبل أن يفي بدينه، هنا صاردينه إرث خلفائه منكم"

ثم مال نحو أذن الحاكم بأمر الله، المغشي عليه، وهمس:

"-ورغم ما لدي من ميثاق كتباه بالدم، لم أُجبر أحدكم على الوفاء بدينه، فلا أحد يتميز بالصبر في هذا العالم مثلي، رُحت أظهر لكل خليفة من أجدادك، وأنجده من هلاك محقق، أو أنقذه من عدوٍ قوي، ثم أطالبه بالوفاء بدينكم الأول، لكن لا أحد منهم أوفى بعهده أو دينه، كنت قادراً على إجبارهم جميعا على هذا، لكن هذا لا يصلح. فمن سوء الحظ أن الطقوس لن تنجح، إلا لو قدم



أحدكم ابناً بإرادته. ولهذا كان علي أن أنتظر كل تلك السنون، حتى توليت أنت الحكم."

قالها ثم ضحك، وهو يلتقط كوبا من الفضة، صب فيه الماء البارد، وشربه قبل أن يكمل:

"-هذه المرة حياتك ستنتهي، لو لم تقدم ابنك قربانا، ومن حسن طالعي هذه المرة أن ابنك هذا لا ترغب فيه. لقد آن للحكاية، والرحلة الطويلة أن تنتهي أيها البشري الضعيف."

ثم فرقع بإصبعيه بجوار أذن الحاكم بأمر الله فأفاق مرة أخرى، وتمتم بضعف:

"-افعل شيء من أجلي يا صديقي، أشعر بالظمأ وأحشائي لا تطيق الماء، أو حتى الشراب."

"-وأنا هنا لأساعدك بالطبع يا مولاي، أنت ظمآن بالفعل، وسوف أساعدك لتروي عطشك."

قالها وتحرك نحو الباب، ونادي على العبد الأسود القابع خلفه، ثم أمره أن يتبعه، دخل العبد الغرفة في توتر، وقد عادت الرائحة الكريهة إلى أنفه، وقال له الشيخ الأسود، آمراً:

"-قف إلى جوار مولاك أيها العبد ولا تنظر خلفك أو تتحرك."

تقدم العبد نحو فراش الخليفة في توتر، ووقف في جمودٍ، وهو يسترق السمع، لكنه لم يسمع غير أنفاس الحاكم بأمر الله اللاهثة، وبعد لحظة أظلمت الدنيا في عينيه بغتة، دون أن يفهم ما حدث له قبل، ثم سقط رأسه من فوق عنقه مبتورا.



هنا أمال الشيخ الأسود العنق المبتور النازف نحو فَمِ الخليفة، وقال:

"-هيا اشرب يا مولاي، هذا هو الترياق، ليستعيد جسدك عافيته. "

وفور أن تذوق الحاكم بأمر الله الدماء، دبت الحياة في جسده بغتةً، فانحني في قوة نحو الأوردة المقطوعة، وراح يرتشف منها الدماء في نهم. هذه المرة لم تحتج أحشائه ولم تلفظ ما بها، وفي لحظات راح جلده يستعيد رونقه وحيوته، وحين انتهى من امتصاص كل قطرة من دماء عبده، نهض في قوة ونشاط، ونظر إلى الشيخ الأسود في امتنان، قبل أن يقول:

"-متى تقوم بطقوسك؟ "

"-قريبا جدا يا مولاي، فقط انتظر أن يسقط العصفور الصغير في يدي."

"-افعلها يا بن دغل، فلا أرغب أن اشعر بهذا الضعف مرة أخرى. "

"-اطمئن يا مولاي، لو فعلناها وجاء السيد من عالمه فسيمنحك الجسد القوي ولن تشعر بأي ضعف مرة أخرى "

مسح الحاكم بأمر الله الدماء من فمه ثم قال:

"-والأن حان الوقت لألقى ست الملك، فهناك ما أنتظر سماعه منها."

(42)

نظرت الجارية إلى الطعام والماء، الذي لم يُمس في أسف حقيقي، ثم نظرت إلى سيدتها الأميرة ست الملك في تضرعٍ، عسى أن تتناول ولو لقيمة صغيرة، أو



شربة ماء، لكن عينا الأميرة الصارمتين، أخبرتاها أن لا أمل، فسحبت صحفة الطعام في هدوء، وطرقت باب الحجرة، ففتح لها أحد الحراس المكلفين بحراسة الحجرة، المسجونة فيها ست الملك، فخرجت وهي تغمغم في سرها:

"-ستموت حتما لو واصلت امتناعها عن الطعام، ستموت حتى، قبل أن يقتلها ذلك الخليفة السفاح بسيفه."

ثم وجدت نفسها فجأة، وهي تتجه للدرج الصاعد لأعلى، أمام الخليفة نفسه، فاضطربت في خوف حقيقي، وكأنما خشت أن يقرأ أفكارها، فوقعت صحفة الطعام من يدها، ودوى صوت ارتطامها بالأرض في صخبٍ، فانحنت بسرعة في رعب وقالت وهي تعتذر:

"-اغفرلي يا مولاي، لم أقصد."

لكنه لم يتوقف أو حتى ينظر إليها ومضى في طريقه، فأسرعت تجمع بقايا الطعام من الأرض الصخرية، كي تغادر المكان قبل أن يعود .

أشار الحاكم بأمر الله للحارسين، فأسرع أحدهما، وفتح له الباب فدخل. نهضت ست الملك فور أن دخل، ونظرت إليه بإمعان، قبل أن تقول:

"-أرى أنك بخير؟ "

"-وكأنك كنت تنتظرين موتي؟"

"-أخبرتك أنني لم أقصد تسميمك، ولم أفكر في هذا، لقد وضعت السم من أجل ذلك الشيطان الذي تقربه منك."

"-ذلك الشيطان، هو السبب الوحيد في نجاتي وبقائي حياً حتى الأن. "

ضحكت ست الملك بسخرية، وقالت:



"-حقا؟! يبدو أنك صرت لا تبصر الحقائق كالسابق يا أخي الصغير. ألم تسأل نفسك، كيف وصل الطعام المُسمم إليك، وقد حرص كبير الطهاة على وضعه أمام ذلك اللعين؟

"-ما الذي ترغبين في الوصول إليه يا ست الملك؟ هل ترغبين في إقناعي أن معركتك كانت مع ابن دغل، وأنك لم تتآمري ضدي؟ هل تعتقدين أني ساذج لأصدق هذا؟ "

هزت ست الملك رأسها في نفي، وهي تجيب، في مرارة:

"-لست أنفى أنني تآمرت ضدك، لكنك من دفع الجميع لهذا. صرت وحشا لا يرحم. تسفك الدماء بسبب وبغير، تقرب وتقصي كيفما شئت. وفي النهاية ترغب في أن يعبدك الناس، وأن يؤمنوا بأنك إلههم؟ "

"-لكنني إله بالفعل. ألا تنظرين كيف أبدو أمامك وقد تناولت السم قبل يوم. هل تعتقدين أن بشراً يمكنه أن يقاوم ذلك السم الذي كان في الطعام؟ "

ثم رفع قميصه، وكشف عن ندبة حديثةً في صدره، في مكان القلب نفسه، وهو يكمل :

"-انظري إلى هذه. إنه أثر سيف اخترق قلبي يوم الاحتفال. هل يعيش أي بشري بعد ضربةٍ مثل هذه؟ بالطبع لن يحدث. لكنني عشت رغم هذا، وها أنا ذا أمامك في خير حال، ألا يعني هذا شيئا؟ ألا يعني أني قد أكون إله بالفعل؟ "

هزت رأسها في حسرة وقالت:

"-وقد يعني أنني قد خسرت أخي الذي ربيته، ومنحته من قلبي وحبي ما لم أمنحه لأحد. يا للخسارة، حفيد الزهراء والحسين وعلي، يدعي الألوهية، ويقنعه شيطان خبيث بهذا."



قرب الحاكم بأمر الله وجهه منها، وقال في غضب:

"-كنت انتظر أن تكوني أول من يؤمن بي، كنت أنتظر أن تباركي خطواتي كما كنتي دوما. "

"-لو فعلت هذا هذه المرة لكنت أضللك وأخونك، كان على أحدهم في هذا القصر اللعين، أن يقف لك ويخبرك أنك تقضى على إرثنا كله بما تفعله، لقد صرت خطرا على الخلافة الفاطمية كلها.

أشار إلى صدره في غضب، وصرخ:

"-أنا أهم شخص في هذه الخلافة، أنا الخلافة نفسها! "

تحركت نحوه، وأحاطت وجهه بين كفيها في حنان، وقالت بعين تساقط منها الدمع ببطء:

"-بل أنت مسكين أهلكه الحكم! يا ليتني علمت كل هذا، قبل أن ألقيك بيدي هذه في هذا الأتون اللعين، لأهيئك لتكون الحاكم، لو علمت تلك النهاية، لهربت بك إلى بلد بعيد وجعلت منك رجلاً آخراً. "

أزاح كفيها عن وجهه في خشونة، وغمغم:

"-وكأنك تريدين أن أصدق أنك ما زلتي تحفظين الحب لي."

وجدت دموعها تنهمر بغزارة رغما عنها، فهزت رأسها في حنق، قبل أن تضربه على صدره، وهي تصرخ هذه المرة:

"-وهل كرهتك يوما أيها الأحمق؟ لقد كنت من أفسد كل شيء بيننا من قبل، أم تراك نسيت، وترغب في أن أذكّرك؟ "



لم يرد عليها، وألقت بنفسها بين ذراعيه، وراحت تنتحب وهي تدفن وجهها في صدره. تركها، وهو يفكر في ما فعله قبل سنين. كان قد قتل "ابن منصور الوازعي"، زوجها الوحيد، وطالما لامته على هذا، وهي تعلم أسبابه كاملة. إنه لم يطيق أن يمسها منها رجلاً غيره. لم يحتمل أن يشاركه في قلبها وحبها رجل آخر، كانت له وهو لها، ولولا استحالة أن يخبر هذا للعالم كله بهذا، لأتخذها زوجة له أمام الجميع!

ضمها لصدره، وهو يفكر كيف كانت هي المرأة الوحيدة التي أحبها واشتهاها، واحترمها، وخافها، فلم يقدر يوماً على كسرها، كانت أخته الكبرى، التي ربته، فلما بلغ وجد نفسه يهيم بحبها، والأن تأتي لتلومه .

انتظر للحظات حتى هدأت ثم أبعدها عن صدره. وقال لها:

"-هل تنتظرين مني أن أسامحك؟ "

"-أنتظر أن تقطع عنقي."

"-ألا تستحقين مثل هذا الجزاء؟ "

"-أستحق ما هو اكثر لأني من أفسدك في البداية، ولأني أذنبت معك ذنبا كبيرا قد لا يغفره الله لي مهما استغفرته. "

"-هل تقصدين الطفل؟"

"-لم يعد طفلا الآن، بل صار شاباً ملء البصر. "

"-إنني أعلم بشأنه، وأعلم أنه لم يمت، وأنك قد أخفيته لدى ذلك القاضي اللعين، لقد أسميته حسام الدين، أليس كذلك؟ "

"-أجل، أعلم أنك أمرتني بقتله وهو مجرد رضيع، لكني لم أقدر. "

"-يلوح لي أن هذا أفضل قرار اتخذته في حياتك ! "



سألته في حذر، وريبة :

"-ماذا تقصد؟"

"- لأني أريده، لكن هل تعرفين مكانه؟ "

"-ولماذا تريده الأن، هل ستخرج لتخبر الناس من يكون؟ أم ستجعل منه وليا للعهد؟ "

ضحك كثيرا، ثم مال نحوها، وقال متهكما:

"-وهل أقول للناس من تكون أمه؟ "

"-إنك لن تفعل، فلماذا إذاً تريده؟ "

"-خمني؟ "

رمقت عينه للحظة محاولة سبر أغواره، قبل أن تقول في بطء:

"-رجلك اللعين الشيخ الأسود هو من يريده، هل أصبت؟ "

"-محقة كالعادة، لن أسالك كيف أدركتِ هذا، لكني أريده وسأحصل عليه."

"-هل تفكر في قتله بيدك هذه المرة لتتأكد من موته؟"

"-الموت مصيره في كل الأحول، لكن ربما يكون ثمن موته هذه المرة حياتي وخلودي"



(43)

عند البوابة الشرقية من سور القاهرة توقف عمر وحسام الدين، كان الظلام قد حل، بينما غاب القمر في السماء، فامتلأت السماء بالنجوم البراقة، لكن الدروب، والطرقات ظلت حالكة، وهمس عمر:

"-هنا نفترق، واصل طريقك، وسألقاك بالداخل ."

نظر إليه حسام الدين في توتر، وقال:

"-ولماذا لا تأتي معي وندخل الأنفاق سويا؟ "

"-سنثير الانتباه لو كنا معا، فرصة رجل واحد في الدخول أفضل من الأثنين، المهم أنك ستجدني هناك بانتظارك، فقط لا تتأخر. "

رمق حسام الدين البيت المتهدم البعيد الرابض في الظلام في سكون وقال:

"-وماذا لو فشل أحدنا؟ "

أجابه عمر في حسم:

"-سيهرب الأخر ولا يحاول إنقاذ صاحبه، هكذا سنعمل يا حسام الدين، ولا مجال للخطأ هذه المرة، من يسقط منا عليه ألا ينتظر النجدة من رفيقه!"

رمقه حسام الدين في حيرة وتوتر ثم زفر في حرارة قبل أن يقول:

"-سؤال أخير، ألن يتعرف علي أحدهم؟ "

"-ليس وقد غير الشيخ محفوظ وجهك، حتى حبيبتك لن تتعرف عليك لو رأتك، فاطمئن لهذا. "

ثم نظر عمر حوله، قبل أن يبتعد بخطوات سريعة صامتة، حتى ابتلعه الظلام، فغمغم حسام الدين:



"-توكلت على الله "

تحرك في هدوء حتى بلغ بيتاً قديماً متهدماً، فدفع بابه برفق. لم يستجب له. دفعه مرة أخرى بقوة، أكبر فلم يتحرك. نظر حوله في توتر، ثم لمح تلك النافذة المرتفعة في أحد الجدران، اتجه إليها في خفة، وفتش بكفه عن أي بروز أو تجاويف في الحائط المصنوع من الطوب اللبن، تصلح لتسلقه، وهو يتمنى ألا يباغته أحد ما من خلف ظهره. وجد اكثر من تجويف ونتوء، فتسلق إلى النافذة في سهولة، وبعد لحظات كان داخل البيت المظلم .

كتم أنفاسه للحظة، وقد تَسمّر في مكانه، وقد شحذ سمعه، ليتأكد أنه لا أحد قد لاحظ تسلله، لكن المكان ظل ساكنا. البيت مهجور كما أخبره الشيخ محفوظ، مجرد مكان أُختير بعناية، ليخفي سر عظيم أسفل منه. كان هذا البيت هو نهاية السراديب والأنفاق القادمة من القصر الكبير. بيت مهجور يطل على الجبل في ناحية غير مأهولة، لا يسكن فيها أحد، ليصلح للفرار، إذا احتاج الخلفاء الفاطميون لهذا .

أخبره الشيخ محفوظ عن مكان الباب المؤدي إلى السراديب، فتحرك إليه مباشرة رغم الظلام، وقد طالبه عمر بألا يشعل النار وأن يتحسس طريقه بكفه حتى يصل لباب القبو. كان الباب في حجرة واسعة تقع إلى جوار الحائط، وقد تم تغطيته بطبقة رقيقة من التراب ليداريه، انحنى نحو الأرض، وراح يزيح الثرى بكفه، حتى ارتطمت كفه بالخشب، دب في جسده الحماس، فأزاح التراب الباقي في عجلة، ثم تحسس الباب الخشبي حتى وجد الحلقة المعدنية المُثبتة فيه، تردد للحظة، وفكر كيف سيكون عمر في انتظاره بالداخل، ولا يوجد مدخل لتلك الأنفاق إلا هذا، وبينما المدخل الأخر موجود في القصر، والقصر بعيد والحراس في كل شبر حوله يحرسونه. هل يستعمل سحره ليدخل؟ ربما!



قرر أن يدع إجابة سؤاله هذا لوقته، ثم جذب الحلقة بقوة نحوه ليَفتح الباب، صمد الباب للحظة، ثم تحرك في اللحظة التالية في يُسر. هبت رائحة مكتومة من الأنفاق، فأبعد رأسه للحظة، ثم نظر إلى الظلام القادم من أعماق الأنفاق، في خوف بدائي مبهم، وهويتساءل: كيف سيعرف طريقه في هذا الظلام الحالك؟ ثم تذكر ما قاله الشيخ:

"اهبط الدرجات الحجرية العشر، وحين تبلغ قدمك الأرض، تحرك في بطء ويداك مبسوطة أمامك في خط مستقيم، ولا تنحرف نحو أي طريق جانبي ولا تتبع الضوء لو ظهر."

ورغم خوفه، فقد مد قدمه داخل الفجوة المظلمة، وراح يتحسس الفراغ، حتى عثر على أولى درجات الدرج الحجري، وفي بطء وحذر هبط الدرجات العشر، حتى بلغ الأرض الصخرية. نظر حوله في تحفز فلم يسمع صوتًا أو يرى شيئاً غير الظلام، هنا تحرك وهو يمد ذراعيه أمامه. راح قلبه يدق في عنف، لكنه لم يتوقف، بلغ نهاية النفق ففعل ما أمره الشيخ، تتبع الجدران بكفيه حتى شعر بطريق آخر أمامه، فسار فيه ثانية. سار بضع أمتار، حين سطع ضوء مشعل فجأة في وجهه، حتى أنه شهق بقوة، وغطى عينيه بكفه، كي لا يحرقها الضوء، وسمع ضحكة ساخرة في رأسه، وصاحبها يقول:

"-كنت متأكد من أنك ستأتي "

فتح عينيه وانتظر لحظات حتى تعودت عيناه الضوء، فرأى ثلاثة من الحرس حوله، وسيوفهم مصوبة إليه في تحفز، وقال أحدهم:

"-تحرك ولا تفكر في أي فعلٍ أحمق، لن نتردد في تمزيقك لو فعلت!"

شعر بيأس عظيم، وهو يبحث عن مهربٍ، وقد أيقن أنه قد فقد كل فرصته في بدايتها. تمنى لو كان قد استمع إلى الشيخ محفوظ، الذي حذره من أن يُوقع



بنفسه في أيدهم. كان المخيف هو ذلك الصوت الذي لا يسمعه بأذنه، لكنه يسمعه داخل عقله، كان صوت الشيخ الأسود، وقد كان يؤكد له أنه بانتظاره. تحرك في حنق بضع خطوات، وتساءل هل يظهر عمر بغتة، ويقاتل هؤلاء الحراس لينقذه؟ لكنه تذكر الإتفاق، من يسقط لا ينتظر أن ينجده الأخر!

رأى سلمى بغتة في خياله، وشعر كيف خذلها مرة أخرى، ولم ينجح في تحريرها. ثم ألحت عليه فكرة جديدة، هؤلاء الرجال من حوله لن يقتلونه مهما فعل، هؤلاء فقط هنا لاقتياده إلى ذلك الساحر الملعون، أو إلى السجن أو إلى المغاربة، لكنهم لن يقتلونه، كان هذا يعني أن فرصة نجاته قد تكون موجودة. وفي اللحظة التالية، وضع في رأسه الخطة وقرر تنفذيها .

كان يسير أمام الحراس الثلاثة في استسلام كامل، ثم استدار نحوهم فجأة، وضرب بقدمه الشعلة الوحيدة التي يحملها أحد الحراس، وركلها بعيدا لتسحب الضوء معها، وفي اللحظة التالية اتجه إلى نفق جانبي مظلم، وراح يعدو في الظلام، فسمع سباب الحراس الثلاث، وأحدهم يصرخ:

"-لا تدعوه يهرب. الحقوا به!"

كان يعلم أنه سريع الجري، وأنه لا أحد قادر على اللحاق به لو جرى خلفه، فقط تمنى ألا ينتهي ذلك النفق فجأة فيحبسه. ظل يعدو في الظلام، وارتطم بالجدار غير مرة، وسقط مرتين أو ثلاثة، وشعر بالدماء تغرق جبهته، لكنه لم يتوقف إلا بعد أن اختفت صوت أقدام الحراس الثلاث اللذين يلاحقونه، هنا توقف في الظلام الحالك، وراح يلهث ليلتقط أنفاسه .

لحظات وعاد الصوت إلى رأسه :

"-حتى وأنت هنا ما زلت أراك !"

تلفت حوله في فزع فلم يرى في الظلام شيء، وعاد الصوت ليتكلم:



"-أنا لست حولك يا عصفوري الصغير، أنا أسكن أنفاسك وعقلك يا حسام الدين، أنا دمائك التي تجرى في أوردتك ! "

صرخ حسام الدين في عجز:

"-من أنت؟ "

"-وهل تجهلني وقد رأيتني مرارا، هل نسيت الشيخ الأسود ؟ "

كان الصوت يتردد في رأسه مباشرة ،ويدوى فيها كقرع الطبول، ثم سمع حسام الدين صوتاٍ ينبعث من الظلام. كان الصوت مثيراً للريبة، وبدا وكأنما هناك من يزحف فوق الأرض. نظر في الظلام، في عجز، وفكر في أن يعاود الهرب، لكنه عجز عن معرفة الاتجاه، الذي عليه أن يسلكه والظلام في كل مكان حوله.

كتم أنفاسه بينما اقترب الصوت الزحف، ثم أطبقت أنامل باردة، فجأة على ساقه، قفز في جنون وذعر، وركل اليد الممسكة بقدمه، محاولا إبعادها، لكنها لم تتركه، ثم سمع الصوت المألوف:

"-انقذني يا بني!"

تعرف على الصوت منذ الوهلة الأولى، كان صوت القاضي القاضي (أبو الفضل محمد بن منصور البقلي)، وارتجف في غير تصديق، قبل أن يظهر ضوء أحمر عجيب فجأة في المكان، فرأى حسام الدين جسد القاضي المتحلل وذراعه المتفسخة وهي تحاول القبض على قدمه، بينما كانت الرأس ملقاة على الأرض إلى جوار الجسد، وهي تتحدث إليه .

وبلا تفكير، ركل اليد بقوة، وراح يعدو مبتعدا في الاتجاه الأخر، اختفي الضوء مرة أخرى، وحل الظلام، وسمع الصوت في رأسه ثانية، وهو يضحك ساخرا ويقول:



"-من العجيب أن يعامل المرء من رباه بتلك القسوة، هل ركلت جسد القاضي يا حسام الدين؟ "

لم يجب، واغمض عينيه محاولا أن يتجاهل هذا الصوت، وظل يعدو لأمتار قبل أن يصطدم رأسه بالجدار في قوة. دارت الدنيا في عينيه للحظة، وشعر بالدماء اللزجة تغرق وجهه، قبل أن يسمع صوت جديد قادم من الظلام عن يمينه. تلفت نحوه في ذعر، وهو يتخيل أن جثمان القاضي المتحلل قد بلغه، والتصق في الجدار بقوة، وهو يغالب الدوار في رأسه، قبل أن يعود ذلك الضوء الأحمر الشيطاني، ليرى جثمان ذلك المغربي الذي قتله قبل أسابيع، كان يقبض على سيف في يده، وينظر له في كُرهٍ، وقد تَشوه جسده العاري وتسلخ جلده، وراحت الديدان والتقيحات تسيل من كل جزء في جسده، وسمع المغربي يقول بلهجته المغربية المميزة:

"-هيا بارزني أيها المصري القاتل في قتال شريف!"

يبارز جثة؟ مستحيل !!

ثم عاد وفكر، هل ما يراه وهمٌ يختلقه ذلك الشيخ الأسود اللعين، ليثير جنونه؟

ولما لا، في المرآة رأى موتى والموتى لا يعودون للحياة. قَرر أن يختبر احتماله هذا، فوقف في تحدٍ وغالب خوفه، وهتف بصوت مختنق:

"-ما أنت إلا وهم، ولا تنتظر أن أفر أمامك، عد إلى جحيمك أيها اللعين وتفحم في ناره!"

اقترب المغربي منه، ودفع سيفه نحو ذراعه، انتظر حسام أن يختفي المغربي أو يمر السيف عبر جسده كالطيف، لكن السيف أدمى ذراعه بالفعل، فصرخ في



ألم وهو يبعد ذراعه عن حد السيف، وسمع من حوله ضحكة أخرى للشيخ الأسود وهو يقول :

"-ما تراه هنا ليس وهما، انه المغربي الذي قتلته، وها قد جاء لينتقم "

دار المغربي حوله، ورمقه حسام في تحفز، وحين طوح المغربي بسيفه نحو رأسه، انحنى في سرعة، فعبر السيف من فوق رأسه، ثم نهض بسرعةٍ، وضرب صدر جثمان المغربي بكفه، ودفعه فسقطت الجثة، فاستغل حسام الدين الفرصة وانطلق ثانية ليفر، منها .

عاد الظلام ثانية فتوقف على الفور وهو لا يدري إلى أين يذهب، خاف أن يصطدم بجدار ما، للمرة الثالثة، فيكون في هذا هلاكه، وشعر بأنه مجرد فأر في متاهة، يحرسها قط يتلاعب به قبل أن يلتهمه .

ومرة أخرى عاد صوت الشيخ الأسود ليتردد في رأسه، في نفس السخرية المقيتة وهو يقول:

"-من الخطر أن تتوقف هنا يا حسام الدين، المغربي ما زال في أثرك، وهو يرى في الظلام وأنت لا ترى، لو كنت مكانك لتحركت! "

نظر حسام الدين حوله وصرخ:

"-ماذا تريد مني؟ اخبرني بدلا من تلك الألعاب اللعينة التي تمارسها معي، أرني نفسك ولا تجبن عن مواجهتي."

ثم دار حول نفسه وأكمل:

"-أنت تريدني، وها أنا ذا أمامك. تعال وخذني!"

"- لست أنا من ستراه هذه المرة، هذه المرة سترى من جئت للقائها! "



ومرة ثالثة تبدد الظلام مع ظهور ذلك الضوء الأحمر المنذر، وأمام عينيه كانت هناك حجرة مغلقة بباب مصنوع من القضبان الحديدية، ارتمت خلفه سلمى على الأرض، وقد تكورت حول نفسها، بينما انبعث منها رائحة عفنة هي مزيج من بولها وفضلاتها التي انتشرت حولها. كانت تتمتم بصوت خافت، دون أن تنظر نحوه. اندفع نحو زنزانتها، وأمسك بالقضبان، وصرخ في جنون:

"-سلمى، أنا هنا يا حبيبتي، ردي علي، ماذا فعلوا بك؟ حدثيني يا سلمى، ماذا فعل بك هؤلاء الملاعين. سلمى .. سلمى!"

لكنها لم تلتفت نحوه، أو تنتبه لصراخه، وبدأ وكأن عقلها في عالم آخر، فضرب القضبان بكفه، في عجز وحنق، وواصل الصراخ:

"-ماذا فعلتم بها أيها الشياطين؟ أطلقوا سراحها، دعوها تذهب!"

ومن خلفه سمع صوت الشيخ الأسود بأذنه، هذه المرة وليس داخل رأسه:

"-لن يذهب أحد إلى أي مكان، هذه المرة أيها العصفور الجميل! "

استدار في غضب ليرى الشيخ الأسود، أمامه تماما ومن حوله فرسان الظلام الستة، في مظهر مخيف ثم مد الشيخ الأسود كفه ليضعها فوق رأس حسام:

"-أخيرا التقينا يا حسام الدين، لا تدرى كم أنا مسرور بلقائك. "

ودون أن يشعر حسام الدين بنفسه هوى على الأرض فاقداً وعيه.

وعلى بعد أميال، وفي مخبأ جديد جلس الشيخ محفوظ أمام النار وهو يراقبها في هدوء، ثم رفع رأسه نحو عمرو وقال:

"-وها قد سقط حسام الدين."

وقال عمرو في ارتياح:

-" هذا يعني أن خطتنا تمضى كما نريد."



(44)

اتجهوا الجميع إلى القرافة في موكب صغير، بعد منتصف الليل، الشيخ الأسود، والحاكم بأمر الله، وجنود الظلام الستة، وفي الخلف كان هناك بعض الحرس، وقد أمسكوا بحسام الدين وست الملك المقيدين بالحبال، وهم يسيرون بينهم في خضوع واستسلام، تراكمت سحب عجيبة سوداء في السماء، وغاب القمر، وكان الظلام كثيفاً.

نظر حسام الدين إلى ست الملك في تمعن، لاحظت نظرته إليها رغم الظلام. وقد حاولت تحاشي النظر إليه كي لا يرى اللوعة في عينيها، وفي النهاية وجدت نفسها تنظر إليه، ثم ابتسمت، فقال حسام الدين:

"-أعلم أنك أمي!"

"-وهل يهم هذا الأن؟ "

"-لا أدري ما سوف يحدث بعد قليل، لكني أتمنى لو طرحت عليك مئات الأسئلة، التي حلمت طوال عمري بأن اسألها لأمي، حين أعرف من تكون! "

"-يمكنك أن تنتقي من مئات الأسئلة تلك، أهم سؤال أو اثنين لأجيبك عليهم!"

ابتسم رغما عنه، ثم قال:

"-حسنا، لتكن إذاً اكثر الأسئلة التي ألحت على عقلي، لنسأل في البداية، من يكون أبي "



ابتسمت في مرارة، قبل أن تجيب وهي تبعد عينيها عنه:

"-ربما كان عليك أن تنتقي سؤال آخر، وأتمنى ألا تلح في هذا السؤال:

"-لا وقت للإلحاح يا أمي، لكني أريد أن أعرف، هل هو حي وهل يعرف بأمري؟ "

"-إنه حي كما أنه يعلم بأمرك."

"-لننتقل إلى السؤال الثاني إذاً، لماذا أبعدتني عنك؟"

عادت لتبتسم في أسى ثم تنهدت وقالت:

"-لقد اخترت أصعب الأسئلة لتقلها على أذني!"

"-ولم احصل على إجابة واحدة بعد."

"-ربما لأن الإجابات، أصعب من السؤال نفسه. "

ثم قالت في مرح:

"-ما رأيك لو تركت الأسئلة لي هذه المرة، وأخبرتني، ماذا تشعر الأن، وأنا إلى جوارك وتعرف من أكون؟ هل أنت سعيد؟ "

كان السؤال صعبا، فبداخله لم يكن هناك أي شيء محدد، فكل مشاعره مضطربة متداخله، فمن لهفته لمعرفة من تكون أمه، لنقمته عليها لأنها تركته كل هذا العمر دون أن تخبره بالحقيقة، لشفقته عليها وهي مقيدة بالحبال مثله، وتنتظر مصيرا مجهولا كمصيره، لحزنه على ما آل إليه حال حبيبته وجنونها، وفي النهاية تَرقُبه لما سوف يحدث له بعض قليل، وهو ما لا يعلمه حتى الأن. كان من العسير أن يعلم حقيقة مشاعره، وسط كل هذا الاضطراب، فقال لها بمرح:

"-يبدو أنني ورثت عنك الأسئلة الصعبة، لنقل أن سؤالك يا أمي عسير هو الأخر، وأتمنى لو صدقتني، لو أخبرتك أنني لا اعلم ما حقيقة مشاعري في تلك اللحظة."

دارا حول مجموعة من أشجار الصبار، وعوى ذئب من بعيد، ونبح كلب من ناحية أخرى في القرافة، ثم قالت ست الملك:

"-جميلة هي كلمة أمي من فمك، هذه هي أول مرة يقولها أحد لي!"

"-كنت لتمَليِنَ من سماعها، لو لم ترسليني للقاضي ليربيني. "

"-وربما لم أكن لأسمعها قط لو لم أفعل!"

كان يتمنى لو يطرح عليها سؤالاً عن سبب هذا، لكنه أحجم، ووجد نفسه يسألها سؤالا آخراً:

"-هل تعلمين ما سوف يفعلونه بنا، هل سيقتلوننا؟ "

نظرت في عينيه وهي ترسم أعذب ابتسامة، نجحت في انتزاعها من وجهها، ثم قالت في بطء:

"-لا تفكر في هذا يا حسام الدين، فلم أعد أهتم بأي شيء بعد الأن، إلا أنني قد تحدثت إليك، وقد عرفت أنني أمك."

بلغوا مكانا واسعا، بين شواهد القبور، كان نفس المكان الذي رآه حسام الدين من قبل، حين استدعوا فرسان الظلام الثلاث الباقين، فاضطرب حسام الدين، لكنه لم يبح بمخاوفه، كي لا يصيب أمه بالذعر، وهناك شاهدوا، رسومً كثيرةً، ودوائر غريبة، منقوشة على الأرض الطينية بالجير الأبيض، وفي المنتصف كان هناك كومة ضخمة من الأخشاب والحطب، بدا وكأن هناك من أعد المكان لطقوس شيطانية، وفي الناحية الأخرى من القرافة، وقف حفارو القبور الثلاث

مقطوعي الألسن، في ثبات، وفي يد كل منهم خنجر طويل، وقال الحاكم بأمر الله للشيخ الأسود:

"-والأن، ماذا سيحدث؟ "

"-لا تقلق يا مولاي، لن تنتهي هذه الليلة إلا وقد نلت الخلود. "

"-وهل سيموت حسام الدين؟"

أجاب الشيخ الأسود في تهكم لم يجتهد في مداراته:

"-وهل يقلقك مصيره؟ إن حياته هي ثمن خلودك يا مولاي، أم أنك تفكر في التراجع؟ "

"-محال أن أفعل، لقد أعطيتك كلمتي، لتسلخه حياً، ولتستنزف دمائه قطرةَ قطره لو شئت، فقط امنحني الخلود. "

"-سوف أفعل، لكن هلا أذنت لي ببدء الطقوس، يا مولاي.

قالها ثم أشار لأحد حفاري القبور، فتحرك إلى منتصف النجمة الخماسية الضخمة، حيث الكومة الكبيرة من الحطب والأخشاب المشبعة بالقطران والزيت، وقرب نار قنديله منها، فدبت فيها النار، فتراجع للخلف، بينما اشتد توهج النار في سرعة بالغة، هنا أشار الشيخ الأسود للحراس في الخلف، فتحرك مجموعة منهم، وهم يقودون خمسةً من العبيد الزنوج العراة تماما من الملابس، دون أن يهتم أحد بتقيدهم، وإن بدا من مشيتهم المترنحة، غير المتزنة أنهم مخدرين، قام الحراس بوضع كل عبد في قلب ذراع، من أذرع النجمة الخماسية الضخمة، ورأسه كل منهم يتجه نحو النار، ثم تراجعو."

كان عجيبا أن الزنوج رقدوا داخل النجمة الخماسية، في استسلام عجيب دون مقاومة، ومن بعيد قال حسام الدين في دهشة:



"-ما الذي يحدث؟ هل سيستدعي المزيد من فرسان الظلام؟ "

لم تجبه أمه، وهي تحاول التماسك، وتفكر في ما قد يحدث بعد قليل. تحرك الشيخ الأسود نحو النجمة الخماسية، بينما وقف فرسان الظلام خلفه في نصف دائرة، ثم رفعوا سيوفهم عاليا نحو السماء، فاضطرمت فيها النيران. رفع الشيخ الأسود ذراعيه عالياً، وراح يهتف وفرسان الظلام تردد خلفه:

"نقدم لك الدماء التي هي الثمن الأكبر"

وانطلقت ألسنة كثيرة من البرق بين السحب وزأر الرعد منذراً.

"نقدم لك الأرواح التي تذيب الأسرار"

ومن كل مكان في القرافة، انطلقت دوامات عاصفة من الهواء البارد .

"نقدم لك الأعناق التي أحناها الذل"

هنا نهض العبيد الخمس الموجدين داخل أذرع النجمة الخماسية، في وقت واحد، واتجهوا بوجوههم نحو النار .

"نقدم لك العبيد لتجد من تمطيه، في رحلتك الكبرى نحو النصر"

وفي السماء راحت الصواعق تضرب الأرض في جنون، وتصيب كل مكان في القرافة، حتى دبت النيران في أكثر من شجرة وأنفجر أكثر من شاهد قبر، وتحرك العبيد في وقت واحد، نحو النار في آلية، وكأنهم لا يخشونها، فصرخ حسام الدين:
"-كلا، سوف يلقون بأنفسهم في النار. إنهم يقتلهم!"

وفي اللحظة التالية، دوت صيحات منذرة، ثم انطلقت أسهم كثيرة مشتعلة، لتصيب فرسان الظلام الستة، فاشتعلت النار فيهم على الفور، وانطلقت الصرخات المريعة من أفواههم المظلمة، وهبطت أيدهم بالسيوف التي خبت



نيرانها على الفور، بينما صرخ الشيخ الأسود في غضب عظيم، دون أن يبالي بالسهم المشتعل الذي أصابه هو الأخر، فأشعل النار في ملابسه:

"-كلا، ليس الأن!"

ودوت صرخة مخيفة قادمة من قلب النار، بينما ترنح العبيد الخمس للحظة، ثم سقطوا في مكانهم في جمود، في نفس الوقت هدأت ثورة السماء، واختفت ألسنة البرق، وذهب الرعد، وسكن الهواء العاصف .

تراجع حراس الحاكم بأمر الله في فزع، مما يحدث، بينما ظهر من بعيد عُمر، وهو يمتطي فرساً، وبيده قوس انطلق منه سهم لتشتعل النار فيه، قبل أن يبلغ هدفه، ومن خلفه جاء عشرات الرجال الذين يحملون أقواسً وسهاما مثله، وتتقدمهم كلاب كثيرة، ظلت تنبح في شراسة وجنون .

وصرخ عمر في الظلام:

"-اهرب يا حسام الدين!"

وفي نفس اللحظة، هتفت ست الملك فيه ولقد أدركت ما يحدث:

"-لقد سمعت ما قاله صديقك، اهرب من هنا، لتنجو بحياتك!"

وبلا تردد ضرب حسام الدين، الحارس الذي يقف خلفه، والذي شله الرعب، فلم يُبد أي مقاومة، ثم اندفع حسام الدين وراح يعدو في الظلام، بين شواهد القرافة .

نظر الحاكم بأمر الله حوله في غضب، ثم صرخ في رجاله :

"-لا تتراجعوا أيها الحراس وقاتلوا أولئك الخونة."

اندفع الحراس في معركة يائسة مع أتباع عُمر، وبدا منذ الوهلة الأولى أن المعركة خاسرة، لكن الشيخ الأسود الذي اشتعلت النيران في جسده كله، اخرج



من جرابه السيف السليماني، وضرب به الأرض في قوة وهو يصرخ في حنق وغضب:

"-هذا يكفي!"

وفي اللحظة التالية خبت النيران من ملابسه على الفور، دون أن يبدو عليه أو حتى على ملابسه أثر للنار، ثم نظر لفرسان الظلام الذين سقطوا على الأرض في تلك اللحظة، وبدا وكأنهم تحولوا إلى كومة عظيمة من النار، فصفق بكفيه في وجوههم، وهو يصرخ بإحدى تعاويذه، لتختفي النيران بغتة من أجسادهم، هنا عاد فرسان الظلام، لينهضوا في بطء، والشيخ الأسود يقول، وهو يفتش في الظلام من حوله بعينيه:

"-نيران قديمة لا يطفئها السحر، وسهام مشبعة بشحوم الموتى، وسيلة ناجحة لتعطيل فرسان الظلام، لكنها لا تفلح طويلاً، يبدو أنني قد أسأت تقدير قدراتك يا شيخ محفوظ مرة أخرى، لكن أعدك أن تكون هذه المرة هي مواجهتنا الأخيرة، أنتظر فقط أن تظهر، وسينتهي أمرك."

اندفعت الكلاب في نفس اللحظة نحو فرسان الظلام، لكن الشيخ الأسود ابتسم، وهو يرى كيف راحت النيران تشتعل في أجساد الكلاب، ما أن تقترب من الفرسان دون أن تلمسهم وغمغم:

"-لن تنجح تلك الحيلة في كل مرة."

واصلت كل الكلاب اندفاعها حتى اشتعلت النار فيهم جميعا، ثم رفع فرسان الظلام سيوفهم، وقال الشيخ الأسود لهم آمراً:

"-اقضوا عليهم."



انطلق فرسان الظلام كالشياطين نحو الظلام في أثررجال عُمر، فحاول عمرُ والرجال الهرب، بينما قال الشيخ الأسود وهو ينظر حوله :

"-يبدو أن عصفورنا الصغير يحاول الهرب، لكن إلى أين تراه سيذهب، والقرافة هي أرضي."

كان حسام الدين يعدو بكل قواه، وهو لا يفكر إلا في الابتعاد عن المكان، وقد أيقن الأن، أنه سيكون جزء من تلك الطقوس الشيطانية بلا شك، هل يدفعه الشيخ الأسود الملعون، لأن يلقي بنفسه في النار، مثلما كان سيفعل مع العبيد الزنوج منذ قليل؟ كان احتمالا مخيفاَ. راح يبحث بعينيه عن مخبأ بعيد في مقبرة ما، ثم وجد حفارو القبور الثلاث أمامه فجأة، فتوقف في قلق وقال لهم:

"-ابتعدوا عن طريقي، لا أرغب في قتل أي واحد منكم."

رأى الشرفي أعينهم، وعلم أنهم لن يرحموه لو سقط بين أيديهم، المشكلة أنه كان مقيد الذراعين خلف ظهره، لو كان حراً لعرف كيف يقاتلهم، بل وكيف يهزم ثلاثتهم، لكنه كان يعلم أنه لو اشتبك معهم الأن في قتال، وهو مقيد هكذا، فسوف يقع في أيديهم بلا محالة. كان السبيل الوحيد للنجاة، أن يواصل الهرب اتجاه آخر. ودون أن يضيع ثانية استدار، وراح يعدو نحو الناحية الأخرى فانطلق الثلاثة في اثره، كان يعلم أنه أسرع منهم، وكان هذا يعني أن هناك فرصة للهرب. قفز فوق شاهد قبر قديم، وانحني ليعبر أسفل أغصان متشابكة، لشجرة قديمة، سدت طريقه، ودار حول مقبرة كبيرة، وهو يرهف السمع، فأدرك انه يبتعد بالفعل عن مطارديه.

دب الأمل في نفسه، واستدار ليلقي نظرة على كطارديه، فكانوا بالفعل متخلفين عنه، بأكثر من ثلاثين مترا، وحين استدار برأسه للأمام ثانية، وجد

نفسه بين أحضان الشيخ الأسود، الذي أحاط بجسده بكلتا ذراعيه في قوة، ليمنعه من مواصلة الاندفاع أو السقوط، وهو يقول مبتسماً:

"-إلى أين تنوي أن تذهب أيها العصفور الصغير، هل ترحل قبل أن نتم حديثنا المثمر هذا؟"

وهوى قلب حسام الدين، بين أقدامه في يأس ورعب.

(45)

شعر حسام الدين بعجز لا حد له، وحفارو القبور الثلاث يحملونه، ويعيدونه إلى مكان الطقوس، تمنى أن يصرخ، أو يحتج، أو حتى يقتل نفسه، لكن شيئا من هذا لم يكن ممكنا، وهو مقيد هكذا، ووجد نفسه يهتف في يأسٍ، للشيخ الأسود الذي يتقدمه:

"-ماذا تريد مني؟ ولماذا تفعل بي هذا؟ "

لم يلتفت إليه الشيخ الأسود، لكنه أجابه:

"-لأن عملي لن يتم من غيرك. صدقني، لا ضغينة هناك بينا أيها العصفور الجميل، إنه فقط الواجب."

"-ولماذا أنا؟ "

"-لأنك الشخص المناسب، أنت تحمل في عروقك الدم الفاطمي النقي، كما أنك ثمرة علاقة دنسة، لا تعلم كم أنت مثالي لإقامة طقوسي، يا حسام الدين بصورة لا تتخيلها!"

حاول حسام الدين أن يفهم مغزى كلماته، فلم يفهم، ووجد نفسه يقول:



"-وماذا ستفعل بي؟ هل ستحرقني مثلما كنت تنوي أن تفعل مع هؤلاء الزنوج الخمس؟"

التفت إليه الشيخ الأسود هذه المرة، وقرب وجهه من رأسه المعلقة، وهو يبتسم، ويجيب:

"-لم أقل أني قد أحرقك؟ أنت أثمن من هذا يا فتى، فلا تقلق، سوف تموت بلا شكٍ، لكني أعدك ألا يكون هناك أي ألم، ألا ترى كم أنت محظوظ؟"

"-أنت لعين!"

"-سمني ما شئت يا صديقي، فلا أكترث بتلك النعوت. نحن هنا لإستعادة من هو أعظم مني ومنك، إنه أحد الشياطين القديمة، ولا أتمنى أن أرى غضبه لو فشلت. إنه واجبي وعلي القيام به.

ثم عاد ليستعيد نبرته الساخرة وواصل الكلام:

"- بالمناسبة هناك واجب عليك القيام به أنت الأخر، وأرى أن عليك الوفاء به."

نظر إليه حسام الدين في غلٍ، ولم يجبه، فواصل الشيخ الأسود حديثه:

"-إنني أتحدث عن سلمى!"

صرخ حسام الدين:

"-وماذا ستفعل بها هي الأخرى، هل ستقتلها؟ "

"-قلبي لا يحمل مثل هذه القسوة ليفعل، بل أنا هنا لأقدم لك خدمة صغيرة أخيرة."



"-لا أريد خدماتك أيها الشيطان."

"-حتى لو كان الأمر يتعلق بأن يعود عقل سلمى لها. الفتاة قد أصابها الجنون، ويمكنني مساعدتها. لو شئت أعدتها لعقلها كما كانت؟ "

رمقه حسام الدين في شك، وهو يبحث عن الخدعة في كلامه، بينما حافظ الشيخ الأسود على ابتسامته. فقال حسام الدين:

"-وهل ستفعل حقا؟ "

"-لكل شيء ثمن "!

"-ماذا تريد؟ "

"-أن تستسلم لمصيرك ولا تفكر في الفرار مرة أخرى."

بلغوا المكان الواسع الذي تقام الطقوس فيه، وهناك كان الحاكم بأمر الله والحراس وفرسان الظلام وست الملك المقيدة في انتظاره. نظر إلى الجثث المكومة حول النجمة الخماسية والتي مزقتها فرسان الظلام تمزيقاً. بينما لاحظ حسام الدين في أسى أشلاء عمر بين الجثث، فانهمرت دموعه من عينيه في صمت، وقال الحاكم بأمر الله:

"-أين كنت؟"

أجابه الشيخ الأسود:

"-كنت استعيد عصفورنا الأثير، كان يفكر في الهرب، لكني أقنعته ألا يحاول ثانية."

ثم نظر في المكان من حوله للحظات وقال:



"-إن ما حدث هو حيلة الشيخ محفوظ الأخيرة، وها أنا أرى تابعه الشاب بين الموتى، وحفيده بين يدي، فأي شيء يمكنه فعله بعد هذا؟ لو كنت مكانه لما فكرت في أي عمل أحمق الآن."

ثم اصطف فرسان الظلام الستة خلفه، وأعاد الحرس الباقين الزنوج الخمس إلى أماكنهم القديمة في داخل أذرع النجمة الخماسية، وعاد الشيخ الأسود ليقوم بالطقوس ثانية. رفع كفيه نحو السماء ورفع فرسان الظلام سيوفهم المشتعلة نحوها، فعادت الغيوم لتتراكم ثانية، وهتف الشيخ الأسود:

" نقدم لك الدماء التي هي الثمن الأكبر"

" نقدم لك الأرواح التي تذيب الأسرار"

" نقدم لك الأعناق المنحنية من الذل"

انطلقت العواصف لتضرب المكان بلا رحمة، وارتفع هدير الرعد في غضب، وراحت الصواعق تضرب الأرض، وتضئ السماء المظلمة بلا انقطاع .

" جئناك بأشلاء أعدائك لتسعد وترضى"

وألقى الحراس بجثث الموتى في النار.

"نقدم لك العبيد لتجد من تمطيه، في رحلتك الكبرى نحو النصر "

هب العبيد الخمس من أماكنهم في آليه، وبخطوات مترنحة اتجهوا نحو النار بلا تردد، وعاد الشيخ الأسود يردد:

" نقدم لك العبيد لتجد من تمطيه، في رحلتك الكبرى نحو النصر"

وبلغ العبيد النار التي ازدادت توهجاً واشتعالا، وكأنما تحتفل بقدومهم، وفرسان الظلام تردد:



" نقدم لك العبيد لتجد من تمطيه، في رحلتك الكبرى نحو النصر"

ثم اخترق الزنوج الخمس النار في وقت واحد، فراحت تلتهمهم بلا رحمة، وهم واقفين فيها بثبات، ومن قلب النار نهض كيانٌ عظيمُ من نار ثم زأر في عنفٍ. ضربت عشرات الصواعق النار فوق ذلك الكائن الناري، وكأنما تحتفل بقدومه. وواصل الشيخ الأسود الطقوس:

"نقدم لك مخالب الضباع الأشهب، لتنهش بها أعدائك "

وألقى في النار بكيس، مليء بالمخالب فزأر الشيطان، في قلب النار.

"ونقدم لك لسان مقيت لتنطق .. وعين طفل لتبصر"

وألقي الشيخ الأسود بلسان ومقلتا طفل داميتين في النار.

"وجئناك بجلد بشري شرير ليكون لكن رداء"

ثم رمى في النار برداء، ضخم من الجلد البشري، فابتلعته النار في نهم، وزأر الكائن الشيطاني ثانية في رضا، وراح يتشكل في صورة بشري في قلب النار.

"إنني أناديك باسم الشياطين القديمة، والآحاد الأولى، أن تحضر يا سيدي"

"أمنحك الاسم الذي حرمت منه لتنادى به"

ثم التفت إلى الحاكم بأمر الله، الذي اشتعلت النار في خاتمه وصرخ في ألم رهيب، وقال له:

"-هل تقبل بأن تقدم ابنك قربانا لسيد النار، وتنال الخلود. "

هز الحاكم بأمر الله رأسه موافقا وهو يكتم صراخه بالكاد.. فأشار الشيخ الأسود لحفاري القبور الثلاث، فتقدموا بحسام نحو النار، حاول حسام الدين



التملص فلم يقدر، كانت أيديهم القوية تقيده بإحكام، وانطلقت ست الملك في اللحظة التالية، وارتمت بين قدمي الحاكم بأمر الله، وصرخت:

"-أرجوك يا أخي، ويا مولاي، دعني أحتضنه لمرة أخيرة. دعني أقبلة لآخر مرة."

رمقها الحاكم بأمر الله في حيرة، وهو لا يدري إن كان هذا ممكنا أم لا ووجهه يتقلص في ألم، ثم نظر للشيخ الأسود، فهز رأسه بالموافقة. انطلق أحد الحراس نحو كفيها، فقطع الحبال التي تقيدها، واندفعت ست الملك نحو حسام الدين واحتضنته وهي تبكي في لوعة، وقالت:

"-سامحني يا بني، كل هذا كان خطأي منذ البداية."

ثم قبلته في جبهته ووجهه فقال حسام الدين وهو يحاول أن يتجلد أمامها:

"-لا عليك يا أمي، لقد سامحتك!"

قربت فمها من رأسه، وهمست في أذنه:

"-الحاكم بأمر الله هو أباك، هذا هو إجابة سؤالك الأول، وقد أبعدتك عني لأنه رغب في قتلك وقتها، فلم أحتمل هذا، إنها إجابة سؤالك الثاني."

اتسعت عيناه في ذهول وانعقد لسانه فلم يدر ماذا يقول. هل أنجبته أمه من أخيها؟ أي لعنة هذه التي تلاحقه. ليتها لم تخبره وليته لم يسأل، وبدا له في تلك اللحظة أنه من حسن حظه، أنه سيموت بعد لحظات، ولن يحيا طويلاً، ليعاني من هذا الإثم، والعار الذي صبته أمه فوق رأسه.

وهتف الشيخ الأسود مستعجلا إياها، وشيطانه يزأر من قلب النار غضباً:

"-هذا يكفي، أبعدوها عنه."

احتضنت حسام الدين للمرة الأخيرة، وقالت وهي تبكي:



"-سامحني مرة أخرى يا بني، لقد ظلمتك مرتين، مرة حين أتيت بك لهذه الدنيا، والآن حين أقتلك."

وبحركة مفاجئة، أخرجت خنجر صغير من كم ردائها، ودفعته في صدر حسام الدين الذي رمقها في ذهول، بينما بكت، وهو يسقط على ركبته، وهتفت:

"-عليك أن تموت قبل أن تتم تلك الطقوس اللعينة."

صرخ الشيخ الأسود في غضب:

"-كلااااااااا. "

ومن قلب النار امتد لسان من لهب نحوها، وأصابها في صدرها، ليلقى بها لنحو الأمتار الأربع في الهواء. اندفع الشيخ الأسود نحو حسام الدين وقال في جزعٍ:

قربوه للنار بسرعة، ما زال هناك وقت."

هنا سمع من خلفه صوت الشيخ محفوظ، وهو يقول في صرامة:

"-محال، لن يتم هذا وأنا حي."

التفت إليه بسرعة، وهو يعلم أن الوقت يمضى بسرعة، وما هي إلا دقائق قليلة، ويموت حسام الدين، ويفشل في إنهاء مهمته، فهتف، وهو يشير بإصبعه، نحو قفص من القضبان الحديدية، معلق أعلى أحد الأشجار الضخمة، كان نجم الدين راقدا بداخله، وقد تعرى نصفه الأعلى، بينما كانت أطرافه الأربع مقيدة إلى بعضها، وفمه مغطى بكمامة قوية:

"-مهلاً يا شيخ محفوظ وانظر! إنه حفيدك الوحيد نجم الدين، سيموت لو تدخلت الآن. "



ومن العدم برزت نسور وعقبان وصقور راحت تحوم حول القفص وهي تصرخ وكأنها تستعد لالتهامه، إلا أن الشيخ محفوظ قال في إصرار:

"-الكل يموت في النهاية أيها الشيطان، لكن واجبنا الأسمى ألا ندعك تنجح. "

تحرك فرسان الظلام نحوه في آن واحدٍ، فابتسم الشيخ محفوظ وقال:

"-انها دائرة حماية تلك التي تحيط بي، وحتى فرسان الجحيم هؤلاء لا يمكنهم اختراقها. "

قالها ورفع وبسط كفيه حوله، وردد:

"-باسم القوى القديمة والأسرار الخفية في السموات والأرض، أقدم حياتي ودمي وقواي وسحري، في مقابل حياته ودمه وقواه، وسحره. "

وأدرك الشيخ الأسود ما ينوى فعله، كانت هذا هو طقس (التمكين). هنا يضحي الساحر بقواه السحرية وروحه وحياته نفسها، ليتمكن من القضاء على ساحر آخر، قد يكون أقوى منه. كانت هذا الطقس أحد فنون السحر القديم، التي لا يقوم بها إلا السحرة الكبار، وكان هذا الطقس منيع فلا يمكن صده أو ابطاله بأي حال.

اشتعل الغضب في نفس الشيخ الأسود واستعد للقيام بأمله الأخير. أخرج السيف السليماني من جرابه وبكل قواه ألقاه نحو الشيخ محفوظ، كان يعلم أن هذا السيف هو السلاح الوحيد، القادر على قتل الشيخ محفوظ في تلك اللحظة، واختراق دائرة الحماية التي صنعها بسحره حوله. شق السيف طريقه نحو الشيخ محفوظ، لكنه قبل أن وقبل أن يصل إليه، اشتعل جسده فجأة بنار زرقاء عجيبة، واهتزت الأرض في عنف، قبل أن يصرخ الشيخ الأسود:



"-لاااااااااااا "

راحت شواهد القبور تنفجر، وهي تلفظ أحشائها، وضربات الصواعق تندفع من السحب نحو الأرض في غضب جَمٍ، وزأر الكائن الشيطاني في قلب في ثورة، ثم انطلق لسان من قلب النار أحاط بجسد الحاكم بأمر الله، فجذبه نحوها ليختفي في قلبها.

هوى الشيخ الأسود نحو الأرض بلا حراك، وانطلقت صواعق ستة، من السماء نحو فرسان الظلام، فاشتعلت النار فيهم قبل أن تخبو فجأة، وقد اختفوا.

ساد الصمت المكان لدقائق طويلة، وبدا وكأن كل من في المكان في غيبوبة تامة، ثم زحفت ست الملك في إعياء، نحو جسد حسام الدين الذي كان يلفظ آخر أنفاسه، وقالت:

"-اغفرلي يا حسام الدين، سامحني يا بني. "

ارتعش حسام الدين ارتعاشه أخيرة، ثم خبت الحياة من عينه، فراحت ست الملك تبكي وتصرخ وهي تحتضن جسده بقوة، مضى بعض الوقت، وهمدت النيران، وعادت السماء لصفائها، ثم اقترب احد الحراس من ست الملك وقال:

"-والان بماذا تأمر مولاتي."

رفعت رأسها نحوه في بطء، واستجمعت رباطة جأشها، ثم قالت

"حرروا ذلك الشاب المُعلق فوق الشجر، وأطلقوا سراحه. "

ثم أشارت إلى حفاري القبور الواقفين أمامها في جمود، وأكملت:

"-واقطعوا أعناق هؤلاء!"



انتقل نظرها إلى الشيخ الأسود، والذي هوى بجسده في ذهول وقد زاغت عيناه، وبدا أنه قد فقد عقله، فقالت في غلٍ:

"-واحملوا هذا إلى القصر، فما زل هناك حديث طويل ينتظره معي."

ثم تحركت في إعياء نحو كومة الرماد التي خبت فيها النيران تماما، وبحثت بعينها عن أخيها أو حتى ما تبقى جثمانه، فلم تجد شيء. نهضت بعدها في تثاقل، وتماسكت رغم ألم ضلوعها المهشمة، وقالت للحراس:

-" لا أريد أن يتحدث أحد بما رآه هنا، سأقطع لسان أول من يفعل، هل فهمتم؟"

في نفس الوقت الذي خلص الحراس نجم الدين من سجنه المعلق أعلى الشجرة ، فانطلق فور أن لامس الأرض، نحو البقعة التي إحترق فيها جده، وراح يصرخ في لوعة، وهو يحتضن الرماد الذي تخلف عنه، ثم لمح السيف السليماني على مقربة منه، فتحرك نحوه والتقطه، وضمه الى صدره وتعالى نحيبه، كان هذا ميراثه عن جده، وعلم الأن أي طريق سوف يسلكه



خاتمة

"ولليلتين بقيتا من شوال سنة إحدى عشرة وأربعمائة فُقد(الحاكم بأمر الله) واختفى. ثم نهضت ست الملك بواجبها، فأعلنت (علي بن الحاكم) كخليفة للبلاد، وأسمته (الظاهر لإعزاز دين الله) وقد كان طفلاً، صغيرا، ثم احتالت فجمعت كل من حضر الطقوس الملعونة التي ذهب فيها الحاكم بأمر الله، وقتلتهم، كي لا يدري أحد حقيقة ما حدث، ثم بعثت في طلب الشيخ الأسود، فلم تجد أمامها إلا رجل مجنون فقد عقله، ولا يعي أي شيء من حوله، فأمرت بحسبه في احدى الزنازين البعيدة المعزولة.

وبعد يومين من فَقِد الحاكم بأمر الله، وجدوا ست الملقى ميتة في حمامها، دون أن يعلم أحد سبب موتها.

أما سلمى، فقد ماتت بغتة في نفس الليلة التي مات فيها حسام الدين، ويقولون أنها صرخت باسمه مرة واحدة، ثم شهقت للحظة، قبل أن تهوى على الأرض وقد فارقت روحها جسدها.

وفي زنزانته المعزولة، شعر الحارس بالرعب والفزع من سجينه المجنون الذي راح يكلم الزواحف وراحت الجرذان والثعابين تتجمع حوله، طوال الوقت، حتى خاف على عمره، فامتنع عن إطعامه كي يموت جوعاً، لكن الشيخ الأسود رغم هذا ظل حياً، رغم هذا لسنوات في زنزانته.

وبعد عشرة أعوام، اشتعل أحد جدران السجن بغتة، وانطلقت منه صرخات تجمد الدماء في الضلوع، قبل أن تذهب ويختفي معها الشيخ الأسود، ولم يعد أحد يراه بعدها.

وفي بلاد الشمال حيث الصقيع والهمج، علم الجميع في تلك المقاطعات، بأمر ذلك الشاب الغريب، القابض على سيف عجيب لا يقهره أي سلاح، وهو يلاحق السحرة وممارسي فنون الظلام، والنكرومانسر، وكيانات مخيفة لا تنتمي لعالم البشر، وكان المحير أن أحداً لم يعلم، من يكون هذا الشاب، ولماذا يفعل هذا، وما سر سيفه العجيب؟





صدر للكاتب:

1- الجثة الخامسة ... (رواية)
2- عهود الدم .... (رواية)
3- الشيخ الأسود .... (رواية)
4- نجع الموتى .... (رواية)
5- الأعمال الكاملة (لافكرافت) ... (ترجمة)
6- خارج ظل الرجل ... (ترجمة)





Noon_publishing@yahoo.com
ت -02 35860372- 011-27772007



الحاكم بأمر الله

ولليلتين بقيتا من شوال سنة إحدى عشرة وأربعمائة فُقد (الحاكم بأمر الله) واختفى. وقيل أن سبب فقده أخته ست الملك, وكانت امرأة حازمة، وقيل أنها غضبت لأفعاله التي هددت استقرار الخلافة الفاطمية. وقيل بل تآمرت عليه جماعة سرية, حين قرب إليه رجلاً خطيراً يُدعى (الشيخ الأسود), وقيل بل اختفى لأن الله أرسل صاعقة من السماء فوق رأسه أحرقته بعد أن قال بأنه إله, وقيل أن بعض العامة قد تآمروا عليه, وقد انتشر الرعب والفزع في بر مصر كلها بسبب فرسان الظلام الذي أتى بهم ليحكموا ليل القاهرة..

تصميم الغلاف كريم آدم


ISBN 9789777780285

